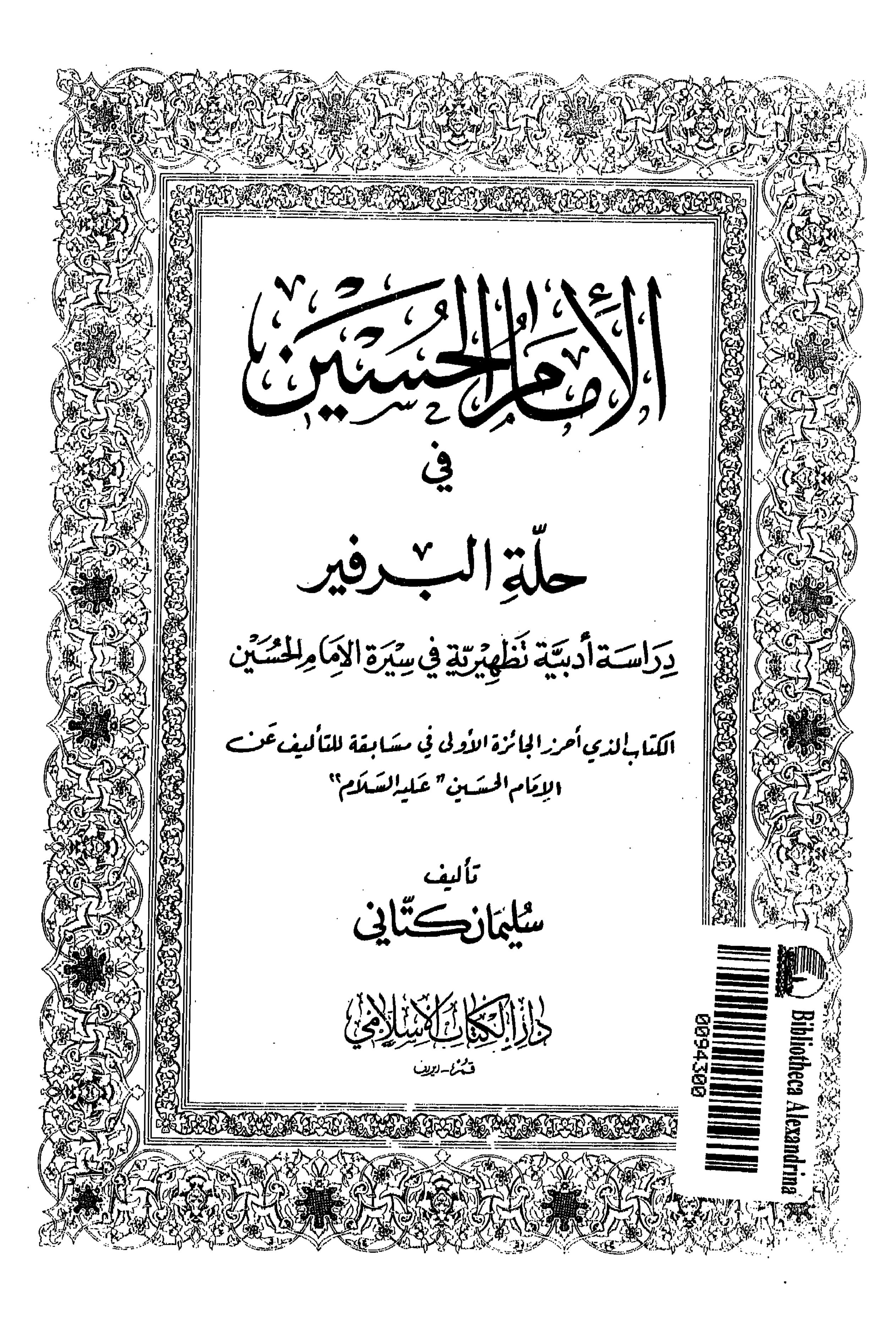


الإمام الحسين في حلة البرفير

دراسة أدبية تطهيرية في سيرة الإمام الحسين

الكتاب الذي أحرز الجائزة الأولى في مسابقة للتآليف عن الإمام الحسين "عليه السلام"

تأليف
سليمان كتاني

دار الكتاب الإسلامي
قم - ايران

الإمام الحسين

في

حلة البرفير



الإمام الحسين

في

حلة البرفير

دراسة أدبية تظهيرية في سيرة الإمام الحسين

الكتاب الذي أحرز الجائزة الأولى في مسابقة للتأليف عن الإمام الحسين "عليه السلام"

تأليف

سليمان كتاني

دار الكتاب الإسلامي

قم - إيران

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

الكلمة الاولى

انها موجهة الى مركز الدراسات والبحوث العلمية في بيروت .

تحية اجلال وتقدير لمركزكم المهتم بالدراسات والبحوث العلمية في سبيل الافادة والتنوير .

انها رسالتكم ـ على مايبدو ـ ولست ارى أية قيمة لرسالة مالم تكن في خدمة قضية كبيرة يحتاجها مجتمع الانسان ، ولست ارى اي كاتب يطيب قلمه مالم يعالج قضية صحيحة يتبناها ويرشف منها لون حبره .

لقد تمنى مركزكم المحترم ، وهو يوجه الدعوة العامة لتقديم دراسة جديدة عن الامام الحسين ان تكون شبيهة بالدراسات الناجحة التي قدمت في وقتها عن الامام علي ، وفاطمة الزهراء ، ومؤخرا عن الامام الحسن ـ واي واحد منهم لم يكن ذا وجه كريم ـ فقلت في نفسي : ومن من الاربعة هو كريم لو لم يكن مشتقا من قضية كريمة ، صبغتهم جميعا بلونها الكريم ؟ وذلك كان شأن الكاتب الذي تناول قلمه وراح يرسم فيهم .

من اين كان له ان يقدم كلمة ناجحة لو انه لم يتبنَّ ذات القضية التي غاصوا هم بها فانعكست عليه صدقا واقتناعا : ان القضايا الجليلة في الحياة ، هي الشعاع الذي يستضيء به فكرنا ، وشوقنا ، ووجداننا ، وبالتالي تصرفنا في وجودنا الانساني الذي هو بالنتيجة قضيتنا الكبرى .

ان القضية العظيمة التي امتلأ بها وجود الامام علي ، هي ذاتها التي سارت بها الصديقة الزهراء الى باحة المسجد ، وهي ذاتها التي قصف بها حسامه الامام الحسن

حقنا للدماء ، وصونا لوحدة المسلمين ، لتبقى هي ذاتها يمشي بها الحسين من مكة الى كربلاء بجبة ماطاب له الا ان يصبغها بدماء الوريد .

واقول : لقد كانت القضية واحدة ، ولكن التعبير عنها قد جاء مع كل واحد من الاربعة الكبار ، بلون ميزه عن الاخر ـ فبينما كان مع الامام الاول من لون الصوافن والقلاع ، جاء مع ابنة الرسول وام الحسنين كانه زهر ملفوح بنار ـ ليكون مع الحسن من شكل قبضات السيوف المقصفة في ساحة الميدان ـ واذا به مع الثالث الهاجع في ضمير الامامة ، انفجار وريد ضاق تحت مد العنفوان .

شكرا لمركز الدراسات ، يحرك في نفسي شوقا اتلمظ به طعما لذيذا لايزال الا موفورا على المائدة الكبيرة التي مدها الحسين ـ انها المائدة الحمراء ـ ليس المسكوب في قصاعها من سائل الدم ، انما هو من لقاح العنفوان ، تحيا به النفوس التي تابى الذل لباسا . سيبقى العنفوان ابدا نتاج القضايا الكبيرة ، تسربله الحسين في المجال الفخم الذي تتثبت به قيمة الانسان .

اما القلم الذي يفتش عن كل كلمة حرفها من ضلوع القضايا ، فانه يضفر الآن ذاته الى الامام الحسين بنبضات من مباهلة .

سليمان كتاني

مباهلة

ايه ايها الحسين

اتكون الياء ـ مضفورةً عليك ـ شامةً من عنبر في غنجة التصغير ؟
ام انها دعجة العين يتم بها التصوير والتحضير والتكبير ؟

يـااللياء الرخيمة

كاني هكذا ـ اراها ترخم ، بك ، وترسم فيك ـ وكاني اسمعها تقول :

هل انت مصغر الاسم المطيب بالبلسم

ياابن المطيبين ،

ام إنك اللحمة المندمجة بخاصرة التوأم

يانهدة التواقين

اثنان في واحد ايها الحسن المكمل بالحسين
في وحدة التوق ووحدة الشوق ووحدة العين

يااللقضية

تبيضُّ اذ يبهرها حق ، وتحمرُّ اذ يضنيها غسق ـ
وتبقى ـ هي هي ـ في وحدة الشفرة وفي لون السنا ـ
وما بين الطهر والغسق وتر يطيب هناك وينهدُّ هنا
هكذا الحسن يبيضُّ صدقا
وهكذا الحسين يحمرُّ وريدا

وفي العينين : عين الصدق الابيض
وعين الاباء المعروك بالدم ـ
تنام القضية وتصحو
في جوهر اليقظة وفي جوهر الضم

يـا للمباهلة ـ

من كان ينام في عيني الاخر قريرا اكثر ؟
انت في عيني جدك البصير الكبير ؟
ام اخوك الحسن وانت الاصغر وهو الاكبر ؟

يـا للكساء ـ

يجمع الضلعين ـ في حضن الابوين ـ تحت همس الشفتين :
ياأهل البيت ـ تنفضوا من كل رجس ـ كونوا للغد الاتي دعامة الاجيال

يـا للحق ـ

تلمسه القضية الكبرى ـ
ينهض بها العصب الاكبر ـ
ويقول : انها امتي اباهل بها امم الارض ـ

ويـا للحسين ـ

تبقى انت في ضلعي المباهلة
ونبقى نحن ـ ابدا نسأل :
هل احترقت الثورة في عينيك وترمدت ؟
ام انها نامت في مقلتيك ؟
ترقب مطلق ساعة من ساعات العمر ـ
حتى تكون هي رمقا من الثواني التي ينبض بها وريد البطولات
الصافية والمحققة مجتمع الانسان .

توطئة

ولاتزال الدعوة مرصوصة بجلالها يا شقَّ القلم ، لقد وجهت اليك بالامس تناديك الى ولوج دائرة مقطوبة بالامام علي ـ فولجت الدائرة مزودا بحبر مقطور من المقلة المشتعلة بنهج البلاغة ، ثم تتالى اليك النداء مربوطا بمنديل كانت تعتصب به فاطمة الزهراء ، فعصرت منه زيتا لسراجك تكحلت به شعاعا مشيت به معها من فدك الى باحة المسجد ، ثم جاءك الامس الاقرب بنداء يشدك الى الامام الحسن ، فسهرت معه ليلا طويلا اشرق صبحه على رباط ابيض ، وصل العراق ، بالشام ، بارض الجزيرة الام ، في حضن الرسالة التي لاتزال تعتصم بها وحدة الاسلام .

واليوم ياشق القلم تاتيك دعوة جديدة اشعر انها ـ كمثيلاتها السابقات ـ مغمورة بجلالها ، فهلا يكون لك اهتزاز اليها يلبي وجبة النداء ؟

ولكن القلم الذي كان نائما قرب المحبرة ، ما ارتعش الا قليلا وعاد الى غلاف السكون ، كانه التعب الراجع من جهاد ، فتناولته بين انمليَّ ، وطبعت على ثغره قبلة فيها نشوة ، وفيها وفاء ، وفيها مدد من عافية ، ورحت الى بعض من الاطناب أموِّهُهُ بشيء من الثناء ، حتى استدرجه الى استعادة وعيه ، واستيعاب ما انا استحثه اليه ـ قلت له :

انني اعرف يارفيقي ، وصديقي ، ونديمي الاجل ، كم اجور عليك ، واحملك الاحمال الثقيلة ، وما ذ لك الا لاني ادرك ان فيك شوقا يدفعك لاقتحام الحلبات ـ صحيح ان الكلمة هي عدتك في كل واحدة من الغمرات ، الا انك تعرف من اين تقتنصها وكيف تلبسها بهجة الحرف ، وبهجة الزيِّ ، وبهجة اللون ـ فانت فنان ياقلمي الحبيب ، وانت غواص في البحور التي تغزرُ في قيعانها منابت الدرر وانت مراقب ماهر ، تقتفي اثر الخطوات الكبيرة ، وتاخذ لك من وقعها فوق

القلاع ، نقشا تزين به جدران الاغوار وتطلي به كل حرف يتزنر به خصر الكلمة .

واهتز القلم في كفي كانه من انتفاضة جاء ولما أنتهِ من عرضي بعد ، قال : وان اقبل منك الثناء ـ فهل تظنني هكذا به اغتر ؟ انا بين يديك يارفيقي ، ويا وليي الابر ، الا انني غزارة ، ماهزتني الريح وسقتني الديمة ، الا لان اكون ريشة بين يديك ، وها انا لك تبريني بشفرة سكينك ، وتسقيني من رمش عينيك . انا لا آخذ الكلمة الا منك ، ولا ابنيها جدارا الا بخفقة معصمك ـ فهل لك انت ـ مما ارده اليك ـ ان تباهي او ان تغترّ ؟

وراح القلم في كفي الي صمت حريز ، وهو يرقب قنينة الحبر ، كأنه يهفو اليها تاخذ هي ـ له ـ مني الجواب :

ـ صدقت ياصنوي الحبيب ـ وانا مثلك لايحق لي ان اغتر ـ كلانا غزارة ياقلمي في كف الحياة ـ انها هي التي تبرينا اقلاما وتسقينا من حبرها نلون به صفحة القرطاس ، ناخذ الكلمة منها ونبنيها في حقيقة التعبير ـ فاذا كان لنا الغوص العميق والجمع الاصيل ، فذلك من معانيها الصحيحة ننقله الى الصفحة المزدهية بجمال التصوير . الصدق والغوص ياقلمي ، كلاهما في المجتنى ، يبنيان الكلمة تشف بهما ، ويبنيان النفس الى حقيقة الغرف وحقيقة التاثير .

تلك هي القضايا الكبيرة في الحياة ، تنبت منها الكلمة ، ويصدر عنها التعبير ـ والشوق والفهم هما الصيادان الماهران اللذان يتلقطان بالكلمة المنسوجة من حقيقة القضية ، والمعبرة ـ هي ـ عن حقيقة جلالها .

اما الدعوة الجديدة التي يحفزك ويحفزني الشوق الى جعلها جليلة في المضمار ، فلا اظنك الا متهيِّباً مثلي جدية الغوص فيها ، لان لها ـ في المجال الكبير ـ قضية ملتهبة بالجوهر الذي تفتش عنه حقيقة الانسان .

عديدون هم الرؤوس الكبار الذين تناولت اليهم سهما مشتاقا في حقول السيرة ، ولكني لم اؤخذ مع اي واحد منهم ، وهم العظام ، بهزة تناولت من نفسي كل كوامنها ، كالهزّة التي تملكتني وانا اتبع خطوات الامام الحسين من ارض الحجاز ، الى ارض الكوفة ـ لقد مشى الخطوط ذاتها ، واوسع منها بكثير ، كل واحد

من هؤلاء المشائين ـ لقد كان كل واحد منهم عداءا وجوَّاباً ـ ابتداء من النبي الجليل الذي لم يترك حبة رمل من ارض الجزيرة الا ونشّفها بخطواته الثقيلة ، وغمرها بفيض من عقله وروحه وحنانه ، فاذا هي تؤوب من اعتكافها الطويل ، لتنال خطا جديدا بين يدي من راح يبنيها بناء جديدا بانسان سويّ .

اما العبقري الاخر الذي كانت خطواته اوسع من الدروب ، وراحتاه اندى من كل ديمة مرت في سماء ـ فانه ماترك خلفه خطا من خطوط القوافل ، الا وزرع نفسه فيه : نظافة ، وعدالة ، وتقى ، وسُمُواً ، مما جعل مجتمعات الارض تفتش عن حقيقة وجودها الحضاري النبيل ، ولا تجده الا في الانسان الذي يبنيه حزام الامام علي .

اما تلك التي نبتت بين ذراعي ابيها كانها اعز من شجرة الدر ، فيكفيها انها مشت اقصر طريق من بيتها الذي قلعت من باحته شجرة الاراك ، الى باحة المسجد الذي كان يصلي فيه خليفة المسلمين ، لتعلمه ان العدالة الممهورة بجنان ابيها محمد ، والمسبوكة من معدن زوجها علي ، هي التي ترزم الامة وتجعلها قدوة بين الامم ، ان الطريق القصير الذي مشته فاطمة الزهراء لايزال حتى الان يمتد عبر الاجيال ، تخفق فيه ثورة نادرة المثال ،تعلم البنائين كيف يعالجون اساس الصرح الذي يليق لسكنى الانسان .

هؤلاء هم ثلاثة علموا الامام الحسن كيف يمشي فوق الدروب ، ولقد مشى بروحه ، وعقله ، وايمانه ،وكان جليلا وهو يمشي ، وكان حكيما وهو يمشي ، وكان قطبا من مرونة وهو يمشي ، ولا يزال حتى الان يمشي مشية الرئبال المختال ـ انه الغيور على امة سحبت من تحت الرمال المحرورة ، لتثبت وجودها تحت الظلال ـ انه لايزال ولن يني يعلمها ان الوحدة النظيفة ، المؤمنة ، والمدركة ، : هي التي ـ وحدها ـ تبني المجتمع بالانسان العظيم ، وان الاحقاد ليست عقلا ، وان التسابق الى مراكز الحكم والثروة ليس قوة ولا غنى ، ولا اي تحقيق يدوم ـ وان الحكم هو خدمة متفانية ، وصدق في المعرفة والضمير ، وان كل ماخطه جده الذي جمع الامة من شتاتها الى واحد ، هو الصحيح في اداة الجمع والتوحيد ، وهي التي جمعت ،

وهي التي حققت ، وهي التي لايقدر ـ هو الامام الحسن ـ الا ان يضحي من اجل تثبيتها اداة جمع لا اداة تفرقة ـ وكان التنازل عن الحكم ، والابتعاد عن اراقة الدم ، احياء لقدوة لاتزال حتى الان تقدم لكل من يحاول الوصول الى كرسي مغروز القوائم في برك الدم ،على حساب مجتمع ينهدُّ الى درك من الذل والضعف والهوان .

تلك هي الخطوط العريضة التي مشاها هؤلاء العظام ، فهل يكون الخط الذي مشاه الحسين من مكة الى كربلاء هو من ذات الطول ، وذات الوزن ، وذات الدلال ؟

ولكن السير الذي كان يبدو وكانه بلا رحل ، ولا نعل ، ولا رمح مصقول السنان ، كيف له ان يطيب عرقه وحفاؤه ، ويذكو نزفه وسخاؤه ؟ ام انه غمد خسر السيف ، وخطو نتف النعل ، وجعبة ضيعت النبل ، وفرس قفز السرج من حزامها ، فاذا بالمعركة المشدودة بالصهيل ، كانها كهف في واد مهجور ، ما جُنَّ الا بالصدى وهمهمة الصدى ، واذا بالعزم كانه انتحار لايتخفى الا تحت اقدام حافية تجوس النخاريب لتصبغها بالورم والدم ! .

انها المأساة ـ على مايبدو ـ ولكنها ليست هي التي هزتني وحركت في نفسي كوامن ماطالها احد مثلما طالتها سيرة الحسين ـ ليست المأساة هي التي انتهت بمقتل الحسين واهل بيته ، وليست هي التي انتهت بقطع رأسه وحمله هدية الى المريد الجديد يزيد !!! صحيح انها همجية ينفر من تقبلها تحصل مطلق إنسان ـ وانها تجديف يجرد كل مجتمع تحصل فيه من كل قيمِهِ الحضارة ـ الانسانية ـ المجتمعية ، وتصنفه دون الدرك الحيواني المتوحش ، ولا تغسله من زنخها الكريه الا اجيال اخرى ترده الى اعادة اعتبار نفسه انسانا لايجوز له ابدا ان يمثل حتى بذئب جاء يفترس نعجة مطمئنة في حظيرة .

قلت : ليست الماساة تلك هي التي هزتني ، وان تكن قد قهرتني وقصفتني الى ذل لايمرغني به الا انسان كافر في مجتمعي ، انما المأساة في ان نكتب الكلمة ولا نعرف كيف نقراها .

لا ـ لم تكن مسيرة الحسين من مكة الى العراق نزقا موصلاً الى جنون الانتحار ـ انما كانت مسيرةالروح ، والعقل ، والعزم ، والضمير الى الواحة الكبرى التي لايرويها الا العنفوان والوجدان . ان مجتمعا يخسر معركة العنفوان والوجدان ، هو المجتمع الذي لم يتعلم بعد كيف يكتب ولا كيف يقرأ كلمة المجد او كلمة الكرامة في حقيقة الانسان .

ومشى الحسين من مكة ، واهل بيته جميعهم في محمول القافلة ـ ومعه ابوه الرابض هناك في النجف الاشرف ، وامه الثاوية هنا في البقيع ، والمتلفعة بوشاحها المطرز ، واخوه المتزمل بجبته البيضاء ، وجده الممدود فوق المدى، ومعه كل الجدود المطيبين ، من ابي طالب ، الى عمرو العلا ، الهاشمين الثريد في القصاع ، المشبعين العطاش من بئر زمزم ، ومعه الرسالة في القرآن ، ومعه الاجتهاد وكل صيغ الجهاد ، ومعه الغيرة على مجتمع فك جديدا من اساره واعيد من غياب طويل حتى يتعلم كيف يكتب الكلمة وكيف يقرأها للحياة .

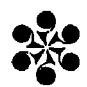
انا لااقول ان الحسين قد تأبط كل هؤلاء الرزم وسار من مكة الى كربلاء ، ليرميهم جميعا فوق رمالٍ محروقة بالعطش ، في حين ينساب الى جنبها ماء الفرات ـ انما جاء والمعين يجري من بين راحتيه ، والكلمة العزيزة ترقص مغزولة في عينيـه لقد جاء يعلم كيف تكتب الكلمة ، وكيف يقرأها العز والمجد والعنفوان ـ لقد جاء بالمحاولة الكبرى ، فانها ـ ان لم تسمح الان ـ سيكون لها ، مع كل غد ،وقع يلفظ الحرف ،ووقع يؤلف الكلمة ـ يكفي الصدى ، بقاياه تتعبأ بها حنايا الكهوف، ويستعين بها المجتمع النائم ، لصياغة حلمه ، فيفيق ويعود يبني نفسه من غبار المعمعة .

لا ـ لم تكن مسيرة الحسين غير ثورة في الروح لم ترض بسيادة العيّ ، والجهل ، والغباء ، ـ بالامس كان اخوه الحسن قدوة بيضاء ، وها هو اليوم ـ الحسين ـ يقوم بقدوة حمراء ، وكلا القدوتين مشتق من مصدر واحد هو المصدر الاكبر ، من اجل بناء المجتمع بناء تتعزز في تطويره وتتنوع كل السبل ـ هكذا قال جده وابوه في حقيقة

الرسالة ، وهكذا قالت الوصية ، وهكذا قالت له الامامةالهاجعة في ضميره والمفسرة في التصرف الاحمر .

تلك هي المسيرة ـ مسيرة الحسين ـ وتلك هي الكلمة خطهاوتلفظ بها عنفوان الحسين ، وتلك هي المأساة : تقرأ ثورة الروح انتحارا ، وتقصيف السيوف في ساحات الدفاع عن الحق انتحارا ، وبذل النفس من اجل قيمة في الحياة ، انتحارا ،والجرأة في وجه الحاكمين الظالمين انتحارا ، والمطالبة بمنعة المجتمع الصحيح انتحارا .

تلك هي الكلمة التي ادعوك ـ ياقلمي ـ الى جلوة حروفها ـ ان الحسين شرارة الكلمة . . . وهل يبنى مجتمع صحيح بغير مثل هذا الشرار ؟



القسم الاول

ازاميل

الاحضان

اهل البيت

الاساس

حجة الوداع

اين هو الحسين

انه هنا الحسين



الاحضان

ليست قليلة تلك السنوات الست ـ وهي التي حفرت في نفس الحسين حفرها البليغ ـ لقد كان ينتقل فيها ، منذ ان تكحلت عيناه بالنور ، من حضن الى حضن ، في دوامة من الحب والحنان ، قل ان تمتع بمثل نوعها طفل من اطفال مجتمع الجزيرة في تلك الايام ـ لم يكن حضن امه فاطمة رفيقا به بمقدار عز نظيره ، لو لم تكن ابنة ابيها محمد ، ذلك الذي انسكب في ابنته هذه انسكاب الحب بالحب ، والعشق بالعشق ، والرضى بالرضى ، كانه سماء لاتنزل الا في سماء ، او كأنه شوق لايتبرَّج الا بذاته ، او كأنه وهج لايتأجج الا في ضرامه ، ولا يتبرد الا في كل معين من مساكبه . لم يصف قلم بعد حب اب لابنته ، او حب ابنة لابيها ، كالحب الذي تبادله الرسول العظيم مع ابنته الصديقة الزهراء .

اقول : لو ان فاطمة الرهيفة لم تكن ضلعا رهيفا من قضية ابيها ، لكان شأنها عاديا كشان اخواتها اللواتي أَمْمَنَ الحياة ورحن الى ازواجهن يبنين العش السعيد ـ ولكن فاطمة المجبولة بحنين ابيها ، كانت قسطا آخر من اقساطه التي يسددها للحياة على صفحة الارض ، ولقد كان ربط جسدها بجسد علي مرهونا بحلم كبير مخطوف من جوهر الرسالة التي اندمجت بشوقه ، وعزمه ، وروحه ، في سبيل الأمَّة التي هو منها ، ومن اجل جعلها عزيزة وهادية لامم الارض . لم يذكرالتاريخ رجلا احب واكرم من علي على قلب النبي الكريم ، ولم ينزل احد غيره من بيته نزولا مقرونا به كانه الملازمة والالتصاق ، وذلك هو التدليل القائم بذاته بغير حاجة الى اي تفسير او تحليل او تعديل ، بانه رفيقه الروحي ، وربيبه الامثل ، وتلبيته الخارقه ، وزناده المشدود مثله بالعزم ، والحق ، والصدق ، والاخلاص ، والا لما

قال عنه : بانه هو مدينة العلم وعلي بابها ، وبان عليا وحده ذو الفقار ، وبانهما : علي منه وهو من علي ، فليكن القول هذا ـ عند من يريد ـ مختلفا ، ولكن البيت، ووجود البيت في حدوده ، وفي واقعه على الارض ، لايمكنه ان يشير الى غير هذا المعنى الجليل ، اكان قد ورد في حرف ، ام كان قد فسر بالاشارة ـ يكفي التصديق على ذلك ربط فاطمه البهية بالرجل الحصيف حتى تظهر الغاية التي بقيت نائمة في الحلم الى ان تفسر الحلم وانجب الزواج الكبير طفلين سمّى واحدا بالحسن ، والثاني بالحسين .

من فاطمة وعلي تكون القيمومة على الرسالة المسحوبة من حضن الحق ـ انها وحدها الان في الضمير ، وفي العينين . . . لقد كانت فاطمة في عين النبي ، اطهر رحم يمكن ان ينجب من يليق بالميراث الاوسع من الحدود ـ اما علي فهو وحده ـ ايضا ـ خليق بالابوة المجيدة يحققها في جلوة التطهير ـ ان الرسالة لتستحقُّ ان يحضر لها ـ مسبقا ـ مثل هذا التحضير ، فهي مانزلت لتوحيد هذه الامة ، واسترجاعها الى حقيقة الوجود العزيز بالانسان ، بعد غياب مسحوق باجيال واجيال من التخلف والتردي ، الا لأن تقتنص لها كل السبل الحريصة على صيانتها وتعهدها حتى يبقى الاستمرار فاعلا في تصاعده التحقيقي البليغ ـ لقد سهرت الجزيرة طويلا في لياليها العتيقةالدامسة ، تفتش مع كل الجدود عن قبس يجمعها ويوحدها في الحظيرة ، وليس قليلا مااهرقه ،من عقله وروحه ودمه ، انسانها المشرد عبر الصحارى والفيافي والفدافد ، ولم تحرز الا رموزا هزيلة مشرورة في احجار موزعة السدانات في مكة الاصنام ـ اما الرسالة الجديدة المنورة ، فهي التي ولدت من حوملة هذه الاجيال الغارقة في بؤسها ، وشحها ، ونزف اوصالها ـ اما وانها قد نزلت ، وضاءت ، وحققت فوق الارض معجزاتها ، فكيف لها ان لاتسهر طويلا مع معطياتها ، وكيف لها ان لاتتحسب في المحافظة على مغانمها التي حققت وجودها الانساني فوق الارض ، وفي حضن الحياة ؟

لقد كان التحسب العظيم في صيانة الرسالة مرصودا في الرجل المبني بناء متينا ، ولايعني البناء ان النبي الكريم هو الذي بناه ، اكثر مما يعني انه اكتشفه

مرسوخا في نفسية الفتى علي ، عندما لمح ـ لاول مرة ـ جبينا تتخبا دونه نجابة ومتانه في الخلق والروح ، هي كل مافي الانسان ، من روائع . لقد لمح كل مايجول في عينيه من آفاق تطل به على مرح وسمو في النفس ، هي وحدها الصفات الكبيرة التي تجذبه اليه في عملية الالتصاق والانضمام ، لتكون له ـ به ـ وحدةً في الطوية تهيئه للبلوغ المشتاق الى التحقيق الرائع الذي يتجلى به جوهر الانسان في حضن الحياة التي هي فيض ربه العظيم الرحيم .

هكذا هي قصة علي بن ابي طالب في التحامه الرائع بالرجل الاخر الذي يستعد للأطلالة الكبيرة التي تستضيء بها رسالة الاسلام ـ وهكذا هي قصة فاطمة الزهراء بالذات ـ لقد كانت لمحا اكتشافيا من جبينها ، وعينيها ، وتكوينها الانثوي ، وكانت تخصيصا رائعا آخر يلتصق بالرجل البعيد المجال ، ومن ذرية هذين النورين الوافدين من اللمح ، سيولد لمح جديد آخر معقود في جبين سيسمى الحسن وفي جبين آخر سيسمى الحسين .

ـ ٢ ـ

لقد تجمدت الزعامات التقليدية في الجزيرة على امل ان تنام دون ان يعود فيلمها وعي ، مع انتقال النبي الكريم الى الرفيق الاعلى ـ هبت تعلن انها لم تصدق تحسب الرسول باسناد مهمة الاهتمام بصيانة الرسالة الطرية العود الى امتن رجل صدقها وشارك في تمتينها حفرا في النفوس . فليكن اجتماع السقيفة ـ تململا من هجعة ـ ابعد الرجل المحسوب ركنا من الاركان المعتمدة لمتابعة الخط وترسيخه الا ان واقع التاريخ ، وواقع الرسالة التي لاتزال حتى الان تنمو وينمو بها عالم الاسلام ، يشهد بان لعلي مكانة مجيدة القيمة في ضلوع الرسالة ، لايجهلها الحق ، ولا يقدر ان ينكرها المنطق ـ وما من احد على الاطلاق تمكن من فصل بيت علي عن بيت الرسول ، لافي الحقيقة ولا في المجاز .

اعود فاقول : فلتكن للسقيفة عينها الحولاء ـ غير ان حولا هناك لايطفيء نورا في عيني علي ، ولا شعورا ضمنيا يعيش به اهل البيت ـ ان الذين جمعهم مربيهم

الاكرم ، وضمهم تحت كسائه ليدفئهم بعطفه ، ويطهرهم من كل عيب ، هو الذي يتحسب بهم ، اذ يبنيهم لاستلام الغد ، وان الغد العظيم هو في استمرار الرسالة التي تسترد الانسان الى حقيقة الرشد ، وحقيقة بناء المجتمع الموحد بالوعي والحق ـ انه يعرف انه بعد لحظات قصيرة سيعبر تاركا لهم الدار ، وابناء الدار ـ فليتثبتوا انهم هم المعنيون المنتدبون للمحافظة على صيانة القرار، الى ان يطويهم ـ بدورهم ـ سلطان الحق ، فيتركون للقيم الاخر رسالة مستمرة بنظافة الحرف ، وامانة النهج ، وحقيقة التطوير المركز بالايمان والجوهر .

انها المهمة المنتدبون اليها ، وانها القضية الكبيرة والجليلة التي ساهم بجلوتها واخراجها عقل علي ، ولب علي ،وصدق علي ـ وانه البيت الذي جعل النبي العظيم حدوده مربوطة بحدود أخرى ، هي ابعد من القربى ، واثبت من خطوط الانتساب في مجتمع سينسى انتسابه الى كل بطن من بطونه القبائلية، ليبقى له ـ فقط ـ انتساب الى القيمة المجتمعية الكبرى التي قدمتها له الرسالة ، وجعلته بيتا واحدا لمجتمع انساني واحد ، يفهم ويعي حقه في الوجود الحياتي الانساني الكريم .

انها مسؤولية راح ينوخ تحت جلالها البيت النبوي المشعّ والمبني من لمح الرسول الابعد ، ومن تحسبه الابلغ ، لتكون منه انطلاقة لسياسة العهد الطويلة الامد ، والمحصنة بالنظافة التي تنجبها النفوس الكريمةمستقاة من صدر ربها في الحياة معينا لاينضب ، والرسالة الكريمة هي ـ بدورها ـ نفحةٌ من روحه التي لاينمو ويتبارك الّابها وبقدسيتها مجتمع الانسان .

ان لايعي اهل السقيفة او اية سقيفة سواها ، ثقل المرام ، لايعني انه ليس ثقلاً رسا بجلاله على اهل البيت ، ولايعني اهل البيت تخصيصاً لحدود رابطة الدم ، بل يعني بيتا لفّه النبي الكريم بقصد مربوط بتعهد الرسالة ـ انهم اول المتحسّسين ، واول المعانين ، واول الرازحين تحت الوطأة الجليلة ، فليكن البيت هذا ـ في وجدان اهل البيت ـ بيت الامة الافيح والافيأ ، انه ـ في وجدانهم ايضا ـ بيت الامس الصغير ، وبيت اليوم الاشرق ، وبيت الغد الكبير الذي يحيا فيه الانسان عزيزا كريما ، ومثالاً لكل اسرة يعمر بها مجتمع الانسان .

على اي شيء يغار اهل هذا البيت ، لو لم يكن لهذا الذي يغارون عليه هذا الوزن ، وهذا الثقل ، وهذا الغد المرتقب ؟ انهم يغارون على مجتمع تلقط بكل اسباب تراثه وعزة وجوده ، من ان يعمى عن سبل الصيانة والتعهد ، فيبتعد كثيرا عن حقيقة الجنى . والمجتمع ـ اصلاً ـ هو مجتمع اهل البيت ، اما الوعد الكبير ، فهم الذين نزفوا الدم من اجل تحضيره وتقديمه ـ هم الذين اعدّوا المائدة وهشموا ثريدها الطاهر ، وهم الذين ملأوا كؤوس المشرب بماء فرات . وهم الذين سكبوا في الحرف جلال المعاني ، فاذا في كل آية من الآيات قرآن يبني انسانا صحيحا صادقا ، يتحقق بوجود مثله كل مجتمع سليم من مجتمعات الارض ـ انهم اهل البيت ـ ولايدّعون ـ اليس نبيهم العظيم ـ وهو منهم ـ هو الخلّاق الجديد المبري من روح الحق ، ليقدم للجزيرة ، وللانسان ، قرآنا جمعهم ولايزال يجمع اجيالهم واجيال العديد من المجتمعات الذين ينادون من فوق المآذن : بسم الله الرحمن الرحيم .

ولا يزال التاريخ ، ذلك المسّاح الأصدق ، يصف لنا دارة بناها الرسول في المدينة قرب المسجد . لقد نزل في شقٍّ منها النبي الكريم وخصص الشق الاخر لسكنى ابنته فاطمة ، بعد ان جمعها بعلي في عملية تتميم الارادة المحتسبة ، وتحقيق الحلم المنسوج بفتنة الغد .

هذا هو البيت الصغير الذي كان يعود اليه اثنان بعد كل جولة يجولانها من اجل تثبيت جوهر الرسالة ونقشها في معدن الانسان ـ انهما ـ اثناهما ـ كانا يعودان بجعبة واحدة مليئة بالتحقيق المثبّت والمركّز في هذا البيت ، وضمن هذه الحيطان المصغية الى النفس المليء بالحق والوجدان ، كان الاثنان يتبادلان العرض والدرس وغربلة الاحداث ، وكانا يبنيان التصاميم العريضة ، والدقيقة ، لجعل العد الآتي مؤهلا لان يكون نبضة صادقة في تأليف الزمان . مامن حكمة جالت في عقلهما وروحهما الاّ واندرجت على هذا البساط ، وتحت هذا السقف ، حتى يكون توحيد غزلها باهراً في حياكة الثوب الذي سترتديه الامّة في نهوضها من غفواتها الطويلات الى يقظتها هذه الحاضرة والمكللة بالطهر ، والرشد ، وروابط الصواب .

اثنان ـ قلت ـ وهل هما غير النبي العظيم ملتحما بفتاه الاخر، او فلنقل : ملتحما بثقله الموزون في وحدة المنطق ، ووحدة الصدق ، ووحدة الجوهر ؟ اقول ذلك ولم المح حتى اليوم ، من الامس الدابر الى اليوم الحاضر ، امتعاضة واحدة رشق بها التاريخ طويّة الامام علي : بان هنالك ريشة ضئيلة تُخَفِّفُ من ثقله في ميزان الحق ، والعدل ، والفهم المقدس ، والتحلي بطهارة الصادقين .

في هذا البيت الصغير الصغير ، وهو ـ بالقصد والمعنى ـ الكبير الكبير ، تمّت جولة الحلم ، وانعقدت جلوتها في اللحظة التي بدأ يدرج فيها طفلان ، ما قصّ شعريهما جدّهما ، وتصدَّق بوزنه فضّة تصرف على اطعام المساكين ، إلاّ ليكون لاسميهما تسجيل جديد في صفحة تاريخ الامّة ـ لقد شعر مجتمع الجزيرة بان الحسن والحسين هما اسمان جديدان لم تتلقط اذن بعد بنداء وجهه احد من شيوخ القبائل الى اي فرد من افراد القبيلة ـ صحيح انهما لفظتان عربيتان ، مشهورتان في اللفظ والتخاطب ، ولكنهما ما كانا مطلقا اسمين لاي شخص مشى على صفحات هذه الرمال .

لقد شعرت الجزيرة بهذا الجديد ، والتاريخ ايضا قد شعر ، أمّا الجديد الكبير النائم في عين هذا الجديد الصغير فانه بقي كانه النعاس الذي يقطب العين فلا ترى ، وانا ارى الان أنَّ السقيفة في ذلك العهد قد تخبّأت بهذا النعاس وانكرت جديدا ينام في الاسمين المشتقين من روعة الحلم ، واللذين يدرجان في البيتين الموحّدين بالفهم والصفة ـ امّا الخمسة الذين جذبهم القصد واجتذبهم الى صدره التحسب الاكبر ، فانهم هم الذين لبثوا يهتدون بتأليف النهار الجديد الذي ستكون له شمسه الاخرى .

ـ ٣ ـ

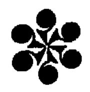
منذ ان هبط الحسين من رحم امّه الى حضنها الوثير ، تلقّفته الاحضان من حضن الى حضن ، وبقي ينمو ولايدري اي حضن هو الارفه والاوثر ـ لقد امَّ الحياة صغيراً ضئيلا ـ لم تكن ولادته وهو في شهره السادس الاّ نحيلة كنحول امّه في

خشبة جسدها ، وما احتاك به من زهيد الشحم والدم ، من هنا كانت الولادة نحيفة رهيفة كالمصدر الذي انزلقت عنه ـ غير إن الاحضان التي سربلته باكثر من دثار ، نشّطت فيه طاقات عجيبة من التدله النفسي ـ الروحي ، ما شَحَّ انعكاسه على عضلاته والياف اعصابه ، فاذا هو كأنه رشأ يملأ البيت حركة ودلعا ورواء ، واذا هو اكثر من جاذبية شغف بها المحيط كله ، من ساحة الدار التي تظللها شجرة واحدة اسمها « الأراك : الى داخل البيت الذي كانت حيطانه وسقفه ترشح بما لايعرف من أيٍّ ضوع هو ، لقد راح الفتى يشعر انه دلاعة البيت وهزته الصغيرة ، وكانت النشوة فيه تحتار من اين تأتيها الاشارة ـ فبينا يغرق فيها في حضن امّه كأنها حرير مبطّن بمخمل ، اذا هي ـ في عبّ ابيه ـ كأنها اعصار يتناحل في نسمة الصبح ، أمّا في حضن جدّه وتحت عينيه ، الناضحتين بالحبّ ، فكأنها شعاع دفء هابط من كوّتين هما من بهجة الصباح انقى وازهى .

وهنالك حضن رابع كان يتعب وهو يتلقّط به ليحتويه ، وهو حضن الحسن اخيه الذي يزيده بالعمر سنة وعدّة اشهر ، ولم يكن يعرف الحسين اي طعم كان يتلذذ به وهو مضموم الى صدر اخيه ، كأنه نكهة معجونة بسويقٍ لااسم له ، تلك هي الاحضان التي احتوت الحسين منذ امّ الحياة وراح يدرج في البيت الى ان تركه جدّه الكبير في حضن راح يفسّر له ـ بالتدريج ـ كل معاني الاحضان التي احتوته طفلاً ، وحضّرته ـ بدوره ـ لان يكون حضناً يتناول الرسالة الى صدره وينفخ فيها نفساً مقدوداً من صدره المليء بالعنفوان .

لقد ضاع الحسين في تعيين اي حضن تدله فيه ، كان اعطف وارهف من الاخر ؟ ولكنه ـ بالحقيقة البارزة ـ كان مشتقا منها جميعها على توحيد والتزام ـ لقد ضمّته جميعها لانها كلها كانت حدوده في المبدأ ، وفي صيانة الجوهر ، انه من هذه الصياغة الكبيرة التي احتضنها الطالبيون الهاشميون ، فاذا بها ، ومن مراناها في النفس تتفتق عن رسالة تفوّه بها الطالبي الهاشمي ، فارتدّت الى الامّة العظيمة امانتها المحفوظة في عقل وجهد نبيها العظيم محمد .

إنَّ القصد المنسول من هذه الرسالة التي حققت ذاتها فوق الارض وتحت ظلال السماء ، هي التي وسّعت ودفّأت الاحضان التي انغلقت كلها بالتساوي على تعهّد الحسن والحسين ، ليكونا ضلعين مخصصين لرعاية الخط الطويل ، انهما من اهل بيت حدوده في سوار من نبوّة انتجت رسالة تتحدد بها الامّة ، ويتحدد بها الزمان الجديد ، ويتحدد بها الانسان الجديد .



اهل البيت

ولكم تمنيت على التاريخ ان لايقرأ علينا الكلمة بحروفها بل بمعناها النازل فيها ، الا تراه هكذا قد تصرَّف وهو يكتب على احدى صفحاته « اهل البيت » وهو يفسّر الكلمتين بحروفهما لابمعناهما المقصود ؟ والبيت هنا واهله ، لايعنيان في كلمتيهما اساساً مضروباً لاقامة اربعة حيطان تنشأ ضمنها وحدة سكنيّة تنزل فيها عائلة مؤلَّفة من رجل وأمرءة وعدَّة بنين ـ إنّما البيت واهلوه هما رمزان ـ بالذات ـ الى مجتمع ظهر منه مشتاق رائد تمكَّن من رصفه ورزمه في اطار جديد ، ومضى به الى تحقيقات رائعة المثال ، وخارقة المجال ، نشلته من كينونة الى كينونة ، فاذا الفرق بعيدٌ بين انسان ، كان يتشرَّد هنا وهناك فوق الرمال كانه مثل هاتيك الغزلان لايقودها العطش الاّ الى واحات من سراب ، وانسان دَلّه عقل كبير الى قضية كبيرة في الحياة ، وجد بها منهله لحقيقته الانسانية التي يبنى بها مجتمعاً صحيحاً يحقق به انشودته في الوجود .

الم يكن العظيم محمد هو الذي انفجر به شوق الجزيرة العربية الى سحبها من كل حرَّاتها الراقصة بالزفت والكبريت ، الى واحات من نوع جديد يسرح فيها نسم ، وينبت فيها ظل ، ويجمعها رشد يخلصّها من تشريد وتخريب ، ويوفر لها نظاماً ينشلها من غزو ، وقتل ، وهدر قوى يمتصّها الجهل وفقر الروح ، وتبعثرها ـ توهيناً وتفتيتاً ـ روح قبلية عشائرية ، متزمّتة في تجمهرها وتصنيفها المرصوص في الافخاذ والبطون .

من غير محمد ـ بعد هذه الالاف من السنين المهدورة ـ تمكّن من اشعال هذه الحرات اتوناً مؤججاً بنار زفتها وكبريتها ، رمى اليه كل هذه الاصنام التي كانت

تكبّل هذا الانسان عن بلوغ حقيقته العظمى في الحياة ؟ لقد كان هذا الانسان بلا كتاب ، فهجّأ له ـ لحظة بعد لحظة ـ كل حروف الكتاب ، كان فرداً يتقن القفز بين المفاوز وخلف الطرائد فضغطه إنساناً يعرف كيف يمشي على الطريق ، وكان قبيلة تلعب بها البطون والافخاذ ، فجاهدها حتى جعلها في الوحدة المجتمعية المؤمنة بالحقيقة ، لقد كان هذا الانسان بلا قضيّة فدمجه بالقضية ، وافهمه انَّ الامّة الواحدة لايعلو لها الاّ صرح واحد مؤمن ، متين الاساس ، وعزيز الحجر ، وكريم السقف ـ انه بيت الامَّة الواعية ، يوحّدها الشوق ، ويجمعها العقل الى تعزيز المصير المشترك .

هل كان احد غير هذا الفتى الرائي ، في حقيقة العزم والاقدام لخوض غمار معركة كان يبدو انها خارقة الجنون ، واذا بها ـ بعد اختلاء في غار ـ تحقق ذاتها ، وتحقق المعجزة التي لم يحققها ـ مجتمعين ـ كل الابطال الذين الّفوا ملحمة هوميروس ؟ انها لعمري اضخم معركة حصلت على وجه الارض ، كان بطلها انسان حقيقي ، ولم يتجاوز الوقت الذي احرزت فيه النصر عشر سنين ـ واذا بمجتمع ، برمَّته ، يلتّم الى وحدة فوق ساحة كانت تلتهمها المسافات الفارغة ، وتَفْرِطُهَا العادات والتقاليد ، وابالسة الشياطين ، والوف من القبائل المشرَّدة ، والعشائر الضائعة في الليل ، وكل شيخ من شيوخهن كانه صنم بلا عين ، ولا قلب ، ولا لسان .

اجل ـ انها معركة التهبت بالحق ، واشتغل بها الوجدان المجنح بالخيال ، على صهوات بيض راحت تحرر الارض من عبوديتها المعفَّرة بالسراب وبالغبار ، وترفعها الى فضاءٍ يمرح فيه شعاع سني النور ، مربوط الضلعين بالاسراء والمعراج ، فاذا السموات السبع ، وكلها موسوعة الممرات الى جنان تشرب الكوثر من راحتي الوعد السخي الذي سيتمتع به الانسان الذي يسمو بالحق ، والصدق والمعرفة ، وهو يتحلّى بالمثل الكريمة النابعة من ايمانه باله واحد امثل ، يخلّصه من كل عبودية ، وينظفه من الرغبات السود ، ويزيّنه بالصدق ، والطهر ، والعفاف ، ويحضّره لان

يكون انساناً صادقاً في دنياه ، ليكون ثوابه جنة من ذلك الطراز ، وهي ـ ابدا ـ جنة سيجدها مزروعة في نفسه المحررة من الكذب، والغش ، والبهتان .

ماشحّت في هذه الملحمة الرائعة بطولات لحمت الارض بالجنان ، وما ضَؤُلَ الثواب على المدعوين الى معانقة الحقيقة الباهرة ـ وكان الثواب تحقيقاً آنياً مترجماً على الارض • هكذا كانت الترجمة العظيمة متجلية في الكلمة الواحدة التي هي « الرسالة » ، وكان التحقيق البليغ ملموحاً في توحيد المجتمع بانسان رمى فرديته المنهوكة بقبائليته وعشائريته ، وفتائل زعاماته ، وثعابين اصنامه ، وراح يتمتع بمجتمعيته التي هي الان في حقيقة الوعد الكبير الذي زرع القيمة في الانسان ، فاذا الحياة الكريمة هي الجنّة التي لمحتها عين الاسراء والمعراج .

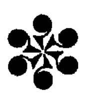
هذا هو المجتمع الامثل ـ لقد حققته الرسالة اذ بنته بيتاً كريماً تنزل فيه لتخلد معه في القيمة المستمرة في وجود الانسان ـ ستدافع عنه اذ تدافع ـ ابدا ـ عن حقيقتها في ذاتها ـ ومن هنا كان البيت بيت الرسالة ، امّا اهلوه المخصصون فهم المنتقون عنصراً متيناً للصيانة والتعهد ، حتى تبقى الرسالة فاعلة فعلها المتصاعد من اجل ان يعمَّ الرشد ، ويمتن هذا الانسان بالممارسة التي تنسيه مواطيء قدميه في امسه الهزيل ، وتنجيه من الردة في يومه الطالع .

هكذا بنيت الملحمة من اجل تثبيت بطولاتها فوق الارض ـ اما البيت الهاجع في معناه ، فهو البيت الذي بنته الرسالة ، وهو المجتمع المبني بها ـ اما الذي ينزل فيه الان فهو الرجل الاخر ، لا لانه عصب توشجت به عروق الدم والقربى بل لان الرسالة هي التي بها قد توشج ، فانشق منها بين يدي البطل الكبير الذي نسج لها ملحمة لفها بها في المعركة التي دمجت الارض بجنان النعيم ، وطهرت انسانها تطهيراً .

لقد كان التاريخ في تفسيره « اهل البيت »اشبه ببطن من بطون القبائل في تلك الايام ، تجمعها روابط النسب واللحم والدم ، في حين ان النبي العظيم يرى

الروابط هذه وجعلها مهدورة في المجتمع الواحد ، وجعل البيت المسمى رمزاً للبيت الكبير الجديد الموحد .

ان اهل البيت هم الوصية المقصودة لتناول الارث الذي هو رسالة ملفوفة بملحمة حقيقية ماشهدت الارض نظيرها من الملاحم - اما الحسن والحسين فمنهما الحلم الذي انبثق من الوجدان الممسوح بالشوق والخيال - انهما من صلب هذا الوجدان وهو مرشوق بعظمة الرسالة ، سيكونان مخطوفين من بهجة اللمح ، لقد نشأ ابوهما وهو يأكل من ذات الخمير ، ويتربع على ذات الحصير - وهكذا نشأت امهما تمتص رهافتها من ثدي تلك التي ذابت بين يدي زوجها كما تذوب شمعة مقدّسة امام نافذة المحراب ، وها هما طفلان يلعبان في باحة المسجد ، ولكنهما ماكانا يشربان الاّ كوثراً صرفاً سيكون به تحقيق الميراث ، وتحقيق الوصية، وتحقيق الامامة ، وتحقيق الوعد الذي تعيش به رسالةماانفكّت ملحمة يلتحم بها اسلام الارض بين يدي ربها الرحمن الرحيم .



الاساس

لايمكن ان يكون للقضية غير هذا الاساس ـ لقد كانت القضية مطلقة في مرماها وجوهرها ، فهي ماتناولت تنظيماً عاديا من شؤون الهندسة ، كانشاء بيت ، او انشاء قصر ، ينزل في الوحدة الصغيرة عائلة مسكينة ، وفي الوحدة الاخرى امير له ثراء وجاه وسلطان ، انما تناولت شانا حياتياً آخر ، له من الحقيقة والشمول ، تصميم وتركيز في عملية بناء الفرد بناء انسانياً ـ ، مجتمعياً ، تتحق به الغايات الشريفة في الحياة ، فلا بيت ينشأ ـ والقضيَّة هذه هي المطروحة فوق البساط ـ ولاقصر ينشأ ايضاً ـ وتكون لهما حقيقة الثبات ، مالم تحفر اساسيهما عناية القضية الكبيرة التي تركز نظرة الانسان على الحقيقة الصادقة فيه ، فيبني مجتمعاً صادقاً يصون فعالياته الفردية الانسانية المتحولة ـ حتماً ـ الى مجتمع سليم منيع ، وعندئذ يكون له البيت ، والقصر ، والمتعة بالعمران ـ ان الامة الصادقة ، هي الامة المنيعة ، لايدعمها في مناعتها الّا الحق ، والصواب ، ونظافة العقل ، والروح ، وهي كلها ـ في العدل والمساواة ـ وحدة عظيمة يجدها الانسان في ضلوع المجتمع .

تلك هي القضيَّة ـ انها حشو الاساس ، وانها هي البيت الذي سكن فيه باعث الرسالة ، وانها هي الاساس الذي تقوم عليه جدران هذا البيت الذي هو ـ بكل محيطه ـ بيت الامة في حقيقة الرمز .

ايكون اهل هذا البيت ملموحين حجارة في الاساس ؟ ان للمنطق اصبعاً تستقيم بها الاشارة ، وان للقضية تعييناً تتوضح دلالته الى المقلع المرصوص بصلابة الصوان ، وان للحقيقة عيناً لم يدعج بها الا علي بن ابي طالب وهي ترنو اليه بانه من المقلع الممتاز الذي يصح به رصف الاساس .

ومن الجهة المقابلة ـ اتكون الامامة ركناً يقوم على الاساس ؟ ولكن القصد الحكيم كانه جعله سربا ينضح منه ليعود ويسقيه فلا يعطش ، اما المعنى فانه ابداً واحد فالقضيّة التي هي في عمق الشمول ، والتي كلّفت جهدا يوازي عمر الجزيرة في التفتيش عن واحتها الكبرى ، تتطلّب صيانة اساسية مركّزة على مثل النظافة والجدارة اللتين يتجوهر بهما معدن علي ، كما وان القبليه المزيلة العقل والمزيلة الانسان ، اصبحت الان ترفض اعادة لملمة حروف اسمها امام جلال القضيّة التي انبسطت بها ارجاء الجزيرة في وحدة مجتمعها ـ ستكون الامامة الكرسي الجديد والانظف ، تجلس فيه ركيزة الادارة ، دونما احتياج الى اية استشارة أو اثارة ، ان النظافة المرمية في الاساس ، وفي المدماك الاول ، هي التي تستشار الان ، والتي ستستشار في الغد ـ ولكن الامة التي سيصلب عودها فوق هذا الاساس سيكون لها ، في مثل هذا الصدق والطهر ، ذياك المران ، وستبقى القضية الكبيرة التي جمعتها هي مستشارها الافخم ـ ينجيها ـ مادامت في وضوح الصراط ـ من العثار .

في مثل هذا الجو المفعم بالمسؤولية البالغة العمق ، والقصد ، والجوهر ، كان يعيش البيت واهلوه . لم يكن الحسين الذي يقفز الان على الطريق الممتدّ بين باحة البيت وساحة المسجد ، ليفقه كثيراً ثقل القضيّة ، ولكنه كان يشعر ان شيئاً عظيماً يدغدغه وهو يفرق الناس الجالسين القرفصاء ، وهم يصغون الى كل كلمة كانت تخرج من بين شفتي جده الجالس فوق المنبر . لقد توصّل الفتى ـ بعد عناء ـ الى جدّه المنبري بجلاله ـ لقد مدَّ يديه وتعلق بطوق الجبَّة ، وصعد الهوينا ، وكف جده يسنده من الوراء ، واذا به ، رويدا رويدا ، يمتن ربوضه فوق المنكبين المستسلمين لارادة الفارس . لقد تبسّم الجد الذي هو الان رحل الحسين وهو يقول : هذا سيد ثان من اسياد اهل الجنة ، فطوبى لامة فيها مثل علي ينجب !!!

ـ ٢ ـ

وهذه حروف اخرى مارصفت ذاتها بذاتها ـ ماكانت الحروف لان ترقص على اذنابها فتتلحّن بها الكلمة معطوفة على رنّة الوتر ، انّما المعاني هي التي يشغفها

القصد فتتنضَّد حروفا يرقص بها الوتر .

لو لم يكن الحسين لمعة حلوة في حلم ذلك الذي رقص الدوي في اذنيه فصار بعثاً ، وصار حرفاً ضجَّت به الايات في القرآن ، لما كان له الان ان يلف عنق جدّه بذراعيه الصغيرتين ، ويجثم فوق منكبيه ويثغثغ بالاية الهابطة من الجنَّة التي رآها جدَّه سيداً فيها ـ امّا الجنَّة التي يشير اليها النبي المشبع بالمهابة والجلال ، فهي التي رسم لها انموذجاً فوق الارض ، في مجتمع الامة الموحدة والمؤمنة باله واحد عظيم كبير خيّر ، يجمع بالحق ، ويظهر بالصدق ، ويبني بالعلم والمعرفة ، انساناً يصبح عظيماً بمقدار ماترجح فيه قيمة المثل .

تعيسة هي الكلمة تأخذها الاذن او العين دون ان يؤخذ معها لونها وصداها ! ـ واتعس منها كل حقيقة تحتشم اذ تترك الحرف يتربَّع بها ويتأنَّق بادراجها في لفة الزمر ، فاذا بها تترك ملفوفة بحشمتها ، وينبري الحرف يتبجَّح بانه هو الصدفة ، ولولاه لما كانت بهرجة ولا لؤلؤة !

تلك هي قصَّة الحسين الطفل فوق منكبي جده فوق منبر المسجد ـ لقد سمع الناس ورؤا عاطفة تموع ، وبادرة يلعب بها طفل اسم امه فاطمة ، اما الرمز ، واما الصدى ، فلا علاقة للرسالة بهما ، كأن النبي العظيم الذي اخضع الجزيرة برمَّتها وجعلها تسجد امام عظمة الحق ، ونجّاها من طفولة بائسة ماكانت تلعب الاّ بالترهات والخرزات الزرق ـ ليس له الاّ ان يلاعب طفلاً اسمه الحسين ، لالشيء الاّ لان امه اسمها فاطمة ، ولانها ابنته من لحمه ودمه . . .

اما الطفل الصغير الذي كان مجذوباً الى منكبي جدّه وهو يملي على الناس كيف لهم ان يجتمعوا دائماً مع كل غد ، فانه وحده ـ على الاقل ـ راح ينحفر في نفسه ، بأَنَّ الرسالة الكبيرة هي التي يغار جده عليها ، وهي التي يعتبرها دعامة اليوم لتكون دعامة الغد . انَّ هذه اللحظة ـ بالذات ـ هي التي تحفر في نفسه عمق القضيَّة ، وعمق المسؤولية ، وعمق الوصيَّة ، وعمق الرمز الذي هو كل الصدى .

حجَّة الوَداع

ولن تفلت حجَّة الوداع من تمنينا : لو انَّها لم تكن وداعاً ، بمعناها الحرفي ـ الاّ بعد عشرين حجة اخرى ، على الاقل ، بمعناها المشتاق الى اطالة العهد مع صاحب البعث ، وحامل الحق والهداية ، في سبيل تمتين الحفر في النفوس ، فينمو عودها انقى ، واصلب ، واثبت في واقع اللمس وترسيخ المران ـ ولكنها حصلت كأنها الحلم في صباح تكدَّرت شمسه بمضيض من كسوف !

هل كانت حجَّة الوداع اكثر من اسطوانة تخبَّأت فيها وصية ؟ ولكن الجماهير الغفيرة الذين امتلأت بهم قافلة الطريق ، بين المدينة ومكة ، ماكانوا يمشون الاّ بحفاء الامس ـ صحيح ان ولادة جديدة قد كحلتهم بنور جديد ، ولكنه نور لم يتسرَّب بعد الى عمق الحدقة ، ولم تختزنه الطويَّة بعد فيصبح جزءاً منها ـ ياأمنية وهي تضرع لو ان حجَّة الوداعِ ماحصلت الاّ بعد ثلاثين من سنوات الهجرة ، أو بعد اربعين اذا يصح التمني .

امّا الوصيَّة في غدير خم ـ فانها هي التي برزت بثوب الرمز اللطيف ، وما شربت الاّ عطشها المقدَّس . . . الم يتوسَّمٍ النبي الكريم ، وهو الذي توسَّلت اليه مهابات وجلالات ، وهو يقول : « علي مني وانا من علي ـ من كنت مولاه فهذا علي مولاه ـ اللهم وال من والاه وعادِ من عاداه ـ انيِّ مخلّف فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضلّوا من بعدي ـ كتاب الله وعترتي اهل بيتي ، فانهما لن يفترقا حتى يردَّا عليَّ الحوض » .

تلك هي الوصيَّة ، لقد عطشت بها واليها حجَّة الوداع ، اما السامعون في غدير خم ، فانهم هم الذين كانوا يسمعون في صباح الامس ، وهم جالسون

القرفصاء ، بين يدي من ينزل عليهم الآيات ـ لقد قالوا في تلك الساعة : ما اطيب الرسول يداعب ابن بنته فاطمة ، وها هم الآن يرددون القول في غدير خم ، : ماأشدَّ حبه لعلي ، اتراه دائماً يحبه اكثر من اي واحد منّا ؟ يااللوعي المزوق كم يلزمه من المران والصفاء ، حتى يستوي الفهم فيه والرواء !

ـ ٢ ـ

غير أن الوصيَّة ماكانت بحاجة الى حجَّة الوداع حتى يتناولها النبي المتممَّ حجَّته مابين يدي ربه الرحيم ، من تحت ابط علي ، ليعرضها على الناس فيصدِّقوه ! لا ـ وايم الحق ـ لقد كانت الوصيَّة مدقوقة كالوشم فوق جبين علي ـ انها من سجاياه الناضحة من طويَّته الكريمة ـ لا التاريخ عمي ، ولا اي رجل كريم من رجالات ذلك العصر كان يعمى عن قراءة الحقيقة ـ ولكن سياسة الزعماء المتشربين روح القبلية هي العميَّة !

لم يكن عمر بن الخطاب ضعيف السجيَّة ، انه كريم عفيف بين الرجال ، وانه عقل تمكَّن من احتواء الوسيع من الرشد في واحة الاسلام ـ ولكن عنجهية قبلية نائمة في بطانة نفسه ، ماسمحت له ولا قبلت ان يتقدَّم عليه وعلى امثاله من وجهاء الجزيرة ـ وبنوع خاص المسنين منهم والبارزين في صفوف الصدارة ـ فتى لايزال امرد ، اكان هذا الفتى علياً ام كان فتى آخر اسمه أُسامة بن زيد ! لقد كان حسّ ابن الخطّاب ـ بمركز الزعامة ـ ارجح من حسِّه بقيمة الرسالة ـ لهذا لم يرد ان يصغي الى فطنة التحسّب في التلميح بالوصيَّة ـ ولهذا كان رفضه القبول بولاية علي بعد غياب الرسول الى الرفيق الاعلى ، ولهذا ايضاً كان رفضُه القبول بالفتى أُسامة بن زيد اميراً عليهم في الجيش الموجه الى غزوة الشام .

لم يكن هذا وحسب في ميزان عمر ، بل ان هنالك خبيئة من الماضي الوخيم تعشّشُ في ضلوعه ، انها الدودة في وزيعة الارث ، انها الامويَّة . فيه الطالبية الهاشمية ، تمرح بين الخطين ، وتقضم من لحمة السفيانية ضد الطالبية الهاشمية ، تمرح بين الخطّين ، وتقضم من لحمة الطرفين ـ الى ان جاءت الرسالة الرضيَّة

فتلملمت الدودة الى خبيئتها في عتمة الظن ، وها هو غياب الرسول يعيد الدودة الى مربعها الاول ، واذا الوصيَّة بعلي هي الاولى التي تتناولها بالقضم !!! فيا للامنية تتكرر في ضراعتها : لو أن حجَّة الوداع ماحصلت الاّ بعد ثلاثين من سنوات الهجرة ، أو بعد اربعين اذا يصح التمنِّي ! لربما كان طول المران مابين يدي صاحب الرسالة ، يقضي على دودة كان يئن منها مجتمع الجزيرة ، كما تئن ابداً كل واحة خضراء من اسراب الجراد .

- ٣ -

هنالك سبب وجيه واساس خلف تصرّف عمر بن الخطاب ، يلبِّيه من الوراء ابو بكر الصدِّيق بالرضوخ والمطاوعة - انه يكمن في فقر الساحة وافتقارها الى الصفات التي يتحلى بها الامام علي - ان الصدق الذي رفع الرجل الى سويَّة الرسالة وجعله وحياً منها ، لم تكن قد حصلت له موجات من انعكاس فاعل ، رشقت الغير وقربته من القطب الممغنط ، من هنا يكون تأثير الثقافات الفكرية - الروحية - الحضاريَّة ، تتناول مجتمعاً باسره ، وتدمغه بالفهم ، والحس ، والنباهة - ومن هنا يكون المراس والمران عاملين قويين في عملية تنشيط المواهب ونقلها - من البلادة والخمول - الى التفاعل الحي ، ومن هنا يكون لعلي وصول اوسع ، تغتني به اوصال المجتمع .

لقد كان علي - ساعة حمل الغمام النبي الى المصدر الاوسع - يعكس نفسه على نفسه ، دون ان يجد في المجتمع الذي نشلته الرسالة حديثاً من تهويم النعاس وغفلة النوم ، طويَّة ينعكس هو فيها بحقيقته المتيقظة - لهذا كانت سرعة ابن الخطاب في هندسة أمير يتسلَّم الامارة قبل ان ينشط لها وعي جديد يلمح علياً ويستدعيه الى مركز الرعاية .

منذ تلك الساعة الى اليوم ، والرسالة تفعل فعلها المنقوص ، في مجتمع يتقدَّم خطوة الى التحقيق ، وتتراجع به الردة خطوتين الى الوراء - انه لايزال مجتمعاً يهجع به الانتظار .

أعودُ فاقول : لو ان الرسالة في المجتمع فعلت فعلها المقدَّر لها حصوله في المجتمع ، لما كانت الحجَّة تلك بحاجة الى اعلان وصيَّة ، ولما كانت لتنعت بالوداع ، بل بالوصلة الدائمة الحضور في دائرتها العظيمة التي تجلت هي فيها كانها الاعجاز في رفع المجتمع الى وحدة راح يتضح رويداً رويداً على الارض جلالها في التحقيق .

لا ـ لم تكن القضيَّة الكبيرة التي اعتنقتها الجزيرة بين يدي محمدها العظيم ، بحاجة الى اية وصيَّة ملفوظة بكلمات ، لقد كان لكل خطوة خطاها الرسول على الارض حفر معين ، له سداد ، وله رشاد ، ولقد كان لكل اشارة زفَّها اليهم باصبع كفّه ، أو بلفتة عينه ، او ببسمة ماجت بها شفتاه ، دلائل غنيَّة العمق ، بعيدة الغور ـ ولكنه لم يخط خطوة واحدة الاّ ومعه الرسالة ، ولم يتفوَّه بكلمة واحدة ليست حروفها من حروف الرسالة ـ انها وحدها كانت الوصيَّة ، وانها وحدها التي بنت وجمعت ، فهي القضيَّة ، وانها منه ، وانه لن يغار ابداً الاّ عليها ، لانها القضيَّة ، ولن يقرّب اليه احداً من الناس الاّ الذي يراه متين المنكبين لحمل الرسالة التي هي كل القضيَّة .

ايكون كل هذا المخطوط البارز في حقيقة مجتمع الجزيرة صعب الفهم ، وصعب اللمح ، وصعب السمع ، حتى نطلب من الغائب الذي التحق بسحب الغيب ، ان يعود ويوضح حروف الوصيَّة ، لنرى اليوم من هو المدلول اليه ليتسلم زمام الرسالة ؟ هل هو علي بن ابي طالب ، أَم انه عمر بن الخطاب ملفوفاً بأَبي بكر الصدِّيق ، مفروزا الى عثمان بن عفّان ؟

ليت حجَّة الوداع قد تكررت مرتين حتى يقتنع ابن الخطاب بأَن الوصيَّة بتعهّد الرسالة ـ القضيَّة ـ هي لعلي ، لا بصفته قريباً وابن عم ، ولو بوجود العباس وهو عم اولى ـ ولابصفته طالبياً منافساً لسفياني ، بل لان عزم الروح كان جليلاً فوق منكبيه ، ولان الذي سحب الجزيرة من أمسها البائس هو الذي حضر لها غداً مشرقاً ، غنيّاً بالوئام النظيف والرأي الحصيف .

اين هو الحسين

انه الان هنا ثم هناك ـ لايستقرّ له مقام ـ فبينا تراه قابعاً وحده في زاوية البيت ، كأنه في اغفاءة التفكير ، اذا به ، بعد لحظات قاسيات ، يقيس الطريق بخطواته التائهة ، بين ساحة البيت وباحة المسجد .

لقد فهم بعمق ان حقيقة رهيبة اسمها الموت ، قد تناولت جدّه الحبيب ، ولفّته اليها ، كأنها الزوبعة الرهيبة الهابطة من غياهب الغيب ، اين هو جدّه الان ؟وقد سحبته العاصفة من منبر المسجد ؟ اتراه قد اصبح في البعيد البعيد ، أم انه لايزال حيّاً في عذوبة الصدى ، كما تحيا شجرة الاراك في ظلّها الناعم .

ويرتاح الفتى ، وهو مأخوذ بعفويّة التصوّر ، ويدخل المسجد الخالي من جدّه ، ومن المقرفصين المصغين . . . ويعتلي المنبر يفتّش عن المنكبين الرازحين تحت رأس كان يعرفه ـ بلمس كفيه ـ انه اطرى من النعمة ، وأشهى من الغنج ، واسخى من الدلال !!!

ولكنه لايجد المنكبين ، ولا الرأس تحت ملمس الكفّين ، مع انه راح يسمع الجدران الشبعانة من حفيف الصدى وهي تردد : هذا ابني من علي وفاطمة ، إنه واخوه عقدة البيت ، وانهما سيدان من اسياد الجنّة ، وانهما يردان عليَّ الحوض ، وانهما امامان قاما أم قعدا .

هنا دائماً سنجد الحسين . في المسجد ، وفي زاوية البيت حضنه الاول والاحب والمخمس الاحضان ـ انه ضمن حيطان المسجد ، يلملم ، مما علق عليها من نبرات جدّه ، كل الخيوط التي سينسج منها جبّته وقمصانه .

لقد كان الحسين باكر التميز والنضج - لانرد ذلك الى بنيةٍ منسَّقة الانسجام ، هي من نعمة باريها هبة كريمة يتمتع بها وجود الانسان ، اكثر مما نعززها - وهي البنية الاصيلة - بتنشئة واضحة القصد ، والتوجيه ، والاحاطة ، فاذا هي طاقة مستعجلة الى تلبية الغاية وبلوغ المرام .

لقد كان الحسين تلك البنية السليمة بما شعَّ عليها من دلائل نبل الفكر والروح ، وهي كلّها التي لمحتها عين النبي الكريم متحدِّرة من صلب علي ، فاذا هي - في عين الطفل وفي محياه - استجابة للاصل والجوهر ، وتحقيق لاشواق الحلم الذي جاشت به تلك الليالي الصامتة : فكان الانبعاث ، وكانت الرسالة ، وكانت القضيَّة ، وكانت الوصيَّة الهاجعة في عين الحلم .

من هنا كان وضوح القصد ، ومن هنا كانت التنشئة معينة التوجيه ، وكانت الاحاطة موحَّدة العناصر ، وحاضرة الاعداد ، وكانت البيئة - بحد ذاتها بيئة غنيَّة بمواردها الفكرية - الروحيَّة - الاصيلة في بعدها وجوهرها ، وتحقيقاتها الرائعة المثال .

لقد كان كل ذلك في الجو الذي راح الحسين يتنفَّس فيه ويدرج من حضن الى حضن ، فكيف له - وهو الان في ثمانية من العمر - ان لايكون باكر النضج والتمييز ، وكيف له ان لايدرك - وهو تحت عين ابيه علي ، وبين يديه ، وفي احتكاك لايهدأ بروحه ، وقلبه ، ولسانه - ان جدَّه الذي رجع مريضاً من حجَّة الوداع ، وهو الذي اضناه التعب في الساحات الكبيرة التي امتصَّت فكره ، وقلبه ، واوصاله - وها هو يتركها وقد خلَّف فيها الثقلين : عترته ، ورسالة ملفوفة بكتاب ، وحلماً اصيلاً بأن الجهد الكبير في الحياة ، هو من الحياة ، وان الحق لايموت ، وان الاستمرار هو الوصلة الجلّى ، يتنقَّل الجهد بها وعليها الى بقاء القيمة الخالدة في مجتمع الانسان .

لقد ادرك الحسين - وهو في بكرة طرية من العمر - ان جدَّه واباه ، هما محيطان في الاصابة ، وأدرك ان عليه - منذ الان - ان ينمو ويترعرع في حضن جدّه الذي

غاب وبقي كامل الحضور في المسجد ـ انها وصيّته ـ لقد سمعها من جدِّه وهو يتغنَّج عليه فوق منبر المسجد .

ـ ٣ ـ

ماكان ابوه علي يخرج مرة الى الساحات ويعود الى ركن البيت ، الاّ وفي جعبته خبر ثقيل كأنه الرزيئة ـ لقد اجتمعوا اربعتهم الليلة هذه على الحصير حول صينية مدَّت عليها فاطمة وجبة الطعام ـ اما الاب الذي كان يأكل قليلاً وهو يتحدَّث ، فانه راح يوضِّح لهم قصَّة السقيفة ، سقيفة بني ساعدة ، كيف وظَّفها عمر بن الخطاب لتبعده عن حقيقته وحقوقيته في الامارة ، واحلال ابي بكر فيها ـ كأن الرضوخ لمشيئة النبي هو الخطأ ، وفي المعصية الصواب .

لقد تبسط امامهم كيف ان في التصرف هذا استدعاء اثيما لقبلية حاول النبي الحكيم وأدها وتخليص مجتمع الامَّة منها ، واذا لها الان تواً ـ اثر غيابه ـ عودة الى الارض ، والى النفوس ، تنهدر بها الطاقات الفاعلة ، وينشل الزخم الواعي ، متلهياً بالعرض عن الجوهر . ان الوحدة هي في الخطر المداهم تحمله سياسة الزعامات !

لقد شرح لهم بعمق وهو مثقل المنكبين : ان للاعمال الكبيرة اوقاتاً مرهونة بها ساعات مباركة مقرونة بالتحفّز والرضوان ، ولقد قطفتها ـ في حينونة ساعتها ـ نهدة الحق بنبيّها وبطلها الذي لم تنجب صنوه ملحمة من اقدس الملاحم في وجود الانسان ، واستطرد يقول : من لنا الان ـ وقد غاب سيف صقيل من بيننا ، وفوتّنا علينا تعهد ماغرسناه في البستان ! لهفي على الرسالة ، يلزمها المعين ، ونقطع عنها ـ وهي طريّة ـ هذا المعين !!!

ماكادت فاطمة تستوعب مرارة البوح حتى غاصت في نشيجها ، فهب الحسن يطيِّب خاطرها ويهدىء من ثورة كالحة في صدرها وهو يقول : ان خلف الليل هذا ياأُمي هزيعاً آخر ، لابدَّ ان تطيب شمسه . . . فرمقه الحسين بعين سرحت منها نقطة دم ، وهرول صوب الليل وهو يقول : جدّي ينتظرني في باحة المسجد .

بالرغم من أن المعتدى عليه كان يسكت ويصبر على الضيم ، علَّ الليل يأتي بصباح آخر طيِّب الشمس ، كان المعتدي لايقبل الاّ بالتحدِّي .

لم يدر أهل البيت في أيَّة ساعة من ذلك الليل تسلل أموي ـ سفياني الى ساحة الدار واقتلع منها شجرة الأراك التي كانت وحدها مظلَّة النبي ، وكانت وحدها ظلاًّ يركن اليه صبية الحي ليلعبوا مع الحسن والحسين ، في كل ضحوة محمومة بلهيب الشمس ـ في تلك الليلة بالذات ، كان أهل البيت متحلِّقين حول عميدهم علي ، وهو يطلعهم على تصرّف الخليفة أبي بكر بحجزه « نحلة فدك » عنهم ، كأنه لايريد لهم أيَّة بحبوحة من رزق تعولهم في حشرة الشح !! .

ماتحملتها فاطمة عندما فتحت الباب مع الصباح ولمحت شجرتها العفيفة مطروحة فوق التراب ، لقد تلفَّعت بخمارها وانسابت كأنَّها قضيب من بان معكوف عليه صولجان ، لقد تعلَّق بذيلها ـ وهي تهرول ـ فتاها الحسين ـ ، لانه عرف انها تقصد المسجد .

لقد إنتثرت ـ أمام من إغتصب المشيئة ، واقتلع من الساحة شجرتها المظلة ـ ثورة مبحوحة الصوت ، ماتردت انوثتها من قدّها النحيل ، الاّ وتبدّت بجبروتها من عنفوانها الاصيل ـ

لقد افهمته ان الامة العظيمة التي ينشرها ابوها لتكون هديَّة ومثالاً على صفحة الارض ، إنَّما هي صداه في جبروته المتلقط بالذمَّة الكريمة الطاهرة البناءة ، وسألته : لماذا تعطِّلون أنتم الذمَّة ؟ وتطمرون الصدى في حفر الجحيم ؟ إنَّ الشجرة للظلّ ـ فهي الوارفة ـ وتدَّعون أنَّكم ماقطعتم الظل اذ اقتلعتم الشجرة !!! ـ وفدك ؟ أيّها المتنعمون بخيرات الفيء !!! ـ وهل كان الفيء غير ظل من اظلالنا ؟ ونحن الذين استقيناه من كوثر النعيم ـ فلماذا تحرموننا منه ونحن الذين افضناه ؟

لقد افعم الجو كلّه في باحة المسجد بنبرات صوتها التي لم تتمكن من تخليصها من الضعف والخفوت . . . اما الحسين فإنه راح يلتصق بها حتى لكأنَّه اصبح وتراً مشدوداً بعودها وهو يقول : طبتِ طبتِ ياأُمّاه ، لو تقدرين أن تجعلي صوتك عالياً كالهدير فيه !!! كم أُحب الان ان يسمعه أُولئك الذين هم نيام خلف جدران هذا المسجد ـ إرفعي صوتك أكثر وأكثر ياأُمي ، علّهم أيضاً ، أُولئك الذين هناك ، يسمعون .

اما الخليفة الذي بدا كأنه المنهار ـ فإنه اقترب من المرأة وضمَّ الحسين الى صدره وهو يتمتم : كم كان النبي يحبك ياابن علي ـ لقد رأيته مرَّة يعريك ويزرع في جسمك القبل .

والتفت اليه الحسين بعينين فيهما طفولة عمرها أقلّ من تسع سنين ، وفيهما بريق أَدعَجْ أحمر كأنه من زفرة شمس .

ـ ٥ ـ

لقد شاهد الحسين امَّه كيف كانت تنعس نعاساً باسماً وهي تتأوَّد بفرح كأنه منتهى الغبطة بين ذراعي الموت ! لقد كان يفرك اصابع كفيها الباردة وهو جاثٍ بجنب فراشها الممدود فوق الحصير ـ كانت أسماء بنت عميس ، لطيفة كالشعاع ، وهي ترطّب شفتيها بمنديل مبلل بماء الزهر حتى تخفف عنهما نشفة مصت منها بهجة القرمز ـ أمّا أبوه علي فكان كأنه طود مسحوق القمّة ، يزرع صحن الدار بخطوات تئن من فرط الوقار ـ هنالك الحسن وحده بقي في الزاوية راكعاً يصلي ، ثم لايعتم ان يتلملم على رؤوس اصابعه ويتقدَّم حتى يرى اذا يتنفس الامل وتعود الحياة الى ثغر أُمّه فيبتسم !!

وفتحت فاطمة عينين غارقتين بما يشبه النعاس ، ولكنه أعمق مما يسمّى بمرمى النظر ، إنّهما من مدى آخر ، فيه شفافية من فضاء ، وقرار من رؤى ، وسمات من

فرح وطمأنينة ، كأنها كلّها من جنّة موصوفة ، لاتغتبط بمثلها الاّ الذات المؤمنة بفيض الحق ، وفرح الثواب ، وعدل القضاء .

لقد جالت بعينيها هاتين ، في سقف البيت ، ومسحت بهما كل حيطانه ، ووزّعتهما على كل المتنفسين حولها ، وهم بالحزن والاسى غارقون ـ لقد حطّت بهما على رفيقها في العمر وأبي ريحانتيها وريحانتي أبيها ، فهبط عليٌّ إلى الارض بين يديها ، يشكرها على رهافة الرمق ـ وحطّت بهما على الحسن فسحبتاه من عالم الحلم الى عالم أبعد ، ولكنه هبط ايضاً على رجليها يكفكفهما وهو ينشج : ستكون لك العافية ياأمي مع صباح الغد . . .

وحطّت بهما على الحسين ، فتململ وانجبل جبلة أُخرى وهو يكفكفها بعينيه الفائضتين بالدم ، اما هي فانها شعرت بيقظة هبطت عليها من الزوايا الاربع وهي مسحوبة من السماوات السبع ، فارتعش تحت وطأتها جسمها بكل أوصاله ، ومالت برأسها صوب اسماء بنت عميس ، وفاضت على شفتيها بسمة مفتونة ، ما عرفت نعومتها شفتان من شفاه الناس ، وراحت كأنها تثغثغ : لقد رَطَّبتِ شفتي ياأسماء . . . فشكراً لك . . . ثم استطردتْ بثغثغتها : أَوَتَدْرون بين يدي من أنا الان ؟؟؟ ماأطيبك ياأبي تستعجلني اليك !!!

ماكاد الحسين يسمع شفتي أُمّه تتهلّلان ، حتى رآى رأسها يهبط على وسادتها كما يهبط الجفن النهلان على العين النهلى لتنام .

لم يصبر دقيقتين ـ ها هو في المسجد يفتّش عن أُمّه في حضن جدّه ـ سيجد فيما بعد أن كِلا الاثنين ، مع أبيه وأخيه ، وحتى أسماء بنت عميس ، ولو أنها الان زوجة للخليفة ابي بكر ـ يحيون فيه ، ويحيا فيهم ـ إنها مشيئة جده ، وحكمته في الوصيَّة ـ ياللرسالة تجعله حضناً لجميع الذين حضنوه ـ وياللامة لاتموت الاّ لتحيا في جوهر الرسالة .

وايضا فيما بعد - تماما بعد انقضاء ثلاث سنين - سيجد الحسين ان اليد التي قطعت من ساحة البيت شجرة الاراك ، هي ذاتها التي عطلت فعل الامامة ، ومسختها الى خلافة مزورة الارادة ومجنونة اليقين ، وها هي الان امارة الحكم تنتقل - باسم الرسالة - من ابي بكر الى عمر بن الخطاب ، دون ان يكون للذمة اى وفاء في تعديل الامور وتخليصها من زيغها ، وارجاع الحق الى نصابه .

لقد شرح الامام علي ، في تلك الليلة ، امام الحسن والحسين ، كيفية انتهاء ولاية ابي بكر مع انتهاء ايام عمره فوق الارض ، وكيف انه تسلم الخلافة بمؤازرة من عمر ، وكيف انه قبل ان يموت - وقد شعر بقرب الاجل - رد الى عمر الخلافة ، وذلك كان جميلا مردودا بجميل ، هو تماما مثله ومن نوعه .

ان الحقيقة التي لمحها علي بعد ان استخلصها من واقع البيئة وواقع الامراض النفسية التي كان يعاني منها مجتمع الجزيرة في ذلك العصر - كانت محصورة بواقع القبلية في تسابق كل قبيلة الى الحصول على المغنم - ان في المغنم هذا تحقيقا معيشيا يؤمّن القوة والنفوذ ، على حساب مطلق قبيلة اخرى يجب جعلها - ماامكن - اضعف من ان تنزل الى ساحة سباق وزحام - لقد كان تحقيق الرسالة في المجتمع الجديد عكسا بعكس وعلى طرفي نقيض - هنالك نظام قبلي يفرط المجتمع ويوزعه على عدد القبائل ، بعد ان يسلم السلطة لشيخ ، ويلغي قيمة الفرد - وهنا نظام يعتبر المجتمع كله وحدة شاملة ومتكاملة بكل فرد فيه ، اما الجنى فهو الموزع بالعدل والمساواة ، شرط ان يكون نتيجة عمل صادق وطاهر - اما الذي يحرم ، فهو الكسول الكذوب - اما الامامة العظيمة بشرفها ، ونظافتها ، واستقامتها ، وعلمها البصير ، فهي التي تسوس بالعدل والقسطاس ، وهي التي تفجر الخير من موارده الصادقة ، وهي التي تحكم بظل من الله الذي هو حق ، وعدل ، وعلم ، وجمال .
ويتابع علي الشرح : هذا هو مختصر نظامهم ، وهذا هو مختصر نظامنا - ولقد طبقوه على الارض منذ الآف السنين ، فكانت النتيجة الف قبيلة بالف مجتمع فوق ارض

واحدة ـ ولقد طبقناه نحن على الارض ، فكانت النتيجة ملايين الناس في قبيلة واحدة هي الامة جمعاء ـ ما كان هناك عدد السنين بالاجيال الا غبارا وهباء ـ اما هنا : فعشر سنوات معذبة بالتشريد والهجرة ، كانت كافية لان توحد امة راحت تسير نحو المجد .

لقد كنّا نحن ، منذ وجودنا في القديم ، نحاول ان نفعل ، ولم نتمكن حتى رعرع الله فينا ، ومن صدقنا ، من اثمر فيه الصدق ، والارادة ، وعزم الروح ، فتلقطت بناصيتنا ناصية الحق ، واذا منّا النبي واذا بنا مجادل السيف في ساحات الجهاد ، واذا بنا نحن تقوم الامة وتنهض من الغفلات السود ـ وها هي نحن ، وها هي فينا نحن دون ان نسال : هل نحن من عدنان ، ام من قحطان ، ام من قيس ، ام من مضر ـ لان الامة كلها اصبحت مجموعة في وحدة النسب .

اما الوصية فهي التي حصرت فينا نحن ، ولا اعني الخط الطويل الذي تنتهي بعدنان ، بل الذي يحصرنا باهل البيت الذي هو بيتنا ، اي بيت النبي لسبب واحد لااكثر ، وهو منع اي نزاع سلطوي ـ سياسي ، يعيد الحقل الى سككه الماضية البالية التي لم تنبت فيما مضى لازرعا ولا ضرعا ـ اما الرسالة فهي التي تضبط الموازين ، وترسم الصراط ، وتحفظ البيت في خطه النبوي العظيم ـ فاذا تبرّأ هذا الخط ـ لاسمح الله ـ في حين مامن الاحيان من عصمة ، فان الروح النبوية ذاتها تلقطه متبرئا وترده منصاعا الى الحقيقة الباهرة التي صنعت في عشر سنين ، ما لم تصنع جزءا واحدا مثله عشرات الاجيال .

اما عمر ، فانه لم يتقبلها وصية تطرحها نبوّة الامة ، وعبقرية الامة التي فهمت وعرفت وادركت كيف تنتفض الامة ، وكيف تنجدل الامة ، وكيف تتحقق وتتوحد الامة ، وكيف تصان وتبقى الامة من جيل الى جيل في وحدتها وتحقيق ذاتها الخالدة في الحياة .

لقد اراد عمر ارجاعها قبيلية تتفكك بها الامة رويدا رويدا ، ولم يردها رسالية بنت قضية تنهض الامة بها دائما من تراث الى تراث . ولقد خاف اذا رزمها ـ اولا ـ

الى صدره ، من اتهامه بالانانية ، فلصقها بالغير حتى تتبرأ من التهمة وتنجح ـ وكان ابو بكر فصيلها الاول في التجربة ، والسبر وجس المفاصل والانباض ، حتى اذا انتهى الشيخ المسن ، وكان حده قريبا جدا من فتحة القبر ، عادت الى اميرها الولاية بحكم الطبع .

هذا هو الرهان ـ وقد طاب الرهان وطاب القصد مع عمر ، الا تريان معي ـ انت كبيرنا الان ياحسن ، وانت صغيرنا الاخر ياحسين ، وكلاكما متمم للاخر في ذمتي وذمة جدكما الرسول ـ ان تحليلي للواقع المر هو في حقيقـة الاصابة ، وان الامة التي هي نحن في جميع تجاربها الماضية ، وفي كل تحقيقاتها الحاضرة ، هي في مهب آخر يحاول ان يلفظنا ويجردنا من الحضور ، بينما ستندك هي رجوعا الى الوراء ، الى ماض كنّا جميعنا فيه الأذلّاء الاذلاء ! .

وتهيب الحسن الطرح ، والسؤال ، والجواب ـ فهو الذكي المبني بالصدق والتهذيب ـ ولقد كان يبدو وعليه هدوء رائع المثال ، وفطنة مدهوكة بدهاء ولكن طيبة المعدن كانت تملحها بحذر متأن ، الا انه حذر حكيم حليم ، يفيض عليه التصبر ونعمة السماح ، وكلها صفات يتأنق بها المسالمون في مجتمع يحاولون ان يبنوه بالتُؤدة ، والحب ، والسماح ، حتى يتخلص من الكراهية ، والحقد ، وبذر الضغائن ، وتلك هي التربية الحكيمة ، تأخذ من التصبّر مداها ، ومن الوقت بساطا تقدم عليه المثل النظيفة ، والقدوات الملقّحة بالسماح ـ لقد كان ، رويدا رويدا ، يتأكد للحسن ان مجتمع جده في الجزيرة كان بحاجة الى قسوة تلحمه الى جمع ، وفي الوقت ذاته كان بحاجة الى لين وسماح متعلقين بعطف وغفران ، حتى لاينقصف تحت الضرب على السندان ـ تماما كما نهج جده عند فتحه مكة . لقد كان الاجتياح وتحطيم الاصنام ، وكان ـ بالمقابل ـ تقديم الحب والسماح والغفران ـ لقد غفر للاعداء ، وهم جميعهم ابناء عم ، لقد قال لهم قوله المشهور : انتم الطلقاء ـ والتحمت الجزيرة كلها : سيف واحد يجمعها ، وحب كريم واحد يدفعها الى الامام ، لقد تحفز الحسن واجاب :

ـ وهل لنا رأي ياابي ، ونحن لانقدر نبنيه من غير الرجوع اليك في الرشد والسداد .

الا انك تحب دائما ان نحمل السيف ونلوّح به امامك ـ انه نهجك الحكيم ياابي تدربنا به على امتشاق الحسام ، وليكن لك ماتريد .

اصبحت ارى معك ان نيّة سيئة تجمع ضدنا هؤلاء القوم ، وان المحرك المقتدر الذي يلعب بها لعبة ماكرة هو رفيقك في الساحة وفي مكة ،ان في ذلك وضوحا لايشير الا الى عمر بن الخطاب ، ولقد تكشف لي الان انه مقتدر في امتلاك الساحة التي يدخلها الان بقوة الامس ، وانا اعرف الان تماما ان قوة الامس هي كذابة ، وقد علّمها جدي ـ وكنت ساعده الايمن في الساحة ـ كيف عليها ان تصدق وتستقيم لتصير فاعلة بناءة .

من هنا آخذ موضوعي واقدّم رأيي : الا يمكننا ـ وها نحن في هذا الواقع الجديد ـ ان تعيد النظر ـ انت بالذات ـ في بنية ابن الخطاب النفسية ، وتعيده الى ان يتصالح مع نفسه ، ومع حقيقة اسلامه ، عندما كان بين يدي جدي في حقيقة الحضور . انا ارى ياابي ان تساعد الرجل وهو الان في كرسي الامارة ـ اليس هناك امل كبير في اصلاحه عن طريق التغاضي والسماح ، وتناسي الاسية والاذية ، فيكون الاشراف هذا كبيرا في تساميه ، ومساعدا لارجاع الذات الى حقيقتها من النبل ، والسير في سبيل الرشاد ؟

انا ارجّح ياابي اننا اذا تمكنّا من تمريض الخليفة واشفائه ، نعود الى حقيقة الوصول في تنفيذ كل غايات جدي من اجل هذه الامة التي وصفتها الان بانها هي نحن في وسيع التداخل والتضامن ، اليس بناء الامة في لحمتها ، ورصّها ، هو غايتنا

وهدفنا وقضيتنا في الوجود الانساني الكريم الذي ستبقى تعمل الرسالة على تحقيقه ؟

اما الامام ، وقد تلألأت اساريره بفيض من الرضى ، فانه ابتسم وقال :

نعمًا انت ياابني ياالحسن ـ اتراني لااحترم رأيك ، والمح فيه سمات من ملامح جدك في المجال ؟ سانقح رأيك بعد ان نستمع الى اخيك الحسين . . . الا تريد ان تعود من شرودك ياالحسين ؟

فعلا ـ لقد كان الحسين شاردا ، خصوصا وهو يصغي الى الطرح الكبير الذي قدّمه ابوه ، فكان الماما ـ وان مختصرا ـ بواقع الجزيرة ، وبواقعهم هم فيها ، من حيث دورهم في عملية تثبيت الامة على اركانها المتينة ، ومن حيث ان الارتداد عليهم ليس هو الاّ كفر بهم ، وكفر بالقيمة السنية التي تستحق الثواب لا العقاب ، ولقد زاد شرودا ـ بنوع اخص ـ عندما راح يصغي الى رأي اخيه الحسن ، داعيا الى التصبّر والتأني ، ومصّ جرح الكف حتى يندمل الجرح وتعود الكف فتستأنف مجددا امتشاق الحسام .

لقد كان للحسين مزاج رهيف ، يمزجه باخيه الحسن مزجا انيقا ، ولكن شعرة رفيقة كانت دائما تتسحب بين المزاجين على صعوبة في لمحها ، وعلى صعوبة ايضا في اعتبارها خيطا فاصلا بين وحدتين ـ من هنا ان الحسن والحسين ، كانا جنة في حساب الحلم ، يكمّل الواحد منهما الآخر ، هنالك شمس تدفيء الزرع ، وهنا كوثر يروي الزرع ، وبين حرارة الدفء وبرودة الري ينبث النور ويسرع الامراع .

لقد كانت الشعرة الفاصلة بين المزاجين تستعد دائما لان تنمّي في الحسن ثورة تتأنى وهي تتروض بالصبر والاحتمال ، بينما كانت هنا في الحسين اكثر الحاحا ، واشد تمسكا بالعنفوان ، اما العنفوان فانه كان مع الاثنين واحداً لايتجزأ ـ ان القضية الواحدة هي التي كانت تلوّن ثوبه : ابيض مع الحسن ـ احمر مع الحسين الذي يلتم الان من شروده متجها نحو ابيه :

ـ كلامك ياابي هو الصحيح في التلميح ـ لقد تحسسته وانا طفل امرح من حضن امي ، الى حضنك ، الى منكبي جدي فوق منبر المسجد ـ لقد نقشت في نفسي الطفولة تلك نقشا لايمكن ان اجد اعمق منه في وجودي وكياني !!! من هي امي ؟ من هو ابي ؟ من هو جدي ؟ لقد شرحت لي ـ وانت تلقمني لقمة العيش ـ إنّا نحن ، اهل البيت ، ماخصصنا بالبيت الاّ لاننا اهل البيت ـ انني اشعر الان اننا نحن الامة التي سحبها جدي من غفلة الايام والسنين . . . انا لست صغيرا ياابي وانا في حدود تكاد لاتتجاوز بي الثلاثة عشر من سنوات العمر . . .

اني اشعر اني من عمر الرسالة التي اختصر بها جدي عمر الدهر في رحلة عبر الزمان ـ اني اشعر الان وانا من صلبك في العتو ، اني هزّة من هزات العتو ، واني زهوة من زهوات العنفوان . . .

لقد اهتز كياني ياابي عندما لمحت ان شجرة الاراك من ساحة بيتنا قد اقتلعوها ، لانها ظلنا في ضغط الهجيرة ـ ولقد التهبت ، بما لااعرف كيف اسميه ، عندما سمعت امي تندد الخليفة ابا بكر ، لانه اقتلع من حقنا ميراثنا في فدك ـ ولااعرف كيف اصف لك شعوري عندما ادركت ان المدعو صديقنا ، تمكّن من اختلاس امارة هي لك في الرسالة ، وفي القضية ، وفي الوصية ـ فاين انت ـ ؟ واين جدي ؟ ممرغين بالكفران والعصيان !!! وما كدت اسمع شرحك الان ، حتى تملكتني هزّة كانها القتنا جميعا في وهدة الانحدار !!!

انا لم اشرد عنك ياابي ، كما وانني لم اشرد عن تحسس صواب آخر ابداه اخي الحسن ، كانه ضلع من ضلوع تلك الام المسكينة ، وهي تشتري ابنها من قبضتي لص قد خطفه ـ انها تدفع له ثمن اللصوصية ، لقاء استرجاع فلذتها اليها !!!

هذا انا ياابي ، في شعوري والتفافي بقضية ادافع عنها باسلوب من عنفوان ـ اما رأي اخي ، ولااظنك الاّ وتعطف عليه ، فهو المصيب في الواقع الجريح ! اما رايي ، فلا اجروء ابدا ان ابديه ـ جل ماأقول : ان الامة بحاجة الى دراية . . . ولكنها لن تحيا بغير العنفوان .

تناول علي ابنه الحسين ، وطواه على اخيه الحسن ، وهو يبكي ، كانه يوحي الينا انه يقول :

ـ سيكون للامة ان تنجح بكما ـ ياابني ، وياابني محمد . . . ان لم يكن في الغد ، فبعد الغد . . . ان لساعة الحق ـ وان طالت ـ قرعا تحبل به الثواني ، وتتجلى به باحات العمر . . . ان الدهر الكبير يلتف بالصبر . . . وان الصبر الكبير لاتضيق به الثواني .

ـ ٧ ـ

من محطة الى محطة ، هكذا يقطع الطريق . تكون المحطة الاولى بداية نزهة ثم تأتي الثانية فتتحول الى مشوار ، اما الثالثة فانها تصبح شوطا ، لتأتي الرابعة وماسيليها ، فتلبس النعل الثقيل ، والسروال المدبّغ بالغبار والوحول، ولاتعود تدري كيف تمشي ، واين هي من المسيرة ، انها الرحلة .

لقد كانت المحطة الاولى محطة السقيفة ـ وذلك اذ ترك الرسول الكريم كل المحطات التي مشاها على الارض ، بعد ان مسحها من لوثات الغبار ، واوصى الذين سيمشون بعده ، في رحلة العمر ، ان يتوقوا اثارة الغبار وهم يمشون فيعموا عن الطريق .

بالحقيقة المستورة ـ كانت السقيفة محطة اولى تنزّه بها القوم ـ لقد توقّوا ان لايثيروا غبارا ـ لهذا فانهم مشوها في الليل ، وتقريبا بلا كثير من قرقعة ، وانتهت

مع الصباح الباكر بتنصيب ابي بكر الصديق خليفة على المسلمين ـ توا ـ بعد التفاف محمد بالدثار الكبير .

اما المحطة الثانية ، فانها ترتّبت وتأنّقت بعد ان لبست ثوبها وتدهّنت بعطر شميم ـ انها الان اكثر من نزهة بسيطة ـ انها مشوار . اما المشوار هذا فانه تميّز بقافلة كبيرة تألفت من فرسان ، وخيول ، وسيوف ، وهوادج ، لقد كان على القافلة ان تقوم بمراسيم نقل امارة من قصر الى قصر ـ انّ الامير هنا مشرف على الموت ـ سيكون انتقال امارته الى الآخر ، قبل ان يغمض عينيه ، وهكذا حصل ـ لقد نقلت القافلة المعدّة خصيصا لهذا المشوار ، امارة ، هي بين يدي ابي بكر ، الى شيخ آخر اسمه عمر بن الخطاب ، امّا الغبار فانه لم يكن اقل من مستوى المشوار .

اما المحطة الثالثة التي تيمّم اليها القوم ، وحبل بها المشوار ، وجاءها المخاض فاولدها شوطا ، فانها هي التي مشاها الخليفة امير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ لقد بقي يمشي عشر سنين في شوطه الوسيع ، حتى زحمه من الخلف ، علج ـ حسبما كان عمر يلبسه الثوب ـ فارسي الانتماء اسمه « ابو لؤلؤة » بضربة خنجر ، مزّقت سرّته ، واستقرّت طائشة في حبال امعائه .

بالحقيقة ان السبب كان ابن وتيرة جن بها ابو لؤلؤة ، نحر الامير بها ثم انتحر ، وتلك كانت المحطة الاخيرة للرجلين القتيلين بمدية واحدة في اجتيازهما رحلة العمر .

ان المحطة الثالة هذه ، كانت شوطا كبيرا من الاشواط التي بقيت تمشي يسارا يسارا الى ان ارتطمت بذاتها ، فوقعت ارضا وشجّت رأسها حتى الدماغ ، وراحت تعصبه بما لايردّه الى وعيه ـ لقد تألفت العصبة المعدّة للفّ الرأس المشجوج من قماشة محبوكة بستة اشرطة تسمّى « مجلس الشورى » .

ان الحسين ـ وهو الان في غمرة من العمر تقفز به بضع خطوات عن العشرين ـ في جلسة حميمة مع ابيه علي ، واخيه الحسين ، يستعرض مليا واقع

الحدث الجديد الذي راحت تتفقّه به الامّة بعد مرور عشر سنين عليها بين يدي ابن الخطاب الذي راح ـ بدوره ـ يعرض الحساب بين يدي النبي الذي اوصاه قبل ان يرحل : ان يصون الذمّة ويتعهّد الامة مع المتعهدين ، وينجّي الطريق من زحمة الغبار ، وان يضبط الشوط ويجعله رحلة العمر ، من اجل مجيد الى امجد ، وعندئذ يمكن القول : جلّ الله وصدق وعده .

ـ ٨ ـ

لقد كان العرض طويلا في هذه الليلة ـ لقد انتهى مع الصباح الباكر على صدى جديد كان يتردد هنا وهناك ، كانه قهقهات عفاريت افلتت من القماقم المضغوطة تحت اقدام الجن ـ ياللقبلية ترقص الان تميمية ـ حربية ـ اموية ـ سفيانية ـ في الساحة الاسودية ـ العنسيّة ـ الشقيّة ـ السطيحيّة ـ (نسبة الى بني تميم وبني حرب الامويين السفيانيين ، ونسبة ايضا الى مدّعي النبوة الكاذبة الاسود العنسي ، والى العرافين شق وسطيح اللذين اختلقهما خيال العرب ، وكان الاول انسانا ممسوخا بشق واحد والثاني بلا هيكل عظمي يشتد به) ـ وهي تحرب الصدى : اميرنا الجديد هو عثمان بن عفان . . .

ذلك كان موضوع العرض الذي بسطه الامام علي امام الحسن والحسين ـ انه شرح مستفيض لمعنى « مجلس الشورى » الذي ابتكره عمر بن الخطاب عندما شعر بدنوّ اجله ، وكانت نتيجته تنصيب عثمان بن عفان خليفة على المسلمين .

ليست الاحداث اليوم بعيدة عن مفهوم الحسنين ، فاثناهما يزينهما نضج باكر اضافة الى نضج العمر ، على فارق بسيط بينهما في السن يدور بهما حول الخامسة والعشرين . ان الحسن بالذات كان عضوا في مجلس الشورى بصفة مراقب لااكثر ـ اما المجلس فكان مؤلفا من ستة فاعلين هم : طلحة ـ الزبير ـ ابن عوف ـ ابن ابي وقاص ـ ابن عفان ـ ابن ابي طالب .

اما القصد من التبسّط امام الحسن والحسين ، فذلك كان ابدا من الامام علي

مع ولديه الامامين ، تمتينا لثقافتيهما في تعميق الفهم وجلوته عن طريق المشاركة في الرأي ، والافاضة في التعمق والادراك ، والتحسب في معالجة القضايا المصيرية الذاتية من جهة ، والاجتماعية المهمة من جهة اخرى لقد كان الامام بصيرا امام حقيقة ذاته ، وامام الحقيقة الاخرى التي هي قيمة وجودية تتمنطق بها ذات الانسان .

امّا مجلس الشورى الذي ابتكره عمر ، فانه لايتطلب شيئا يذكر من العناء ـ انه ليس دستورا معززا ببنود ، فهو نظام بدائي صبياني الترتيب ، هزلي الاخراج ، لاابتكار فيه ولا بعد نظر ـ انه مؤلف من ستة معروضين عرضا رخيصا على كرسي الخلافة ، دون ان يسبقهم اي تقديم مقصود او مجّاني ، لا عن الكرسي ذاته المؤهل للجلوس فيه ، وكيف يجب ان تكون قوائمه ، او قاعدته ، او لونه ، ودهانه . . . ولا عن المعدين لاعتلائه ، باي صفات عليهم ان يكونوا متحلين ـ جل مافي الامر ، ان على المجلس ان يجمعهم للتشاور فيما بينهم : ايهم هو المستحق ان يضع رجليه على الدرجات الموصلة الى المركز السني .

هنالك مقرر واحد موجود معهم ، وهو من ضمنهم مرشح للوصول ـ كانه ملك من حجارة الشطرنج ، يمكنه ـ اذا اراد ـ ان يقفز ويتربّع في الخانة التي يريد « هذا اذا صدقت العزيمة » ـ ويمكنه ايضا ان يستنيب عنه من يرتئي ، فيحله في المركز المقصود . لقد كان كل هذا مربوطا بهوى عبد الرحمن بن عوف : فهو المدير ، والموجّه والمقرّر حسبما جاء في النظام :

> « اذا اتّفق خمسة وابى واحد فاضربوا عنقه ـ وان اتّفق اربعة وابى اثنان فاضربوا عنقيهما ـ وان اتّفق ثلاثة منهم على رجل ورضي منهم ثلاثة على رجل آخر ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ـ واقتلوا الباقين ان رغبوا عمّا اجتمعوا عليه الناس » .

ذلك هو النظام العام المعمول به ـ اما عبد الرحمن بن عوف ، فكان مزوّدا بقوّة

تنفيذية مؤلفة من فرقة عسكرية خمسينية العدد يرأسها أبو طلحة الأنصاري ، ينتظر تنفيذ الأوامر التي يوجهها إليه عبد الرحمن بن عوف ، فيتناول رأس العاصي من هؤلاء المرشحين الأجلّاء ويحذفه من الوجود .

هذا هو مجلس الشورى ونظامه الميداني ، والذي ماكان له من الوقت حتى يقرّر ابعد من ثلاثة ايام فقط ـ بعد ثلاثة ايام يلفظ الحكم الرهيب عبد الرحمن بن عوف ، فتزلزل الارض زلزالها على رؤوس المرشحين الذين لم يتمكنوا من ان يتمّوا الفريضة !!! .

ولكن الشمس ما انكسفت كسوفها مع طلوع الصبح الرابع ، وها هو نجم عثمان بن عفان يبرز كالشمس فوق سماء كرسي الخلافة ، ونجا الاربعة الاخرون من سيف المقصلة ، لان ابن عوف اجبرهم ـ كما اجبر نفسه ـ بالمبايعة ، واشرقت شمس جديدة على عالم الاسلام .

لقد تبسّط الامام علي بالشرح ـ حلّل واقع الجلسة التي راح يهزأ منها مثلما كانت هي تهزأ به ، وهو سادس مطروح فيها كانه ايضا جندي بسيط من حجارة الشطرنج ولكن الجلسة السداسية لم تكن اقل من مهزأة ، اذ كيف يمكن ان تضم قاعة ما ستة مرشحين حتى يتشاوروا فيما بينهم ، ايهم هو الاصلح ؟ وكل واحد منهم هو المعدود في عين نفسه ـ على الاقل ـ نعم الفتى ؟ اما ان يكون الحكم ، والمدبّر ، والموجّه هو المرجّح والمقرّر ـ فلماذا وجعة الرأس ؟ اليس هو الاصلح في حجة المنطق ؟ .

ولكن اللعبة الصبيانية الهوى ، ما كانت بنتا لعمر ، اكثر مما كانت عانسا يحاول ابوها ان يزفها عروسا لشيخ من شيوخ القبيلة ، اما المدعوون الى حفلة العرس ، فانهم الرأي العام الذي لايروق له ان يفتح رئتيه الّا لغبار يثار من تحت نعليه .

وتدخّل الامام الى شرح اساس الشورى بمعناها الوسيع وواقعها الحضاري ـ انها تليق بمجتمع راق له من العلم والفهم مايجعله مفتشا دائما عن الحقيقة

والصواب ، فالمجلس الاستشاري ـ والحالة هذه ـ هو في استدعاء اقطاب ممثلين لذلك المجتمع لاستشارتهم في استخراج آرائهم من واقعهم الاحتكاكي بكل التيارات المعيشية الحياتية التي تتناول شؤونهم اليومية والمستمرة بهم من يوم ، الى يوم ، الى كل يوم آخر يكون منه جلاء حقهم في العيش ، والحياة ، والاستمرار في الوجود المجتمعي الانساني الكريم . ستكون حريّة الرأي ، وحريّة ابدائه ، مزدانة بالعلم ، والفهم والمعرفة » شرطا اساسيا موفورا للجميع ـ وسيكون ، بالحقيقة ، مجلس الامة جمعاء ـ ومؤلفا من نخبة تشمل المجتمع في التمثيل ، ولن يكون مؤلفا من ستة انفار فقط ـ بل من النسبة العددية بالمآت ، وعندئذ يكون تقرير المصير بانتخاب ولي يشرف على ادارة الحكم والتوجيه في محل من الوضوح والايجاب .

من هنا ان المجتمع الذي راح يدرج الى مثل هذه السويّة بين يدي نبيهم الخلّاق ، ماكان له ان يزحف هذا الزحف المبارك الى مثل هذه النعمة التي لايحققها ويوسعّها الاّ المران ، والوقت ، وغزارة العلم والمعرفة ، في ظل وحدة قاسية الاحاطة ، مبعدة عن كل مايحرّك فيها جيشانا يردّها الى المهاوي التي كانت تتلقفها في الامس الدابر ، من حرّة الى حرّة ، ومن حفرة الى حفرة ، وكلها كانت بين يدي قبلياتها العقيمة ، جديرة بالوأد .

ان استدعاء الامة الى جلسات استشارية من النوع المنوّه عنه سيتحقق في مجتمع الجزيرة بعد ان ترتفع سويته الى مثل هذا المجال ، وعندئذ فان الامامة التي راح يهيّؤها لها النبي الكريم البعيد النظر ، لقطع مراحل وافية من العمر ، وبمثابة اعداد واق لها من العثار ـ تصبح تلقائيا ثقافتها العامّة الموحّدة ، وتلك ـ لعمري ـ تكون اندماجيّة سويّة بسويّة بقيت تجمّع وتوحّد الامة ، الى ان بلغت بها درجة تجعلها رائدة وموجّهة لامم الارض ، وتلك هي الامة المتطوّرة ـ عندئذ ـ في حساب النبي الكريم الذي اعلن انه سيباهي بها امم الارض .

لست ارى ـ اردف الامام ـ ان عمر بن الخطاب كان يفهم كيف يعالج الامة

لتكون في مستوى الريادة ـ لقد اوصلنا الرسالة الى جارتنا فارس ـ وكنّا فخورين باننا صدّرنا رسالة تعزز الانسان وتحميه ـ بالايمان الصافي ـ من كفر الانسان ، لتكون جارتنا معنا في ميزان معادلة من الاحترام المتبادل ، تحمينا ونحميها في واقع الجيْرة ، وفي حقيقة البناء والايجاب ، ولكننا لم نصدّر رسالة تعتبر الفارسي ابا لؤلؤة علجا من العلوج ـ فاذا كانت الطعنة مزّقت امعاءه ، فلانه هو بالذات قد سلّمه المدية التي طعنه بها ، وهي ذاتها التي سلّح بها أبا طلحة ، ليعلمنا ـ هذا ـ ان وصول خليف النبي الى السياسة والادارة ، لايتم الاّ بضرب الاعناق بامر يخرج من بين شفتي عبد الرحمن بن عوف .

امّا الان ـ فان الامّة هي في اشد الحاجة الى مجلس استشاري موحّد ـ لقد عيّنه وحده صاحب المشيئة ، دونما حاجة مطلقا الى استشارة شيوخ قبائل الامس ، والاّ فان الغبار سيخنق الجو ، ويشلّ العيون الاّ من حكّها وهي في عماها الاحمر .

لم يكن المجلس الاستشاري هذا بحاجة لا الى عمر بن الخطاب يدسّ في الكرسي ابا بكر ، ولا الى ابي بكر يعود فيطويها على وركي عمر ، ولا الى عمر « يتصبين » بها في حضن ابن عوف ، ولا الى ابن عوف يعيف نفسه منها ليهبها ـ كانّها بقرة حلوب ـ لعثمان بن عفان ، فيمسكها هذا بقرنيها ليتعلّق باثدائها يمينا وشمالا ومن الخلف مروان بن الحكم ، وعمرو بن العاص ، وآخر هو ادهى الدهاة في عملية الحلب والصرّ ، اسمه فقط ـ معاوية ـ .

اما الأقنوم الواحد ، فهو الذي عرض اللعبة عليه عبد الرحمن بن عوف ، وهو يطرح الخلافة عليه والمشروطة :

« العمل بموجب كتاب الله ، وسنّة نبيه ، وبموجب كل تشريع سنّه الشيخان : ابو بكر وعمر » .

لقد تعب الامام علي وهو يشرح ـ لقد انتبه عندما سكت ، انّ احدا من ابنيه لم

يعترضه ،لا بسؤال ، ولا بتعليق ، ولاباي نفس ، فاستفهم بعينيه ـ وفهم الحسن القصد فاسرع وقال :

ـ كنت معك ، هنالك في الجلسة الملعب ، وهنا في الشرح الاشهب ـ لم تفتني حاشية واحدة من حواشي المهزلة ، ولكني ادرك الآن اننا لم نتوفق ابدا بعد في توسيع رئتي امتنا حتى تعرف كيف تتنفس ـ لهذا كان التمثيل عليها هو في مفعوله الجاري ! .

احبّ اليّ الان ان اتمنّى عليك ياابي ان تبقى معتكفا في برجك الكبير ـ اليست لك الساعة التي يرغب هؤلاء القوم ان تصمت ؟ وهي التي لن تصمت .

وقال الحسين ، وفي صوته انّة من جزع :

ـ وانا ياابي ارى اخي الحسن مصيبا في تشبيهه امة جدّي بالرئة التي لم تتوسع بعد للتنفس ـ هذا صحيح . . . لو ان رئتها اصبحت اوسع ! فهل كان لابن عـوف ان يقرر . ولابي طلحـة ان يبيّض ؟ !

سيكون لنا ياابي ان يَبْيَضَّ السيف بيدنا ـ سيفنا نحن ـ في سبيل ان نوسّع رئة الامّة التي هي امّة جدّي !!! .

ياللرسالة يدّعي صيانتها ابن عفان ، وابن عوف ، وأبو طلحة !!! ليت لي ستة اعناق افجرّها اوردة في سبيل استرداد شجرة الاراك التي كان يتظلل بها جدّي ، وابي ، وامي ، واخي الحسن ـ وانا الحسين !!! .

ماقلّ تخوّف الامام علي من وصول الحكم الى عثمان بن عفان ـ ولقد تكشّف لاهل البيت سوء النيّة التي عالج بها عمر بن الخطاب قضيّة الخلافة . لم تكن التقوى ، ولا الغيرة على الرسالة ، هما الدافعتاه الى الاهتمام بامور المسلمين ـ ولكّنه تسربل بهما ومشى قدما ـ كما تبينّ لنا من التحليلات السابقة ـ الى التطبيق ، وكانت الخلافة الاولى لابي بكر ، وردّت اليه في الثانية ، حتى كانت الثالثة هذه في ايصالها الى عثمان ، فتكشّفت بها المخططات عن المقاصد الموجّهة باحكام ضد اهل البيت في ابعادهم عن الحكم وامتهانهم ، واضعاف مركزهم الاجتماعي ، وتذليلهم ماامكن ، حتى اذا تكون ابادتهم ممكنة ، فلا تحرّج من ذلك ـ اننا نعلم ، والتاريخ ايضا يعلم ، كم هي مجرمة حزازات تلك الايام التي كان الاسلام جاهدا في تخليص المجتمع من همجيتها ـ لقد كانت هنالك المنافسات الحاقدة لاتتورع عن مدّ الايدي الى صدر المغدور ونشل الكبد منه ، ونهشها بالاسنان !!! انها مشهورة في التاريخ تلك المرأة ، وما انف التخلص من ذكر اسمها ـ انها آكلة الاكباد !!! .

ها هو عثمان بن عفان لايتلابق مثل عمر ، ولايقدر مثله ان يتداهى ، بل انه يذهب راسا الى الغرض المقصود والمدروس والمدسوس : هل يجوز ان يكون في الحكم ، او في اي مركز مرموق من وظائف الدولة ، رجل طالبي ، او اي ممن يَمتُّ بصلة اليهم ؟ لا بل فليضطهد الرجل او فلينكّل به ، او فليذوّب في حرارة الشمس ، أو فلينف إلى الربذة ـ كما فعل بأبي ذر الغفاري ، وبغيره من الأعلام والأبرار ! هنالك تنتهي قضيّة المنفي ـ إن لم يكن بقساوة الحرمان ، فبرداءة شمس المكان .

ماكانت خلافة عثمان بن عفان الاّ حكما ارهابيا جائرا ومعالجا بدقّة وقصد ـ انه التمهيد الفني الكبير الموصل الامويين الى هذه الدسوت : دست القوّة والمناعة ، دست الغنى والنفوذ ، دست السياسة والتسلط ، دست الخلافة والتبرّج بها لتكون لعبة من لعب الملوك .

لم يكن عثمان بيدقها ـ ان عمر بن الخطاب هو الذي زرعه بيدقا في لعبة الشطرنج فيها ـ لقد كان يعرف ماذا يزرع ، وكيف يزرع ـ الم يكن ابو بكر بيدقا اجلسه عمر على كرسي ثم مضى يوشوش الكرسي بانه اتقى من يغار عليها فصدّقته واستسلمت اليه بقوائمها الاربع ؟ وابتدأ العمل الصامت ـ ان القبائل التي يجب ان تزرع هي التي ستدرّ عناقيد الرطب .

ان اول فسيلة غرسها بعناية في ارض خصبة التربة والمناخ ، كانت معاوية وفي ارض الشام ، ان ابن سفيان ـ عدو الاسلام في البارحة ، وفي الامس الطويل عدو الطالبيين الذين منهم الامين محمد ثم النبي محمد ـ هو السفياني الامثل والاعند ، وهو الذي ـ اذا يمتنُ عوده ويخشن ـ يتمكّن من دحر عتوّ كل طالبي وسع صدره نبيهّم الاوحد ! اجل سيكون علي من اهل البيت ، ولكن معاوية هو الذي سيجعله داخل البيت لا خارج البيت يصول بالنبوة ويجول .

انه الحقد القبائلي مزروعة كل فسائله في طويّة ابن الخطاب المقتدر الذي يعرف كيف يعالج ـ بصمت ودهاء ـ كل جبلة من جبلات التراب ، وكيف ينفخ فيها من روحه حتى تستوي حقداً يحذف به علياً من اركان البيت النبوي .

اما عثمان بن عفان ـ فعمر هو الذي نفخ اليه بصمت بالغ الفن ، بان يسرع في تعهد النخلة المزروعة في ارض الشام ، والتي ستدرّ الكثير من الرطب ـ ان عمرها من عمر الجدود ، ولقد كان يتظلل بها : حرب ، واميّة ، وأبوسفيان ، ويأكلون كل بسرة منها قبل ان تنضج حتى لا يمد يدا اليها ـ ناضجة ـ احد من ابناء عمرو العلا ـ انها هي المنقولة بحرص الى ارض الشام ، منذ عشر سنين ـ ان اسمها الان أبو معاوية .

تلك هي القصّة المكيدة التي ادرك كل ابعادها وخفاياها الامام علي ، والتي كانت تزرع في باله تخوّفا بالغ الخطورة على مصيرهم بصفتهم اهل البيت ،

وباعتبارهم ركنا اساسا في تقديم رسالة جليلة القدر توازي ـ بحجم قيمتها ، ونهجها ، وتحقيقها ـ حجم المجتمع الذي راح يتلمّس حدوده الجغرافية ـ الارضيّة ـ المكانيّة ـ التاريخيّة التي كان يتمدد اليها بقبائله النابتة منه ، والهائمة الفائضة ، منذ السحيق من الزمان ـ من كل هذه المفاوز والفدافد ، الى ضفاف النيل ، وروافد السخيين دجلة والفرات ، والى حضن الطريّ المندّاة به غوطة الشام ، يسقيها ـ كوبا كوبا ـ كوثر من بردى . . . هؤلاء كانوا فيضا من هذه الجزيرة المباركة الحضن والنهد . لقد توزّع ـ من عادهم وثمودهم ، وقحطانهم وعدنانهم ، ويمنيّهم وقيسيّهم ـ كل من سمي : كلدانيّا ، وآشوريّا ، وآراميّا ، واموريّا ، وبابليّا ، وفينيقيّا كنعانيّا . . . هاهي الرسالة الان تلحمهم بعضا ببعض ـ من وادي مصر ، الى البصرة والكوفة النابضتين بالعراقين ، الى دمشق ، وحلب ، وحمص ، وحماه ، والشاطىء المخصب باللاذقيّة ، الى جبيل ، وبيروت ، وصور ، وصيدا والأور المقدس الماء ، والجو ، والتبر التراب ـ انها كلها الآن في التحام واحد بين يدي الرسالة التي ضمخت الامّة بمشيئتها الباهرة ، وحطمت كل صنمياتها ، اكانت نصبا في سدانات الكعبة ام حجارة اثافي حول المضارب والخيام ، ام غزوات ونخوات قبائلية عتيقة تنفّست بها الصراعات والنزاعات حول المساقي والمراعي ـ انها هي الرسالة التي جمعت الامّة ، ونجّتها من تخرقاتها ، ومبايعاتها ، والتفافاتها بازلامها ، واقداحها ، وعرّافاتها ، وكهاناتها ، وجميع ترّهاتها .

إنّ الخلافة العمريّة هي التي ستفكك الامّة باتباعها نهجا تصدت له الرسالة منذ لملمت المجتمع ونظفته من قبلياته الذميمة ـ انه النهج الذي اشتغل صامتا من اجل تحقيق غرض اثيم هو تحطيم البيت النبوي ، وتثبيت البيت الامويّ ـ انه النهج الرجوع الى الصراع القبلي ، وتعزيز الواحدة بانهاك الاخرى ، ورميها تحت السنابك ـ انه النهج الذي يشحذ الحقد ويتسلّح به حتى البلوغ ـ وهذا ماتنكّر له البيت النبويّ اذ مدّ يد المصافحة للعدو اللدود بعد ان دخل مكة بزند منتصر ، وحطّم الصنم وعزّز بالسماح والمحبة ، ربطة الانسان بالانسان .

لم يكن عجبا ان يرفض الامام علي خلافة مربوطة بهذا الشرط : " العمل اولا بسنّة الرسول ، وثانيا بنهج الشيخين " ـ ان البيت كله هو سنة الرسول ، اما نهج الشيخين فانه قائم على تحقيق رعونة القبلية ، وليس فيها من قصد غير تشديد بني امية لتحطيم اهل البيت ، وبالتالي تحطيم الرسالة التي هي الآن ـ في المنظار الاكبر ـ الامة المنطلقة الى تمجيد ذاتها بكل حدودها المجتمعية ـ التاريخية ـ الانسانية العظيمة .

ولم يكن قبول الامام علي باعتباره سادسا في المجلس الاستشاري ، الاّ ليتسنّى له عن كثب مشاهدة توزيع الادوار في المهزلة التي ابتدأت ـ تمثيلا بابي بكر ، وستنتهي ـ حتما ـ بابن عفّان ، اما رفضه القبول بالخلافة ـ فانه تمثيلي ايضا ـ لانه المتوقع المبصر ان طبخة عمر ماكان لها ابدا ان تقبل فتنزل في قدر من قدور بني طالب !!! .

يبقى وحده التخوّف على الامّة ، علّ الرسالة تبقى تكفكفها وتنجيها من عثمانيّة تصنع قميصها وتمشي به من المدينة الى الشام كأن مشيتها نزهة ، بينما كانت مشوارا طويلا افسد الرحلة ، وقطّع الخيطان في المكوك الذي رغب النبي الكريم بتسليمه لاهل البيت حتى يضبطوا به حياكة قمصان الامّة لتزدان بها في كل عيد .

ـ ١٠ ـ

إنّ هذا الحديث الذي مررنا به في المقطع السابق ، كان يعرضه الامام علي على الحسن والحسين ، وهو مغمض العينين كسيف الخاطر ، بعد ان هاجت الثورة على الخليفة عثمان ، واقتحمت داره ، ومزّقت ضلوعه ، وقطّعت اصابع كف زوجته نائلة وهي تدافع عنه من ضربة السيف ، وعرّت صدره من القميص الذي صبغ بدمه ، وطار به بشير بن النعمان ليعرضه ـ واصابع المرأة ملفوفة به ـ على معاوية في الشام ، ليعرف كيف يتدبّر الاخذ بالثار .

بالحقيقة ، ان الفترة الزمنية التي قضاها عثمان في الحكم ، والتي لم تقل عن اثنتي عشرة سنة ، كانت كريمة في مردودها . . . لم يكن ذلك في مساهمة عثمان بجمع آيات القرآن احتراصا من ألّا تتناولها ايدي الضياع او النسيان ـ لقد قدر له العمل ، بالرغم من ان الحرص هذا كان اولى به الاهتمام بترسيخ المعاني المنزلة في النفوس حتى تستمر صامدة في بنيتها المعفّفة ، وعندئذ فان التسجيل الباهر هو الظاهر كالشمس التي لاتحتاج الى تسجيل يضبطها من النسيان . ولكن تسجيل آيات القرآن وسجنها في قوالب الحروف من دون تخزينها فاعلة في نفسه ـ كوكيل مؤتمن على صيانتها ودفعها حقا ، وتقى ، وعدلا ، ونورا للمجتمع الذي لايشتاق إلّا الى الحق والتقى والعدل والنور ـ هو الذي كان ضياعا ابشع من النسيان .

من هنا كان مردود هذه السنوات العثمانية كريما في تحريك ثورة ـ وان بحجم زهيد وضئيل ـ رفضت استهانة عثمان بالرسالة التي هي بين يديه وهو يسجلها في الحرف بدون أن يقرأ لمحة واحدة من معانيها المنيرة . لقد قالت له الثورة الضئيلة : حجمك ياعثمان ضئيل في الحكم ، لهذا ننقم عليك ـ لقد رأيناك تلبس عشرة سراويل ، ولما رحنا نفتّش على اي نول حكتها ، وجدنا حول بيتك عشرة عراة يسألون عمّن سرق سراويلهم ، لهذا ننقم عليك ـ ولقد وجدناك تتنزه من قصر الى قصر من بيوتك العامرة ، ولمّا سألناك من بناها لك ؟ وجدنا المئات من المساكين حول دورك ، وكل واحد يتوسّل وهو يقول : لست ادري ياعثمان كيف اقتلع كوخي ، فهل من سبيل ان تردّ لي كوخي ؟ ولانك لم ترد ان تفهم معنى الطلب ، نقمنا عليك ـ ولقد وجدناك تدخل البصرة وتدّعي انها بستان لك باسم قريش ، ولهذا نقمنا عليك ـ ولقد رأيناك تدخل علينا في مصر ونحن نحلب ابقارنا لنرضع اولادنا لبنها ، فاستوليت على ابقارنا وعلينا وانت تدّعي وتقول : الارض وما فيها بقرة حلوب لنا ، وليست لسوانا ، لهذا نقمنا عليك ـ لقد تفرّدت بالحكم وجعلت وظائف الدولة حكرا عليك وعلى ازلامك المقربين ، كأنّ القبيلة الواحدة هي ميزان القوة الضاربة بالظلم والاحتكار والاستبداد ، لهذا فاننا ننقم كثيرا عليك !!! .

ان فتره زمنية حلّ بها عثمان خليفة متنكرا لمعنى الخلافة ، وتمكّنت من تحريك النفوس بثورة رافضة ، هي ـ في الحقيقة ـ ذات مردود مبارك ، لا لكونها هدرت دما ، بل لانها حرّكت وعيا يأبى ان يذل ويستكين ـ وتلك هي دلالات تبشّر بيقظة يتثقف بها المجتمع مفتشا عن حقيقة الإباء والنبل اللذين يبنيانه انسانا عفيفا كريما ـ إنّ في الحق ، والعدل ، والمثل ، لحاجة تحرّك النفس وتستدعيها الى البطولة التي هي وحدها عنفوان صحيح في وجود الانسان .

وكان حديث الامام مع ولديه الحسن والحسين ، متضمّنا ايضا هذه المعاني وهو يحلل ثورة الناس على الخليفة ، وكيف انهم رفضوه حاكما ، وكيف انهم يطلبون الامام المغيَّب عن الساحة التي تطلبه الآن ادارة الحكم وترميمه حتى يعود ملمّا بشؤونهم التي اعوجّ بها الاضطراب والزيغان ـ وتابع الامام وقال:

ـ وان معاوية في الشام يتهمني بانّي انا صبغت قميص عثمان بالدم ـ كأنّ الرجل لم يدر اننا نحن الذين كنّا نحاول ان نرمم الحفر من طريق عثمان ، حتى ننجيه من السقوط فيها ، فتتحطم ضلوعه ، ويشرب قميصه ذلك الدم !! إنّ عمر بالذات هو الذي زرع الطريق بالحفر التي وقع فيها عثمان ـ وإنّ معاوية بالذات هو الذي تمنّاها عميقة حتى يمكنها ان تواري عثمانه هذا ، وتبقى له الذريعة بأخذ الثأر ـ انه يظن ان الساحة قد خلت له الآن ـ ياللرجل يعد نفسه ايضا بخلافة المسلمين ! الا تريان مثلي ومعي ، ان شفقا احمر بالزور والبهتان ، يطلّ علينا من خلف الافق المطلّ على الشام .

لم يكن وجيفا جواب الحسن ، كما وان جواب الحسين لم يكن اقل من مضيض ـ قال الحسن بما معناه :

ـ نحن من زمن طويل حاضرون ياابي ـ لو أنّ يقظة قد استدعتنا
في عهد عمر ، لكنّا لبيّناها بالحاح ـ ولكنها تأخرت حتى الآن
ـ فهل لنا الاّ ا ن نلبي ؟ إنّ الامّة تطلبنا في الوقت الحاضر ،
فامش إليها ايها الامام . صحيح ان كل قعود طويل يوهن
الطريق ويبعثر فيه حفر العثار ـ ولكن القضية الكبيرة تبقى ابدا
حافزنا نلبيها ساعة تطلبنا النجدة بمزيّتها الحكيمة .
يظهر ان معاوية يلعب لعبة كبيرة في غوطة الشام ـ انها لعبة
يتقنها تيمية سفيانية ـ إنّ تيمية ابي بكر تنشط الآن في البصرة
تحركها ابنته عائشة لصالح طلحة والزبير ، في حين يوظفها
دهاء معاوية حتى تكون لصالحه في طرف الميدان . فلنقف بوجه
معاوية الان في البصرة . لقد سمعتك في الامس تخطط : إنّ
عائشة اولا ثم ياتي دور الشام .

ماكاد الحسن يسكت عن حديثه الموجز ، حتى نهض الحسين يزرع الدار
بخطوات ملزوزة ، كانها هي التي راحت تساعده في التعبير عن انفعالاته :
ـ اجل ياابي ، نحن دائما حاضرون ـ فالرسالة ـ القضية
حاضرة فينا ونحن حاضرون فيها وبها ، وعلينا ان نلبّي في كل
لحظة يشتغل فيها وعي وادراك ، ولكنني اسأل : السنا نحن
يقظة في ضمير الامّة ؟ فاذا كانت الثورة قد هبّت في وجه
الخليفة وضرجته بدمه ، الا نكون نحن هم الذين ايقظوا
الثورة فاسكتت فما كان ينطق بالعهر والكفر ؟ ـ صحيح اننا لم
نمتشق حساما غرزناه في صدر القتيل ـ اننا لسنا مجرمين سفاكي
دم ، ولكننا نحن كلمة في الرسالة التي هبطت بالحق ، لتزيح
المجرمين السفاكين من درب الحق الذي يلهب يقظة الانسان في
امّة جدّي ـ لهذا نحن حاضرون الان لأن نلبي القضية ساعة
تطلبنا النجدة ، وسنلبيها ، بمجازفة باعناقنا ، ألم تكن المجازفة

في معركة احد ، بنت البطولة التي حققت النصر ؟ اني ارى
المجازفة بنت الحكمة ، فلنرم بنفسنا الى الساحة حتى لانخسر
الفرصة باعطاء الوقت الكافي لهروب اللص الذي سرق .
انا اقول مثلك يابي : لم يقتل عثمان الاّ عمر - فهل يكون
لمعاوية ثأر منّا والجاني عمر ؟ !! .

ولكن امّة جدّي هي الضحية ، وهل لغيرنا نحن ان يثأر ؟

لم يمرّ هزيع اول من ذلك الليل الاّ وكانت القوافل وخيول الجند ، تترك المدينة وتستلم الخط المار " بالتنعيم ، والصفاح ، ووادي العفين ، والقادسية " وكلها محطات تؤدي الى البصرة والكوفة والشام .

- ١١ -

واخيرا وصل الرجل الدعّابة الى الحكم ، ولكنه قتل ! اتكون دعابته هي التي طعنه بها ابن ملجم ! وهو خاشع تحتها في محراب المسجد ؟ ! ومن اين لابن ملجم ان يعرف معنى الكلمة : بانه المزاح الخفيف في الطبع ، والمزيّة البهلوانية التي هي لعبة يمرح بها الصبية في ليالي الطيش ، وفي خبايا الازّقة ليلة العيد ! ام انه سمع عمر بن الخطاب يصف بها رفيقه عليا بالجهاد ، ليلة الف مجلس الشورى السداسي ، فلم يترك احدا من الستة الاّ دلّ اليه بالمزيّة التي فيه ، والتي تعرقل وصوله الى كرسي الخلافة - وكان يتمنى على كل فرد منهم : لو يقدر ان يتنفض منها حتى يأتي الخلافة وهو في تمام استحقاقها - اما تمنّيه على علي فكان حكما له بانه يكون امثل من يتولاها لولا دعابة فيه تبعده عنها . . .

ولكن التاريخ - وهو جليل القدر اذ يمحص ويتبنى الحزم والجزم في الحكم - لم يتمنطق بشيء من فلسفته التي تسمى " فلسفة التاريخ " وبها تتغربل المعاني والاحداث ، وابقى على الكلمة خارجة من فم عمر ، ولاصقة بعنق علي ، دون ان

يلمسها بوصف وتحديد : هل هي ثُؤلولٌ في انفه، ام حَدَرَةٌ في جفنه ، ام غضروف تحت لسانه ـ ام مزحة طويلة مدّ لها رمحه في ساحات الجهاد ؟ !! .

لقد كانت الدعابة ـ اننا الآن نقول ـ في نيّة عمر ، يمزح هو بها على المجتمع وقد صاغه النبي بعرقه وعرق علي ، حتى يكون وحدة فاعلة يعجنها ويخبزها : التقى ، والحب ، والعدل ، والاخلاص ، من دون ان تلوى بها أيّة مزحة من المزحات التي كانت تتداعب بها القبائل المُجْفِلُ منها الوعيُ ، والفهمُ ، والادراك .

لو انّ عمر لم يكذب على نفسه ، وعلى نبيّه ، وعلى حقيقة بناء مجتمعه ، لكان نجّى الامّة من الزواريب التي كانت تتعبأ بها السموم الزاحفة اليها من لهيب حرّاتها ـ ولقد كانت القبلية من افتك السموم ، ومن اشد تلك الحرّات نفثاً بها ! .

ماكان اغنى عمر عن مجلس يضم خمسة متزاحمين متصارعين على كرسي زعامة ، وخلفهم مئات والوف من القبائل المبايعين المساندين ، الضاربين بالسيف والرمح والرجل والخيل ـ هنالك سادس لم يدعب به التركيز والتأسيس ، ولم يأثم به : لا النبي ، ولا الحق ، ولا العدل ، ولا العقل ، ولا الصدق ، ولا الزند في ساحات الجهاد ـ لقد بني كانه المصفاة لتتخلّص الامّة جمعاء من اغبرة المبايعات والزحافات على كرسي لم يعد مطلقا مشيخةً ، بل انه بيت لامّة تنرصّ نحو المجد والعظمة ، انه السادس الذي اصطفاه المؤسس العظيم الذي اسس ، وصمم ، ونفّذ ـ انه صخرة الاساس ، ويمين في التصميم ، وعزم حاد اصيل في التنفيذ ـ فلماذا خضع عمر لمهابة النبوّة ، ولم يخضع لمقررات النبوّة ؟

كل ذلك كان يحزّ في نفس الحسن والحسين عشية كان جزاء ابيهما ، من جهاد العمر ، مديةً ينخرها الصدأ ، كبته كبّا رخيصا وهو في خضم من جلال ووقار ! ـ صحيح ان مرارة ثقيلة المذاق كانت تهيمن عليهما وهما يستدرجان واقع الاحداث التي ادّت الى مقتل ابيهما ، ولكنهما كانا يغرقان في جدّية من البحث المسؤول ، فيه تقويم شامل وعام عن وضع الجزيرة ، وعن دورهم المسؤول في المجتمع ـ لقد تفرع

البحث ودق ، فتناول الرسالة ومعانيها الايجابية في المجتمع ، من حيث المقاصد والغايات والتصاميم ، حتى انه تطرّق الى دراسة النظم التي تضبط المجتمع وتصونه ، ومن احكمها واعقلها خط الامامة . ولقد جرى تقويم عام لفترة الامامة التي زاولها ابوهما علي ، وكان التساؤل : هل هنالك تحقيق ما ـ ام انه فشل واخفاق ؟ !! ـ اما الاسباب التي ادّت الى مايسمى فشلا واخفاقا ، فانها كانت في مجال من البحث والتعليل والتحليل ، تفرعت منه التحسبات والتحوطات التي سيكون عليهما ان يتخذا منها عدّة للغد الذي يبدو انه معتم قاس .

ان الحسن وحده كان المستفيض في البحث والتحليل ، امّا الحسين الذي كان مصبوغا بحزنه ، فانه كان المصغي باحترام الى كل كلمة كان يتنفس بها اخوه الحسن ـ كانه يسمعها من ثلاثة افواه تنزل في اذنه ، ونفسه ، واشتياقه ، دفعة واحدة : فم امّه الندي ، وفم جدّه الصادق ، وفم ابيه المفعم بالحق . . . ياللاحضان تناديه في لّه وحَضْنِه !! ـ لقد طواها الغياب ، انّما هي ابدا هيمنة في الروح ، والنفس ، والبال ، وانّما هي ذخر نفيس في هذا الحضن الذي بقي وحده الآن ، وهو يتكلم كأنّ الثلاثة الذين غابوا هم ـ به ـ يتكلمون ، وبحضوره يستمرّون .

لو اننا نقدر ان نصغي الآن الى شمول كان يعنيه الحسن ـ كانّي به لم يعتن كثيرا بحصره في مادّة الحروف ، ولكنه قد سكبه في كل مانهج به بعد ان تناول الامامة عن ابيه ، وهي ـ ابدا ـ كنهه المكتنز بالفهم والنضج ـ وكاني الان اسمعه يتكلم اوّلاً عن المجتمع وعن دورهم فيه :

ـ هل من حاجة ياأخي الى توضيح وبيان ، ان جدّنا العظيم هو الناطق بالحق ، وهو العقل والروح الناطقان بالنبوة المنزلة في الساحة ؟ انا افهم الآن ان الرسالة هي قضية من قضايا جوهر الانسان ، امّا الانسان ، فهو المطلق فيها ، ولكنه اوّلاً انسان الامة التي هي امّة جدّي ، كاني بالامّة هذه هي التي استدعت جدّي ، بكل مالها من زخم جال في روحها ، وعزمها ،



ذلك لاعني انه نظام بمفهوم جديد لاينبثق الا من جوهر الرسالة ـ ان المخلوف هو جدّي النبي الذي هو الرسالة ، والتي هي بدورها جدّي النبي ، اللذان هما ـ في المآل الاخير ـ المجتمع الذي هو الامّة ، امّا الامامة فهي الترتيب الفخم المشتقّ ـ لفظا ومعنى ـ من الامّة لاجل الامّة ـ امّا الامّة التي صيغت جديدا وسحبت من كل انظمتها البالية التي كانت تفسخها ولاتلحمها ، فانها تأخذ نظام سياستها وصيانتها من الرسالة ذاتها التي سحبتها من تفسخها ، ولحمتها بوحدتها الرائعة .
ليس الذي يؤسسها الآن مجاميع مشيخات ، وزمر من ابالسة الاصنام ـ إنّما من يسوسها في يومها الطالع فهو النبي المخلوف بتمام مانجز ، وتمّم ، واورث ـ امّا ان تعود السياسة الى مبايعات ترقص رقصا تحت اطناب المشايخ ، فهذا مالاعودة اليه مرضا مزمنا يفسخ المجتمع الى وحدات لاحصر لها في العدد الذي يفسخ ويلغي .
من هنا إنّ حصر الادارة بخط واحد مبني اساسا من جوهر الرسالة هو الذي يوحّد السياسة ويوجهها ، ويبعد الامّة عن اسباب تشرذمها وتخلفها ، وينسيها تماما مناهجها العتيقة ، وهكذا تكون الامامة اسلوبا مشتقا من واقع المجتمع ، اي من واقع اصابة اسباب تخلفه ، ثم في تنظيم مايزيلها اسبابا ويقضي عليها .

هنالك الزمن الآتي ، وهنالك المجتمع الذي ينمو سليما ويتطور ، وهنالك كذلك الامامة التي يعمق ضميرها في جوهر الرسالة والتي ستبقى ترسم ذاتها في مبناها ومعناها ، في رفقة المجتمع الذي يصبح ـ هو بالذات ـ مرآتها في التصور والتطور .

انا لا اظن ولا اقول بامامة مسحوبة من هذا الاساس في الجوهر ، يمكن ان تختلّ موازينها في خدمة الامّة وتوجيهها نحو الصلاح والفلاح ـ ان التوكيد على صحّة ظني هو في ان الامامة هي ترتيب جدّي الذي هو نبي الامّة التي هي ضميره المشتاق ، وصدره الاوسع .

وقاطع الحسين اخاه الحسن وهو يعلق :

ـ طبت طبت يااخي الحسن ـ هكذا طابت فاطمة امي في ساحة المسجد ، وهي تفرك اذني ابي بكر الخليفة . . . ولكن ، قل لي يا اخي الحسن ـ هل كان فعلا ابو بكر خليفة جدي ؟

امّا الحسن ، فانه راح يمضغ الذكرى مضغا وهو يستأنف العرض بصوت خافت متقطع عميق الأداء ، كانه نزف النفس من بين الشفتين :

ـ اتكون ثلاث ساعات في سقيفة بني ساعدة ، بمقدار دهر من العمر ، غاص به جدّي في غار حراء ؟ لقد جنى جدّي كل عمق الدهر ، وكل نور السماء ، وهو يرصف عقد الرسالة ، وهو ينظم خط الامامة ، لتكون الخلافة من حقيقة المخلوف ، ومن حقيقة الجوهر ـ فأية خلافة يمكن ان تأتي بها ثلاث ساعات من ليل في سقيفة ؟ !!
لا ياابا بكر ـ ولا لا ياعمر ـ لن تكون خلافة النبي في مسخ الخلافة ، وتعطيل الامامة !!! ـ وهكذا قد حصل ـ هل نبكي ؟ ولكننا حزنا !!! وهل نيأس ؟ ولكننا تصبرنا وبقينا نعمل حتى وصلنا ـ ولكن ، بعد ان وصلنا ـ اي شيء تمكنا من تحقيقه ؟ !!
هنالك ثلاثة عقود مرّت ونحن مقعدون ـ لقد عادت من غفوتها العتيقة وانتعشت تلك الآفات التي كانت تخطف انفاس الامّة

وتعطّل امكاناتها في وجودها الانساني فوق الارض ـ أمّا الامامة فقد حجر عليها في سقيفة اخرى طيلة هذه السنين ، كانها شهادة زور ، او كذبة نطق بها عنسيّ اسود ، او مزحة تخفف بها جدّي وهو ينزف في غدير خم !!!

ان تستفق قبليات الجزيرة وتعد الى رقصها في الساحات ، فتلك هي الردّة في وطأتها الثقيلة على المجتمع الطري العود

أمّا ان نصل نحن ، بعد غياب ثلاثين سنة ونقول لها : ازيحي لثامك من الدرب فقد شوشت الرسالة وزعزعت وحدة الامّة ـ فان ذلك هو الذي ، اصلا ضَـامَ تيمية ابي بكر ، وضيّع عمر عن الصواب ، وخبّل عثمان بحقد اموي !!!

ولكننا فعلا وصلنا وبدأنا ننفض الغبار عن ورقة الغار ، ولكن الشنار بقي الشنار !! لقد تمكن من زرعه شنارا ثلاثة خلفاء تعهدوه وتداركوه على مدى ثلاثين سنة ـ لقد جاء مضريا ـ حميريا ـ كلبيا ـ تغلبيا ـ قيسيا ـ يمنيا . . . ابتداء من مكة ومرورا بالبصرة ، ومربوطا مسموما بالشام !!!

ولقد اجبرنا ـ اذ وصلنا ـ على خوضها معركة بنمط قبلي ، واضطررنا على صبغها بالدم ، ولقد اختلط دم جمل عائشة بدم تفجّر من صدر طلحة في معركة البصرة المشهورة بيوم الجمل ، وقفلنا راجعين الى الكوفة ونحن نحسب اننا ربحناها ولكن الحقيقة ان الربح ذاته كان ـ الهزيمة ، لقد تجلّت الهزيمة في اقتتالنا ضمن بيوتنا ، على اينا هو الاحق بالوصول الى صينية الطعام : هل هو طلحة ؟ ام الزبير ؟ ام هذاك الطالبي الملصوق باهل البيت ؟ !

لقد كان القتال وهدر الدم ضمن العائلة الواحدة ، وضمن البيت الواحد ، وفوق الارض الواحدة ـ يالتعس الامّة التي

بناها جدّي لتعانق الغد بحلة من فخار !!!
ولقد خضناها في صفين بذات النمط ، وماكدنا نحسب اننا ربحناها حتى انهزمنا هزيمة اخرى لها جعجعة اكرب من جعجعة الجمال ـ لقد جعجع فيها عمرو بن العاص ، وابو موسى الاشعري ، بعد ان تكلّم الاثنان باسم الرسالة التي هي رسالة جدي ـ ياللحروف كيف يهرب منها النور !! فتتعتم اوجارا واوكارا للمناجذ والجرذان !!!
اترانا جزعنا من فظاعة المعمعة ؟ وتهيبنا هدر الدم ؟ واعتصمنا بعملية حقنه حتى لايبقى للامّة شيء من رمق نعالج نحن به مصيرها ، ونعود فنرتق فتقه ، ونرسم له خطا يعوله في طالع الغد ؟ لقد ركبنا المركب هذا في ترجرجه فوق اليم ـ ولكن النتيجة جاءت محمولة على مركب آخر ماستضاء ـ وهو يقطع ظلمة الليل فوق معترك الموج ـ الاّ بوميض كانت ترتجف به البروق في رعود العواصف والزوابع !!!
لقد كانت معركة النهروان ، تَنَهَّدَ بها الخوارج ، في زعمهم ان حقن الدم مميت اكثر من تفجيره ـ وهذا كان ضوءهم في الليل البهيم ! ورحنا اليهم حتى نهزم فيهم الفوضى التي تعتم على الامامة دربها الى المعالجة والتصحيح ، ولكننا ماهزمناهم حتى شعرنا ان الامّة بكاملها هي المهزومة فينا ـ فدمها دائما هو المهدور ، ووحدتها هي المفروطة وقبائلها هي المستدعاة الى اخذ الثار ، ثم الى الثار من الثار ـ اما الهزيمة الاخيرة ، والتي هي لنا ـ فجيعة ـ فهي التي اخذنا لها الثار من هذا المسمى ـ ابن ملجم !!!

ماكاد الامام الحسن ـ وهو الآن خليفة ابيه في انتقال الامامة ـ يصل الى مثل هذه المعاناة ، تحت وطأة ثقيلة من الاستعراض الشامل للاوضاع التي اوصلت الامّة

الى مايهدد وحدتها بالانفراط المهزوم ، حتى بادره الحسين ، وهو مثقل مثله بهذا الذي يولده العنفوان الهادر الصامت :

ـ صحيح ياأخي الامام ـ لقد رمينا بالهزيمة التي احتاكت بها خلوة السقيفة ـ لو ان الخط مشى طريقه المرسوم ، لما كان للقبلية يقظة ، ولا للمرض عافية ، ولا لأيّة زعامة مايغريها الى التنطح والبروز ـ ولكان الاستمرار كفيلا بعدم قطع النور عن الحدقة ، ولكانت الامّة هي التي تمتن ضلوعها في صدرها الاكبر !!!

وصبر قليلا ثم انتفض :

ولكننا نحن ياأخي الامام : ضمير الرسالة ، وعنفوان الامّة ـ فهل يمكن ان يخبو ضمير الرسالة ؟ وان لاتفتش الامّة عن عنفوانها الاصيل ؟!!

ـ ١٢ ـ

لم يتمكن الحسن ـ فقط ـ من ملاحقة الاحداث التي حصلت على الارض منذ السقيفة حتى مقتل ابيه ، بل انه تمكّن ايضا من قراءة بصماتها قراءة مستوعبة ولقد كان له من قراءة البصمات عمق اللمح ووضوح التصور ـ لقد لمح انهم ، منذ الصباح الذي اعلن فيه وصول ابي بكر الى كرسي الخلافة ، بدأوا يخوضون معارك الحقد الموصلة الى الانهزام ـ منذ ذلك الوقت راحت الخطوط تمشي تحت جنح الليل ، ولكن الصباح ماكان ابدا يجيء الاّ تاركا خلفه بصمات افصح من الخطوات في الاعلان عن مخبئاتها ـ ان الذكي الذي يعرف كيف يقرأ البصمات ، هو الممتاز في لمحه ، وكان الحسن قارئا ممتازا .

منذ ذلك التاريخ ، ولما يصل الدور بعد الى عمر ، وان يكن له في كرسي الخلافة الصدر والاذن والعين واشارة البنان ـ وجّه الخليفة ابو بكر ، في عتمة الليل ، معاوية بن ابي سفيان ليزرعه في غوطة الشام ـ ولما مضى الخليفة العجوز الى حضن ربه ، تناول عمر الزرع بالحيطة والعهدة ، فهو ، وان زرع في الليل ، فان الصبح سينشره حاكما مقتدرا على الشام ، وحمص ، وحماه ، واللاذقية ، وحتى على صيدا وصور وسهول بيسان ـ سيكون الحاكم الملم والمقتدر على ايام الخليفة الثالث عثمان الذي وصل الليل بالنهار ، وهو يعتني بالزرع الذي ستغصُّ به البيادر ، فيشبع الامّة التي هي بنو اميّة ، وتموت جوعا تلك الامّة الاخرى التي هي طالبية بني هاشم !!!

لقد كان معاوية اقدر من مشى الدروب في عتمات الليل ، وكان يجرب اخفاء بصمات خطواته ، ولكن الدروب لاتقبل كثيرا بتشويه البصمات ، فهي من نصيبها تحمُّلُ الوطء ، والاحتفاظ بالبصمات التي هي تسجيلها الوحيد باحصاء المارّين ، ومطالبتهم بما يكون عليهم من ضرائب المكوث او المرور ، ان يطل مكوث او ينخطف مرور ـ من هذا القبيل كان للثورة الصغيرة ان تمشي نحو عثمان وتجندله عن كرسي الخلافة ، وكان لمعاوية ان يحاول لملمة بصماتها ، ولفها بقميص القتيل ، وتحويلها ثأرا يطالب به الامام عليا ليأخذ منه ديةً عليه ، اما الثورة الرابحة التي كانت اوسع واكبر من سابقتيها : ثورة الجمل ، وثورة النهروان ، فانه حاول ان يمتص بصماتها ويلفها بورقة من اوراق المصحف ، ليدرأ عنه ويلا هددته به معارك صفين ـ اما سقوط علي قتيلا تحت مدية ابن ملجم ، فانه جاء بعد خلو الساحة من ثلاثة : اولهم طلحة ، وثانيهم ، الزبير ، وثالثهم امام ماطاله الا اليوم مشي الليالي الطويلة ، منذ ان مشاها عمر بقدمي ابي بكر ، وتخطّاها عثمان بولاية مقصوفة . امّا البصمات فانها توحي كلها الآن بانه وحده ـ معاوية ـ هو الذي اصبح قدر الخلافة .

بعد هذا التخطيط الطويل ، وبعد لملمة كل هذه البصمات وتجييرها في خدمته ، اصبح معاوية سيد الساحة ، والمتحكم الاقدر بالخطوط الطويلة التي تربط

الشام بالكوفة والبصرة والمدينة ومكة واليمن ، واخيرا مصر في المقلب الآخر التي لم تأنف كثيرا من استحالتها بقرة حلوبا بين يدي عمرو بن العاص !

أمّا الرجال الكبار الذين عاونوه في عمليات البصم والتجيير ، فانهم لم يكونوا اقلّ منه دهاء ، واطول نفسا في عملية امتطاء الليل من اجل الحصول على كل مغنم فيه ثروة ، وفيه جاه ، وفيه تحكم برقاب الناس ، وفيه ـ بنوع خاص ـ قضاء تام على بني طالب ـ انهم المعدودون في البطانة المخملية : منهم عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ومروان بن الحكم ، وزياد الذي كان ابن ابيه ، فاصبح اكيدا اخاه .

ذلك هو التخطيط المصمم منذ ثلاثين سنة ـ ومن يقدر ان يقول ان ليس التخطيط اقوى واشد فيلق من الفيالق التي تمشي الى حرب ؟ ـ بمثل هذا التخطيط قابل معاوية بن ابي سفيان الخط العريض الذي رسمه النبي الكريم بصفته صاحب الرسالة ، وجامع الامّة ، ومموليها حقوقها في الوجود ، ومتعهدها الاوحد في الصيانة والديمومة ، وهي المحسوبة ـ اولا وآخيراً ـ امّته العربية التي ردها من غياهب الليل وهي التي تتصف به الآن في اطارها الجامع .

لقد ادرك الحسن واستوعب كل مارمى ووصل اليه تخطيط الجماعة التي يمثلها الان معاوية في الشام ـ ولقد رأينا كيف انه لّمح الى كل ذلك في الجلسة التي عقدها مع اخيه الحسين ، عشية مقتل ابيهما الامام ـ ولقد صمما على متابعة ملء الفراغ في الساحة المشحونة بالغبار ـ كل ذلك من اجل افتداء الامّة ونشلها مما يهدد لحمتها من انفراط بدأت القبلية تلعب به كمادة وحيدة يستنجد بها الآن معاوية ، وستكون نجدة كل زعيم آخر يخوض الساحة حتى يثبت زعامته فيها .

غير ان التخطيط الذي جعلنا الحسن نلمح خطورته ، هو الذي يتفرد بامتلاك الساحة ، وبالتحكم بكل مفارق دروبها ، وبالالمام بكل تَشَعّباتِهَا ، ومساربها ، وحناياها ، ومخبآتها . لقد كان كل شيءٍ معدّا بدرس وتصميم ، لافشال كل سعي

يقوم به الخصم الطالبي لتثبيت وجوده ، وتجريده منه ، وتحويله مكسبا ضده ، من حيث يصبح وبالاً عليه .

لقد صدم الحسن بمثل هذا الثقل ، ولقد عانى منه ماغرقه في كآبة لايمكن ان يتحمّلها الاّ الابطال الصامدون ، ولقد استوعبه وتحمله ثقلا ـ ولكنه تصرّف به تصرّف الافذاذ ، وراح يتلاعب به تلاعب المقتدرين ، حتى يحوّله من مؤدى الى مؤدى ، او بالاحرى من سلب اسود الى ايجاب ابيض !!!

من ابلغ مافهمه الحسن ، ومن آلم مارضخ له : ان الساحة الآن هي التي يمتلكها معاوية ويضبط حدودها وكل مقدراتها ـ لقد تحكّم بها بقوة مااستلب منها ـ لقد ولّي الشام ، وهي الجناح الغربي من ارض الامّة ، حتى تزدهر به من اجل تعزيز كل قيمة من قيم الامّة في ضبطها وتوحيدها ورصّها في المبنى والمعنى ـ وكانت النتيجة استئثارا بما درّت عليه الارض المخصبة والمرتاحة ـ لقد اصبحت الارض في الشام بكل ماتعطي وتدر ، قصورا خضراء لمعاوية ومعاونيه ، واصبحت اموالا وثراء فاحشا في صناديقه ومخزناته ، وسيوفا ، ورماحا ، ودروعا ، وخيولا مطهمة لرجاله وجيوشه وبطاناته ـ لقد كانت الشام نائمة على خيراتها بين يديه ، وكانت جيوشه مرتاحة تنعم بالعطف منه ، وبالسلم الذي يوفر الراحة ورغد العيش ، بينما كانت الامّة هنالك تعاني من زرع الشقاق فيها ويلات وويلات ـ لقد حمى الخلفاء الثلاثة الاولون معاوية في الشام ، وابعدوه عن كل هدر يلهيه عن استكمال بناء قوته وانجادها بالعدة والعدد ، وراحوا يحجزون الخصم في غرف النوم ، حتى اذا ماظهر هنا اي تململ ، كان لهم استنجاد بالشام القويّة ليقمعوه !!

وتململ الرافضون ، وحذفوا عثمان من الوجود ، فحملت قميص عثمان الى الشام حتى يقوم معاوية بالثأر من علي ـ وتململت البصرة بوجه علي حتى تفسد عليه حقوق الامامة ، فكان معاوية ، البعيد المرتاح ، يجمع نفسه لمناهضة علي اذ تبرز به الساحة ، ونبتت من قاع الجحيم اعتراضات الخوارج ، وبثّت سمّها في معركة النهروان ، فارتاح معاوية مليّا في الشام ، بينما انهك علي في البصرة والكوفة

وانتقلت المعاناة الى الحسن ـ فاذا به يهتم هنا بجمع قوى منهوكة ، خسرت عشرات الالوف من الرجال في معاركها المجنونة ، وخسرت المال ، والرزق والجنى ، والعمران والاطمئنان ـ بينما معاوية هناك تبسم له الراحة ورغد العيش ، ويستقيم التخطيط بين يديه اكثر فاكثر ، في استعمال التعب والوهن ، وترجيحهما اليه مكاسب بسط منها الرشوة ، تارة بالشهد والوعد ، وطورا بالوعيد والتهديد .

من كان يحسب ان عبيد الله بن العباس قائد الجيش بالذات عند الامام الحسن ، يشتريه معاوية بخمسين الفا ، فينتقل هو وفرق عديدة من الجيش الى الجبهات التي يعدّها معاوية لدحر الذي يعتز بتراثه من ابيه الامام ، وجده الرسول !!! ـ وتراثه الفخم من ابيه وجدّه هو امامة ، ورسالة ، وقضية ، ووحدة امّة !!!

لقد فهمنا مليا حتى الآن ان معاوية كان اقوى من يمتلك الساحة ، وادهى من يعرف كيف يتحكّم بالدروب وبأيّة خطوات يمشيها ـ امّا الحسن الذي وصل ايضا الى استيعاب هذا الواقع المؤلم فانه ما جوبه به حتى تصرّف ـ ولقد البس تصرّفه حكمة لانزال نلمسها اليوم ، بانها هي التي يفتقر الى جوهرها المجتمع الذي هو اطار الامّة في وحدتها الشريفة والصحيحة في الوجود .

لم يخض الامام الحسن الحرب ضد معاوية ـ لقد عقد صلحا معه ، وسلمه مقاليد الامّة ، شرط ان يعدل فيها ، ويتحسسها امّة حضرها جدّه لان يكون لها يوم كبير طالع بالحق والصدق والجمال ـ واذا كان له ان يعتزل اليوم الحكم فحتى يكون هذا الحكم في الغد الذي يخلو هو فيه ـ معاوية ـ لمقابلة جدّه النبي في تقديم الحساب ـ ولقد اكد له ان الامّة وحدها هي التي فرضت عليه القبول ، من اجلها لا من اجل معاوية ، من اجل حقن دمها ، وتوفير قواها حتى تستمر في الوجود ، والبقاء ، وتحقيق الذات .

هل كان الامام الحسن مصدّقا معاوية في تنفيذ المواثيق الواردة في اتفاقية الصلح ؟ ولكن المبادرة هذه كانت منه بمثابة مبادىء مثبته لهذه المواثيق ، على الامّة

ـادين الى سياستها وصيانة حرماتها ومرافقها فوق الارض ـ والاّ
ى هدر امكاناتها ، وزعزعة كيانها ، والتفريط في حاجاتها الملحة الى
ـتها وانسياقها نحو التحقيق ـ فاذا كان معاوية هو المتمادي في سلبها حقوقها ،
فان هذه المبادىء هي التي تبقى من حق الاجيال اذ يستيقظ بها الوعي ـ فتعمد الى
الحاكم تطلبه ان يتحلى بها ، ليكون نبرة مثقفة من نبراتها في صدق وعيها .

ولكن معاوية الذي كان افرازا لمخطط معيّن النهج ـ ولا اتورع عن القول ـ معيّن الحقد ، ومعيّن الضمير ، فانه بقي رحى الطاحونة ذاتها ـ أمّا ان يصدق في تعهده بان يترك الخلافة من بعده للحسن ، فانه ماعدم وسيلة من حذفه من الوجود ـ وبذلك يكون صادقا بتعهده ، وتصبح الخلافة ذاتها ، بدلا من ان تنتقل من بعده الى الحسن ، تنتقل ـ بالأحرى ـ الى ابنه يزيد ـ وبذلك يلتقي الاثنان في تضحية واحدة ـ تضحية الحسن بمركز الخلافة من اجل مصلحة الامّة ، وتضحية معاوية بالحسن من اجل مصلحة الخلافة التي هي الآن ليزيد .

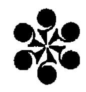
ـ ١٣ ـ

امّا الحسين الذي كان وحده في البيت اسير التأمل . فانه ماوصله الناعي ليفجعه بخبر مقتل اخيه الحسن بجرعة سم مدسوسة في كوب من اللبن ، حتى شعر بوحدة مزّقت نفسه ،وفجّرت فيها زوبعة ماحبلت بمثلها بعد مطاوي الافق التي تلف الارض !

لقد هبَّ باجمعه يفتش عن اخيه !!! فارتطم ببابه مذبوحا من خاصرته !!! فولى عينيه الى الجانب الاخر . . . فاصطدم رأسه بولولة تحملها حوملة من حوملات الريح . . . وما كاد يحدق بها ، حتى رآها ترتجف بالخمار الذي كانت ترتديه فاطمة امّه ، وهي تخفق بيديها في باحة المسجد !!! ـ فخّر الى الارض ورأسه لايزال يضربُ سقف البيت . . . واذا به يسمع قهقهات قردة ترقص على مزمار فهد يعوي كانه ممسوخ من كلب . . . فاختلط عليه المشهد ، واذا به يلمح زاوية خلف زاوية

خلف زاوية . . . في الواحدة : معاوية يتزايد في ضحكه ، وهو يقلّب من كف الى كف ، لعبة خضراء ـ صفراء . . . وفي الثانية طاقم من ثلاثة رجال : واحد بلا رأس يفهم ، وثان يطوي رأسه في عبّه فوق عكّاز ـ اما الثالث العابس فعرفه من لثامه ـ انه عمر !!! ـ وفي الزاوية الثالثة خربة من الخرائب المعولة ، مخلوع عنها السقف !!!

لم يقف الحسين من نفسه الممزقة الاّ هادرا بصمت بعيد الغور ـ انه الحوملة التي لم تكتشف بعد مداها .



انه هنا الحسين

نحن ماضيعّنا الحسين حتى نفتش عنه ـ لقد عرفنا منذ الوهلة الاولى انه دائما في المسجد ، حيث الرسالة التي هي صوت جَدِّه ، وضمير القضيّة في وحدة الامّة ـ ولكننا رحنا نفتّش عن الازاميل التي نحتته وصاغت منه بطلا مانسجت مثله انوال الملاحم ـ لقد خضنا البحث وعنوانه " اين هو الحسين " بثلاثة عشر مقطعا ، وهي كلها ـ في محتواها ـ هذه الازاميل التي تكشف لنا الان الردهات التي يطلّ منها الحسين .

منذ الطفولة واحضان منسولة من الحلم ، والرمز ، وضمير القصد ، تدغدغ الحسين وتتدغدغ به ، كانه حضن الحلم ، والرمز ، والقصد ، لدغدغة اخرى تهجع في ضميرها ديمومة تتلقط بها امامة ، ماكان الحسين الطفل الاّ ويشعر بها وهو يحتويها ، وما كان ينمو ويتنامى الاّ بها ـ اكان في حضن امّه وهو يمتص ثديها ويشعر انها ـ بكامل ما فيها من دم ولحم وعطر ـ نعيم لايجفّ لها عطف ، ولاحب ، ولاشوق ، ولاجمال ـ ام كان في حضن ابيه الذي يشيع عليه مهابة لاتتسربل بمثلها الاّ مداميك القلاع او ابراج الحصون ـ امّا جدّه المتمنطق بآيات الجلال ، فانه كان يمرح فوق منكبيه وهو يشعر كأن النجوم تتساقط من ابراجها الى عبّه ، وما ان ينزل عن المنكبين الى الارض حتى يركض كالولهان الى حضن اخيه الحسن ، ليفرغ من عبّه الى عبّه الاخر ، كل ماجناه من سلال جدّه المليئة بالعطف ، والرغد ، والزهد المجمّع عن شاطىء الكوثر .

من يوم الى يوم كان يعقد الزهر في روض الحسين ويثمر ، ومن عهد الى عهد كانت تنجلي امام عينيه ملامح الرؤى ، وماتتغلف بها الضمائر ، وكانت الاحداث

تتفتح عن مكامنها ومقاصدها بين يديه ، وهو يجلوها بما هو موهوب به من عقل ، هو ذخيرة ربه في انقى عباده .

وان كنّا نؤمن بالعقل السليم طاقة تحقق الفهم والادراك ، ولكن للجوّ الحميم الذي ولد فيه الحسين ـ مع كل الذبذبات المتجانسة التي رافقته بجميع تأوداتها ، منذ الطفولة الى كل عهد آخر تزيّن بالصبوة ، والشباب ، والرجولة ، تأثيرات بليغة الوطء وبارزة الاداء ، في عمليات التكييف ، والشحذ ، والتوجيه ، كانت كلها بساطا مرتاحا لهذه العقلية التي وصفت بانها سليمة وباكرة النضج ـ وانه لمن المثير ان نلمح الى شيء من هذه التأثيرات المبثوثة في الجو الذي نشأ فيه الحسين ، وكيف كان لها فعل ايحائي ترهّف به عقله ، وحسّه ، وتكوينه النفسي ، وكيف انطبعت به نزعاته ، وميوله ، في النهج والتعبير .

من المشهور والمشهود له ، ان لطفولة الحسين تعهدا مهتما ومتفردا عن المثيل ، ولقد اشترك في مثل هذا التعهد الممتاز : الجد ، والاب ، والام ، في اخراج موحّد لايشير الّا الى وحدة القصد الذي يجتمع عليه الثلاثة ، فكان واحدا في اللون ، وواحدا في النوع ، وواحدا في التوجيه ، وواحدا في لمّ الاخوين الى مشترك واحد دون اي فرق او تمييز ، كانهما واحد في التنشئة والتربية ، وكان الواحد منهما هو المكمل للآخر ، على بنية في المزاج تبقى ابدا منقوصَةً ان لم ينجدل خيطها بالخيط الآخر ، ليكونا حبكة واحدة في فتيلة السراج ـ لقد كان الحسن والحسين ـ فعلا ـ شخصين بمزاجين ، ولكنهما كانا في وحدة فكريّة ـ روحيّة رائعة الاندماج ، جمعتهما الى القصد الواحد ، ليكونا اخراجا واحدا لذلك القصد الاكبر الذي جال في بال النبي وهو يزف الى انسان الجزيرة رسالة تجمعه من تيهه المشرّد الى مجتمعه الموحّد .

لقد تم تأليف الامّة وتوحيدها ، بعد بذل العرق والدم ، وتمّ الانتصار على كل ما كان يعرقل سير القافلة الكبيرة على دروب الحياة ، وتم القضاء على كل تشويش كانت تتعنتر به القبلية ، وتشق الامّة وتبعثرها الى الف ـ وجاء التدبير الاوحد والاحكم ، بالقاء زمام التحكم والتعهد على رجل واحد مُرِّسَ بالايمان ،

والفكر ، والتوجيه ، والعزم ، والارادة ـ ان هذا الرجل هو الذي يمثّل الخلافة المصقولة بالامامة ، وهو الذي يمنع ـ وحده ـ رجوعا الى زعامات تقليدية يدعمها ـ من هنا وهناك ـ عدد لايحصى من القبائل ، وهو الذي يمثّل رسالة مانجح غيرها في المجتمع ، وهو الذي ينقذّ ضلعا أميناً من الرسالة ، وشفرة كريمة من معدنها الاصيل ، وحارسا امينا لعهودها المرتبطة بالصدق والحق .

لقد تم تعيين البيت الذي يحضن الرسالة المنبثقة من قلب الجوهر ـ اما النبي العظيم ، وابنته التي كأنها جبلت خصيصا بطبيعتها الانيقة ونفسها الكريمة ، وابن العم الذي ذابت كل اجيال الجزيرة حتى افردته فريدا في الصدق ، والعقل والعزم ، والبطولة ـ هم الان الفاهمون القصد ، والمجتمعون على تنفيذه ، لانه هو وحده المستجيب لحقيقة الرسالة التي كانت ترجمة صادقة لمجتمع تحقق والتمّ ـ وتم ايضا ملء البيت بالفتيلتين المؤلفتين سلك النور الذي سيستضيء به خط الرسالة والامامة ، فلتكن لنا مرافقة الحسين حتى تستقيم معه متابعة الدراسة فهو صاحبنا الان في الرفقة الكريمة .

اقول :ـ ثلاثة هم الراسمون القصد ، وهم وحدهم الفاهمون ، وهم الذين يخرجونه ، بالمبنى ، وبالمعنى ، وبوضوح النهج ـ امّا الحسين الطفل ، فهل كان له ان يعرف انه هو القصد المضمر ، وانه هو الذات المستترة في البال وخلف البال ، وفي الحلم ، وفي الابعد منه ، وفي البيت ، وفي الارفع والافسح من سقفه ؟ ولكن ـ من يقول ان ليس للطفولة ادراك مخبأ في الحسّ ، والشعور وطويّة الذات ـ وهو الذي يتغذى من كل مايحتك به ، لينطلق معبرا عنه ؟

ونقول :ـ ان كل مااحتكت به طفولة الحسين ، هو الذي كان ذخرا في حسّه ، وشعوره ، وطوية نفسه ـ وهو الذي ترسّخ به عقله ، وقلبه ، وفكره ، وهو الذي تركّز به واستقام رأيه ، واقتناعه ، ونهجه ، وهو الذي عبّر عنه في كل كلمة قالها ، وفي كل عزم مسح به ارادته ، وروحه ، وصلابته ، في الاقتحام والاحتمال ـ لقد اصبح الجو الذي رَبِيَ وترعرع فيه الحسين ، كل الحسين . انه ـ في آن واحد ـ

البيت ، وكل اهل البيت ، بكل مافي العبارة من معاني حقيقية ومجازيّة على الارض ـ انه البيت وجدران البيت ، وباحته ، وشجرة الاراك فيه ـ وليست كلها موجودة الّا لانها احتواء متكامل بامّه فاطمة المرتبطة ارتباطا امتن من الحب ، وابهى من العشق ، بابيها محمد ، وبزوجها علي ، وبالتالي به هو الذي لايقدر الّا ان يأخذهم جميعا الى صدره ، وقلبه ، وروحه ، بحزمة واحدة من الشوق الذي يكبر ابدا ويكبر .

ونقول :ـ لامعنى للحسين ، لافي الوصف ولا في التحديد ، من دون ان نربطه ربطا محكما بجدّه وابيه وامّه ، ذلك هو الجوُّ الذي ربي فيه ، وتلك هي الوحدة التي كانت لحمة اطاره ـ فاذا كان لنا ان نتبيَّنه ـ فيما بعد فسنجده تعبيرا متباهيا ابدا بجدوده الاوفياء للحق ، والذين خرج من صلبهم رجل راح يسمّيه دائما " جدّه " وهو الرجل العظيم المتوشّح بالنبوّة ، وهو الذي ماحبلت امرأة من نساء الجزيرة باعقل منه ، واكبر منه ، واورع منه ـ فهو الجزيرة ، وهو الرسالة ، والقضيّة ، في سبيل مجتمع الجزيرة ، وهو الامّة التي تعتصب به ، وبنوره تمشي دروبها ـ ان هذا الرجل هو جده الرسول ، وابو امّه الاجمل ، والاحلى ، والاطهر ـ وابن عم ابيه الامتن والاصدق ، والانبل .

ان المختصر الوحيد ـ لهؤلاء الثلاثة الذين هم في وجود الحسين كل الحسين ـ هو في الرسالة ـ وان القصد الوحيد من تنشئة الحسين تنشئة مغمورة بهذا اللون من الحب والعطف والرعاية ، هو من اجل امداده بالحس والشعور الامتنين والاصدقين ، من اجل القيام على الرسالة ـ وان الرسالة بمطلقها الاساسي والجوهري ، هي من اجل هذه الامّة التي هي المستودع الاوحد لهذه الرسالة التي هي ـ بحقيقتها الواسعة ـ هذا الانسان تبنيه القيمة ، وانه ـ هو الحسين ـ تجسّد لهذه القيمة ، زرعتها الرسالة فيه ، ليكون اول من يمتثل الى تعهدها ، والسهر عليها ، وهي التي تستدرج الامّة ـ بها ـ وجودها النامي بالحق ، والصدق ، وعفّة الوجدان .

كل هذا كان بالاحاطة حول تنشئة الحسين وما كان الحسين الاّ ليعيها ـ وهو طفل ـ ولتتجسد وتفخم فيه وهو ينمو وينهد الى الشباب والرجولة ـ ولتصبح بكل مافيها من مقصد ومعنى ـ محفورة في نفسه ، وعقله ، وشعوره . لقد فهم مليّا ـ مع تقدّمه بالفهم والادراك ـ ان تنشئته كانت بهذا الشكل ، والنوع واللون ، لانه مـزروع للقضية ، للرسـالـة التي هي القضيـة ـ لـلأمـة التي هي اسُّ الـرسـالـة ـ وللانسان الذي هو كل القضية .

يصح القول :ـ ان لكل تربية اثرا ما في مجتمعات الانسان تعكس ـ الى حد بعيد ـ بنية ذلك المجتمع ، ومقدار ماحصل عليه من الوعي والرشد ، ليكون التوجيه التربوي الهادف تلبية للحاجة الملحة الى التطوير ، ورفع المجتمع من سويّة الى سويّة ، وكانت تنشئة الحسين مشغولة بهذا النوع الوجيه الهادف ـ وكان مبالغا في تعهدها واظهارها للعيان ، لثلاثة اسباب وجيهة :

ـ **السبب الاول** :وهو شعور المربي المتعهد الضمني ذاته ، بان المقصد الكبير تلزمه العناية الكبيرة ، بحيث لايجوز ان تكون حياكة قميصه الاّ على النول الأَميز .

ـ **والسبب الثاني** :هو في التدليل البارز في نوعيّة التنشئة حتى يشعر فتاها بانه هو المشار اليه ، وما ذلك الاّ حتى يشعر هو بان حمله سيكون جليلا ، وانه المنتدب المميز للمسؤولية المميزة ، وحتى يشعر بان هذا الجلال الذي يختم به انما هو ظل لذياك الجلال توشّحه به الامّة حتى تكبر وتكبر في ساحات التباهل .

ـ **والسبب الثالث** :هو في الظهور الأَبرز امام الرأي العام ، بان المدلول اليه بالتنشئة المختصّة والمميزة ، انما هو ـ بالتخصيص والتعيين ـ ممثل للقدر الكبير الذي طابت على يده الرسالة ، وانه هو الوحيد الذي جمع الامّة ، وانه هو الرائي البصير في كيفية تعهدها حتى لايطالها ، لاتعثّر ، ولا وهن ، ولا ردّة تهدر الجهد او تخفف من مزاياه .

تلك هي الازاميل التي عمّقت حفرها في تكوين بنية الحسين الروحية والعقلية على السواء ـ امّا ان يصطدم ـ كما رأينا من واقع الاحداث ، بعد غياب جدّه عن

الارض ـ بما راح ينقض الوصاية في التعيين ، ويشل قوى البيت المبني للانطلاق الموجه والمدروس ـ فان ذلك ماجعله واقفا مذعورا من مغبّة العصيان ـ عصيان جَدّه في اعز امانيه وتصاميمه ، وفي افخم توصياته قبل ان يترك الارض ـ الّا ان ايمانه بابيه ـ بانه سيتمكن من اعادة الامور الى نصابها ـ جعله في مكامن التربّص والانتظار ـ ولكن مجريات الامور والاحداث ، ساقت اليه الخيبة تلو الخيبة ، والهزيمة تلو الهزيمة ، وهذه كلها كانت ازاميل جديدة عمّقت حفرها في ذهنه ، واكسبته قوّة في مكامن النفس لاتعترف مطلقا ـ لابخيبة ولا بهزيمة .

إنّ العقل وحده عند الحسين هو الذي اكتشف الحقيقة التي تتغلف بها القضايا الكبيرة في الوجود ـ ولقد اكتشف انّ الحق هو الذي يبني القضيّة وان القضيّة التي هي الحق ، لايكون عمرها بالساعات ، بل انها الابقى من الدهر . . . لقد سمع اباه يقول : « للباطل ساعة ولكن الحق فالى قيامة الساعة . . . » وما كان قد انجلى لمّا سمع اباه هكذا ينطق ـ الّا انه الان ـ بعد ان شاهد اباه يختم شفتيه بالصمت الفصيح ، وبعد ان غاب اخوه بجرعة سم !!! وجد نفسه امام حقيقة الادراك بانه منتدب لتعهد الحق ، وسيقوم بحقيقة التعهد ـ فامّا يكون له الظهور ، واما يكون له بروز العنفوان الذي يبني الانسان ـ لا للذل ـ بل للحياة . . . اما الامّة التي هي من بنية جدّه ، فهي التي تبقى ابدا تنظر اليه ـ ولو بعد الف حين ـ بانه العنفوان الذي : اذ ماتفتش عنه الامّة تجده في حقيقة ذاتها ـ وذلك هو جوهر الانسان الذي بذل له جدّه وابوه عرق العمر !!!

هل يمكننا الان ان نقول : انه هنا الحسين ؟





القسم الثاني

في حلة البرفير

المعاناة

المبايعة

الشرارة

روعة التصميم

كربلاء

المـعـانـاة

والمعاناة :ـ يالها من عمارة يبنيها الانسان من كل ضجيج يصخب به من نفسه وفي نفسه . انها العمارة التي يبنيها هذا الانسان لتعود ـ هي ـ فتبنيه بالحجارة ذاتها التي بناها ـ هو ـ بها . امّا الحجارة فهي التي تكون قد انرصّت بها نفسه ، وروحه ، وذاته ، مما اختلط فيها وتجمع اليها من غبار الايام وهي تتزاحم ـ بقوافلها ـ عابرة من قطب الى قطب في وجوده الانساني الصامد في صدر الحياة . سيكون من هذا الغبار تأليف المقالع المقطوعة منها حجارة العمارة التي اسميها الان ، عمارة المعاناة .

والمعاناة :ـ بمعناها المجازي هذا ـ تفسرها الحقيقة ، بانها الخبرة الطويلة التي يتمرس بها الانسان عبر تطوره في مجتمعاته الانسانية ، ليكون له التحقيق المتطوّر نتيجة حتمية لكل ماعاناه في رحلاته المتمادية في حضن الكون ـ إنّ المعاناة التاريخية الطويلة هي التي تبني هذا الانسان المحقق ذاته بذاته ، وهي التي تكيّف روحه ، وعقله ، وفكره ، وكل المثل التي يجنيها لتكون عماده الصحيح المعبر عنه في البحث ، والبناء ، والسعي الى حقيقته المتكاملة .

والمعاناة :ـ بمعنى واحد ـ هي التي تصيب دائما في وجود الانسان ، وهي التي تحدد حاجته ، او بالاحرى مجاعته الى ماينقصه في مشتهاه ، وهي التي تدلّه الى هذا المشتهى ، وهي التي تعينّ له ـ فيما بعد ـ هل هو المشتهى الجميل المحيي ، ام انّه المشتهى الخاطىء المميت ؟ الاّ انه يبقى ـ في كلا الحالين ـ تعيينا هزّته المعاناة المتولّدة في النفس ، وحرّكت اليه .

امّا المعاناة : الكبيرة التي تتولد في النفس وتبنيها بناء كبيرا فهي لاتزال من الصنف الفريد ، ولايتعزز وجودها ويتعين الاّ في تفاوت نسبي يلمح في المجتمعات

المتطورة والمنقّحة بالعلم ، والفهم المنعكسين حضارة وثقافة ـ هنالك يكون للعقل يد ، وللروح ملامس ـ ولا يكون مجال التعبير عنها الاّ في احترام الانسان لذاته الجميلة ـ وعندئذ فان المجتمع هو الكريم ، والعدل والحق والمساواة ، هي دروسه في الحقوق والموجبات ، والصدق والنزاهة ونظافة الكف ، هي كلها صفاته في البروز الصحيح ، واقتصاده المبني والمعني والشبعان ـ مع العفّة في جني الثمر ـ هي نهجه في الزرع ، وفي عمليات الحصاد ـ امّا المجتمع الذي يبنيه انسانا عظيما يدور في حضن الحياة مجللا بالقيمة وعزّة النفس فهو مداره الفخم الذي يرد اليه ـ من معاناته ـ شعورا ضمنيّا بان الجمال هو متعة النفس الكريمة التي يتعزز بها وجود الانسان ، بنعمة وعظمة الحق والصدق المغروسين في جنان الانسان .

والمعاناة في الطبيعة : انّما هي عنصر من عناصرها الجامعة ، ونبرة من نبراتها المعبّرة في خنوعها ، فجموحها ، فبروزها في ثورة مامن ثوراتها التي تتنفس بها حتى تعود فتعتدل وتستقر في بروز جديد تتولد منه حوملة اخرى يتألف منها مدار يعينه شوق آخر من الاشواق التي يزخر بها فن الحياة ـ كل هذا انّما هو موزّع في الوجود ، اكان في الانسان ، ام في الحيوان ، ام في النبات ، ام حتى في مايسمى جمادا ـ كأن المعاناة هي التي تلمح كل شيء حتى تطوره وتخلق منه الحالة الاخرى التي تشتاق اليها الحالة الاولى التي هي حلقة منها في سلسلة الوجود . اليست هذه كلها هي ايضا لعبة الحياة في البقاء وتعلقها ـ ابدا ـ بالتطور الذي هو تحوّل يتلوّن به جوهر الحياة في وجودها الافسح ؟

ليست المحاولة هذه في تقديم هذه اللمحة عن المعاناة ، غوصا في علم النفس ـ فان ذلك يتطلّب احاطة في الموضوع الفلسفي الذي يحتاج الى تحقيقات باهرة الطرافة ، وواسعة الدرس والتدقيق ، انّما التلميح هذا يقصد اعطاء المعاناة حصة من الاهتمام والاحترام ـ فهي التي تتولد في نفسية الانسان ـ ومطلق انسان ـ وهي التي تعين شوقه الى ايّ شيء يحرم منه او يحتاج اليه ـ وهي التي تبنيه بناء جديدا متولدا منها ومن مقدار ثقلها فيه وضغطها عليه ـ ولا فرق ان يكون الحرمان قد زال

والحاجة قد اشبعت ، او ان يكون كلاهما قد زادا عنفا في تورطهما عليه فقفزا به : امّا الى خنوع واستسلام ، وامّا الى ثورة ما ، عبّر عنها بطريقة ما .

هذا هو الغرض الان من خدمة الموضوع هذا ، حتى يتبين لنا ان الحسين الذي هو موضوعنا الجليل في هذا الكتاب ، قد اشتغلت بصياغته عظيما هذه المعاناة التي تبناها وتبنته ، منذ الطفولة ، وراحت تتجسد وتتجسم فيه عبر مراحل الفتوة والرشد ، وعبر بلوغه مرحلة سديدة من مراحل التعمق الفكري - النفسي - الروحي التي زجّته فيها ظروف قاهرة ، ما انفكّت تعمق بصماتها عليه ، حتى فجرتها فيه ثورة هادفة مركّزة ماارتضت من التحقيق الاّ بذل الذات في سبيل اشباع المعاناة التي اصبحت لاترضى الاّ ببذل الذات اشباعا للذات الاخرى التي هي اطار اكبر ، تنطوي فيه : ذاته هو ، ملصوقة بذات ابيه ، وامّه ، واخيه ، وجدّه وكل خط اجداده الصيد ، في مجتمع واحد هو اطار الامّة التي هي امّة جدّه التي بناها بقضية واحدة مختومة بالرسالة . فلنتبصّر الامور هذه كلها في خط المعاناة ، ولنعمد الى تبويبها هكذا :

١ - خـــط الطفـولـة :

ولقد كانت للطفولة على الحسين خيوط لذيذة من المعاناة ، حوشت منها نفسه كل البطانات التي راحت تتلون بها ايامه الطالعة . مامن لمسة غنج تدلّع بها في محيطه البيتي المشبع بالحب والحنان ، ومزايا التخصيص المبالغ به ، الاّ وتركت عليه بهجة من البهجات المترفة ، كانت تشع بها عيناه ، وكل اساريره الهانئة بغبطتها - لقد مرّ بنا كل ذلك ونحن نستعرضها في كل ماتخصص لها من مناسبة وحين ، لقد كان لكل هاتيك البهجات تأثير وسع نفسه المعانية على فهم كان يزداد بها وهي تتحول فيه الى معاناة اخرى كان يولدها ازدياد الفهم مع وضوح التحليل والتعليل .

كان الطفل الحسين - واظنه كان في الخامسة من العمر ، او مايزيد قليلا - يلعب في باحة الدار في ظل شجرة الاراك ، مع صبي آخر من صبية الحي - قال

الحسين وهو يتباهى :

ـ جدّي انا هو الرسول ـ وانت من هو جدك ؟
ـ وجدّي انا هو الرسول ـ امس دلتني اليه اميّ عندما كان متوجها الى ساحة المسجد .

وحاول الحسين ان يعترض بعد ان وسّع فتحة عينيه ، وبدا عليه بعض الغضب ـ ولكنه سمع امّه فاطمة تناديه ، وكانت تراقبهما يلعبان وهي واقفة على الباب ـ وبلحظتين كان الحسين بين يديها ـ قالت :

ـ معه حق ياحسين ، ياولدي ـ جدك الرسول هو جد كل صبيان المدينة ـ افهم علي ـ وانه جدّ كل صبيان الجزيرة ـ اتفهم عليَّ ؟ جدّك رسول السماء لكل اهل الارض ، ياحسين ، ياولدي ، اتفهم عليّ ؟ اظن جدّك لايقبل ان تمتلكه وحدك ياحسين ـ وهكذا تكبر انت ياولدي ، ويكبر معك اخوتك في كل المدينة ، وفي كل الجزيرة التي هي لنا على السواء ـ افهمت عليَّ مااقصد ياحسين ؟

وسرت على وجه الحسين بهجة مقطوفة من ثغر امّه وهي تدغدغ وجنتيه بقبلة مسحوبة سحباً ناعما من بين ضلوعها ـ رد لها مثلها ، ولوى قافزا نحو رفيقه المتهلل برجوعه ـ لقد هب إليـه ، وقبله وهو يلتفت صوب امّه ، وكانه يخبرها انه فهم مليّا ما فاهت به بفمها الاطهر .

بعد خمس دقائق بالضبط ـ ولاتزال الام فاطمة تسهر بعينيها على الصبيين اللاعبين في ظل الشجرة ـ وفد الحسن ليشترك معهما باللعبة المرحة ـ فاخذه الحسين ليسرّ اليه بحديث امّه ـ وما ان ادرك الحسن المغزى الجميل حتى تهلل فرحا وهو يلتفت صوب الباب ، فوجد امّه مسرعة اليهم وكل بهجات الدنيا في محياها ـ وما ان وصلت حتى اخذت الصبيان الثلاثة الى عبها وهي ـ من فرح ـ تبكي .

وعند المساء ـ ماكاد علي يطأ عتبة البيت ، حتى هبّ الحسين اليه ، قافزا بين ذراعيه وهو يقول :

ـ عندي ماأقوله لك .
ـ وما عندك ياحسين ؟
ـ قالت لي امّي فاطمة ان جدّي هو جد كل صبيان الجزيرة
ـ وانت ـ الست ابا للجميع ؟
ـ وانا كذلك ياحسين ـ الم تسمع جدّك يقول : انا وعلي ابوا هذه الامّة ؟
ـ وانا واخي الحسن ياابي ـ كيف سنكون ؟
ـ الم تسمع ايضا جدّك يقول : هذان ابناي ـ انهما امامان قاما ام قعدا وهما سيدان من اسياد الجنة ؟
وكيف نكون امامين : وسيدين ؟
ـ وسوف يقول لك الغد ياابتي كيف يكون ذلك ـ الا تصبر ياولدي الى الغد ؟

امّا الحسين فانه نام تلك الليلة وفي عبّه تسرح احلام نابتةٌ من اللغز وهو يبسم لها ويترنح ، اما جدّه ، وابوه ، فانه كان يشاهدهما فوق حصانين ابيضين يصهلان فوق ، قرب نجمة الصبح .

بعد سنتين وعدّة اشهر ـ كان جدّه قد اغمض عينيه عن المسجد ، وعن صبيان كل الجزيرة ـ عاد الحسين فاختلى بابيه يوشوشه ، والحزن يشرب من عينيه :

ـ ايكون ابو بكر ابا لهذه الامّة ، ولا تكون انت ياابي بعد جدّي الذي غاب وترك الابوّة لك ؟ !!!
ـ ابو بكر اب بالحمية القبلية لابالوصية النبوية !!!
صلى الله على جدّك ـ ياابني ـ وسلم !!!

قال الامام ذلك وهو يتمشى في باحة البيت ، دون ان يلتفت صوب الحسين ليتبين وقع كلماته عليه ـ ولمّا وصل البيت ، وابنه الحسين يسحب نفسه كئيبا خلف خطواته ، كانت فاطمة قابعة في الزاوية ينهكها الحزن ويدعك عينيها الدم ـ ولكنها انتفضت عندما وقعت عينها على الحسين وهو يقفو خطوات ابيه منكّسا رأسه ، كانه فرخ باز هبط من عشه الى الارض ـ وسريعا ماتلفّعت بخمارها وقفزت الى الخارج صوب ساحة المسجد .

وعندما كان صوتها الخافت يقرع اذني ابي بكر بذلك الخطاب الذي كانت ترتجف فيه ثورة ماحسبها التاريخ الاّ فاعلة ـ كان الحسين لاصقا بها من الخلف ، وهو يسجل في نفسه نبراتها المتأودة بالعظمة ذاتها التي كانت تسرح فوق جبين جدّه وهو يعلّم الناس في المسجد ذاته ، كيف يعتزّون بالصدق والحق ، وكيف يكونون ضلوع امة عظيمة هم ابناؤها ، وهو ابوهم الذي يجمعهم الى مراحل المجد ـ وعندما انسحبت من ساحة المسجد راجعة الى البيت ، اوقفها الحسين على العتبة حتى يغمر جيدها بذراعين من لطف ، ويلثمه بثغر من عطر الزهر وهو يقول :

صوتك من صوت جدّي ياامي ـ طاب صوتك في كل صبح ، وفي كل مساء .

فاجابته ، وهي تنعس نعاسا ذائبا في مقاطع الكلمات :

ـ ياحلمي . . . وحلم جدّك وابيك . . . ماشد خوفي عليك
وانا اطالب لك . . . بروعة الميراث !!!

ولكن الحسين ، وهو ماانفك يعانقها ، ويعاني من وقع ولوج صوتها الى العميق من اذنيه ، حتى احس انها تهبط امامه على العتبة ، كانها الخيطان تتراخى عن المغزل ولكن الاب الكبير ـ وهو الان علي ـ كان يلف بين ذراعيه الاعصاب المنهارة عن مغزلها ، ويحملها الى الفراش الذي اسرعت الى ترتيبه اسماء بنت عميس ـ لقد شاهد الحسين ـ على مدى يومين ـ كيف كانت تبسم امّه فاطمة وهي تلاقي اباها في غفوة الموت !!!

لم تختتم ـ بانتقال امّه الى حضن ابيها ـ طفولة الحسين ، ولكنها وسّعت انتقاله الى الرشد الباكر والمطّلع على واقع الامور ومزاجها الملفوف بالرموز ـ لقد راحت تتطور المعاناة في حياكة نفسه على ضوء ماكان يفسرّه له فهمه النبيه وادراكه المتوسع ـ الاّ ان موت ابي بكر ، هو الذي كان خاتمة طفولته التي شاهدت انتقال الولاية الى عمر بن الخطاب .

٢ـ عهد ابن الخطاب :

بانتقال الخلافة ـ وهي الان بمفهوم الحسين ـ ابوُّة يتناولها كل واحد بالدور عن جدّه الذي كان ابا الجميع ـ والتي هي ، بقناعته الراسخه ، من حق ابيه علي ، ولا تنتقل الاّ عنه الى من هو في الخط الذي رسمته ابوّة جدّه الشاملة . اجل ـ بانتقال الخلافة هذه المقلوبة عن ابوّة صحيحة المقصد والمعنى ، الى عمر بن الخطاب ـ لم تتوسع ذهنية الحسين ، بل تعمّقت فيها المعاناة ، وهي تفسر ذاتها في شعوره وتأمله الصامتين ـ لقد كان يراقب معاناة ابيه ، وهو صامت صابر ، وراح يصمت مثله ويصبر ـ اما حواره الاخير مع ابيه حول انتقال الابوّة الى ابي بكر ، فانه فهم منه انّ النخوة القبلية ، لا الوصيّة النبوية ، هي التي جرّدت اباه من ابوّة كبيرة خصّه بها جدّه لضم المجتمع كله الى صدره الكبير ـ ولقد فهم انّ الاجحاف طال اباه على يدي ابي بكر ، وها انه لايزال متماديا على اقسى وادهى مع هذا المدعو عمر بن الخطاب !!!

كان عمر الحسين ـ عند انتقال الدور الى ابن الخطاب ـ يدور حول عشر من السنين ، ولكن الجو الذي رَبِيَ فيه ، والاحداث القاسية التي ذرّت غبارها في هذا الجو ، فهزته في صميمه ، وجعلت السنوات القاصرة في عمر الحسين ، واسعة الفهم ، نبيهة الذهن ، وواسعة النفس تحت معاناة عميقة التفتح ، وحاضرة التأثر ، وشديدة التفتيش عن ماهيّة الاحداث وارتباطاتها بموحياتها . بالامس كانت له اربعة احضان يتبرّع كل حضن منها بتوسيع الحب والدلال عليه ، امّا الان ، وقد

خسر حضنين كانا كل طفولته السعيدة ، وكل فرحه في الدنيا ، وبقي له حضنان راحت تزرع الاحداث فيهما همّا ونكدا اصابه كل ثقل منهما في صميمه ! ايكون جدّه ، وهو نبي الامّة ، وحامل الرسالة ، وجامع الحق وابو صبيان كل الجزيرة ـ مستحقا كل هذا الهم والنكد ، وهذا هو عقاب الجاحدين الكافرين ؟ !!!

يااللحوار الان يدور بين الحسين الرازح تحت مثل هذا الثقل من المعاناة ، وبين ابيه علي المصغي اليه بكل شغاف روحه ، ـ وسأل الحسين :

ـ ابي انني لاازال ابحث مع نفسي ، ولكنني بحاجة اليك حتى تشرح لي : كيف اوصل ابو بكر الخلافة الى عمر ؟

ـ لم تصل الخلافة الى ابي بكر الاّ عن طريق عمر ، بتفاهم ضمني عند عمر ، معناه : اذا صحّت التجربة فابو بكر هو الخليفة اولاً ـ ثم يردّها اليه اذ يشعر بدنو الاجل ـ وهكذا صحّت المحاولة ـ وها هو عمر خليفة بدل ابيك ، وبعد جدك على المسلمين .

ـ واضح ذلك ـ ولكن ـ لو لم تصح التجربة ؟

ـ لكانوا اعتمدوا عدة طرق سواها ـ يوفر نجاح كل واحدة منها شرط واحد ، وهو ابعاد اهل البيت عن خلافة رب البيت !!!

ـ ومن هم القبائل الذين يؤازرون عمر ؟

لا قبائل يوآزرون عمر ، بل القبلية هي التي آزرته .

ـ ومن هم القبائل ؟ وما تكون نسبة القبلية اليهم ؟

ـ القبائل هم نحن ـ انهم العرب ـ انهم الجزيرة ـ انهم الامّة الامّة الكريمة في تراثها المتجسّد بجدّك العظيم ـ انهم التاريخ البعيد فوق الارض المتمددة بالحياة الى كل هذه الاصقاع التي لانزال ـ كما كنّا ـ نتحرك في كل سهولها ، وجبالها ، وواحاتها ، ومفاوزها . . . ونبني فيها : زرعنا ، وضرعنا ، ونخيلنا وكرومنا ، وبساتين الخير وحصاد العافية ـ انهم الامّة فوق

ارض الامّة التي جاء نبيها الكريم حتى يمجّدها في حضن الحياة ، لانها امّه في ذخر الحياة ، وقطب الله فيه الذي صدق في وجود الانسان .

ما توقّف علي قليلا على ثورة صامتة وهـادرة في عروقـه ، حتى نهض يتمشى في صحن الدار ، ثم دار بكلّيته نحو الحسين ليتابع جهد نفسه بالقول :

- جدّك هو العظيم ياابني في تجميع ذاته ليبذلها في سبيل الامّة التي لولاها لما كانت له : لانبّوة ، ولا رسالة ، ولا حقّ ينطق به بلسان الانسان .

امّا القبلية التي تطلب تحديدا لمعناها المسحوب من ضلوع الشياطين ،فهي التي تَفْرُطُ مجموع القبائل ، وتوزعها كذبا وحقدا وتمويها ، يتسربل بها كل هؤلاء الابالسة الذين يدّعون انهم يمشون باقدام الانسان ، وهم اسنمة للزور والبهتان !! لقد جمع جدّك المجتمع القبائلي كله في واحد ، بعد ان خلّصه من الشرك واسباب الانفراط ، لتعود القبلية فتفرطه الى الضعف والتفسخ والهوان ـ
تلك هي القبلية ياابني في انتسابها اللعين ومفعولها الناسخ !!! ان يكن لي الان ان اغرق في ذلي وانكسافي ، فليس لاني افتش عن كرسي اغتني به واسود ، بل لاني اشاهد بام العين ، امّتي يتجررون بها الى الانخساف ، بعد ان بدأت ترفع رأسها بحقيقة الانسان ... الذلُّ ياابني للانسان الذي لاتكون له امّة يرتفع بها الى الحقيقة الانسانية التي هي اوج السعادة للانسان ـ ماعدا ذلك فايّه قيمة للثعالب والارانب والجرذان !! وحتى للارض كلها ان تكن خالية من مجتمع صحيح صامد بقيمة الانسان ؟!!!

بعد تسع سنين من هذا الحوار الذي نزل في اذن الحسين كانه ذخر النفس في الاباء والصدق والعنفوان ، اصبح عمر الحسين يدور حول العشرين ـ وجاءت مدية ابي لؤلؤة تغرز حقدها في خاصرة ابن الخطاب وجعلته يجهض المجلس الاستشاري السداسي ، فاذا بالقبلية الجهيض يتقمصها من بعده عثمان بن عفان .

٣ـ عهد عثمان بن عفان :

لقد اصبحت المعاناة عند الحسين ـ في هذا العهد الثالث من تألب الاحداث ـ كانها حوملة منها ، ولا تقتات الاّ من ذاتها . انها ـ مع بداية اطلالته على رجولة مكتهلة بُنُضجها وعمق اختلائها بجوهر الذات ـ تفاعل جديد ابداً بلونه وحقيقة كشفه عن الاحداث ، وربطها بالتيار الفاعل الذي تصدر عنه ، وتتخبأ به النوايا والمقاصد ، لقد اتضح له الآن ـ والاحداث امام عينيه تتكرر حاملةً ذات المقصد ـ وان بنمط منوع بوتيرة أخرى ـ ان تنويع الانماط للوصول الى المقصد هو ذكاء الدهاة في استنباط الوسائل بتمويهها بالاخفاء والحذر ، حتى لا يكون للآخرين تحضير معاكس يخرب الطريق الى المقصد ويمنع عنه الحصول .

لقد شرح له ابوه علي كيف كان دهاء ابن الخطاب في استعمال سقيفة بني ساعدة سقفا لنمط بلغ به فن الدهاء سحب كرسي من تحت صاحبها ، وتركيز دعيّ آخر عليها بانها حقه في الجلوس ، ذلك كان النمط الاول في الوصول الى الهدف ـ امّا النمط الثاني فانه امتطى البراءة وقفز بها سريعا الى الهدف تدليلا بان الكرسي هي ـ حتما ـ للجالس فيها ، وهو صاحب الرأى في منحها لمن يريد ، وهكذا تصرّف ابو بكر وخلعها على ابن الخطاب ، او بالاحرى ، ردها اليه بنمط كانه زيارة و رُدّت بزيارة او كانها سلفة مقترضة رُدّت الى من اقرضها بالشكر والامتنان ـ امّا النمط الثالث لبلوغ القصد ، فكان ممرغا بفن متمتع بكثير من مظاهر الابداع الذي اغرى القبائل بروح القبلية ، فكان المجلس الاستشاري السداسي ، قدّمه ابن الخطاب قبل ان يلفظ انفاسه ، وجيّره الى عهدة عبد الرحمن بن عوف ، بعد ان كتب الاسماء الستة بحروف صغيرة ، فاكبر ، فاكبر ، على ان يكون انتقاء واحد من الستة مشارا

اليه بالحرف الابرز والاجسم ، وهذا هو النمط الجديد الثالث الذي نفذ القصد واوصل الخلافة الى ابن عفان على حساب علي بن ابي طالب .

لو انّ البراءة او الغيرة على كرسي الخلافة كانتا ضلعين في الميزان ، لهان الامر وطاب الرضوخ للمقصد الاشرف ، ولكن الرؤية الان عند الحسين هي التي تشاهد تعدد الانماط وتوحدها في المخرج الواحد الى المقصد الواحد . . . ليس في العملية الملعوب بها ايّة براءة على الاطلاق ، انما هنالك ـ بالعكس ـ نيّة مبيّتة تنام على ماسينام عليه بيت موزون من الشعر قيل مطابقا بعد عدّة قرون ، لمعنى ما يحدث الان :

ان الافاعي وان لانت ملامسها   عند التقلب في انيابها العطب !!

لقد تجلى للحسين ان كرسي الخلافة ليست وحدها في المقصد الخطير ـ انّما اهل البيت بالذات ، وهم الطالبيون الامجدون بالتخصيص ، هم المقصودون في عملية سيبقى لها التمادي الاحقر والابلغ اجراما !!! فليكن منهم الرسول او النبي ، لافرق ـ انّ الابادة هي المقصد ، وهي في العطش المزمن ، الاوفى والاروى !! لقد اصبح الدليل الشاهد على النيّة السوداء بارزا في الساحة التي راح يرقص فيها الان عثمان بن عفان ـ ان العصي التي سينهالون الان بها على رؤوس الطالبيين المجردين منها ، تجمّعت كلها في ايدي بني حرب ـ انهم الامويون الاعداء التقليديون الذين زرعهم ابوبكر و عمر ـ بعهدة اقدرهم وابرزهم ـ معاوية في ارض الشام ـ وها هو الان ابن عفان يجاهر بهم ويعتزّ بما احرزوه من مال وعتاد وسلطان ـ فليدافع الطالبيون عن انفسهم ـ اذا قدروا ـ لقد سبق ، في ظنه السيف العذل!!!

تلك هي المعاناة المستقية من معاناته التي كان يحيا بها في سنوات طفولته الواسعة التي تعزز وتدلل بها في هؤلاء الاحضان الذين هم : كل جدّه العظيم ، وكل نفسه المفتخرة ، وكل امله الكبير في الحياة ، وكل اركان الامّة التي بنيت جديدا للتفاخر والتباهي . . . فكيف له ان يشاهد خطأً اصيلا باهرا من خطوط كيانه ، مهددا بمثل هذا الانهيار ، تعمل على طمرهم فيه تلك القبلية الرعناء التي

وصفها له ابوه بالامس ، بانها اخطر ما تتلامس بها اصابع الابالسة وألسنة الشياطين !!!

ما كانت قد اكتملت بعد رجولة الحسين عند ما كان يعاني ثقلا ما عانى بعد من نوعه مثل هذه اللحظه من عمره ، عندما اشتعلت ثورة صغيرة حطّمت الكرسي على راس عثمان ، ونبّهت في بال الامّة عرقا صغيرا من الوعي والرفض وراحت تبحث عمن ينقذها من التشرّد الجديد ـ وما كادت تتلقط بذيل علي حتى امسكت به وجرته جرا الى الكرسي الذي تهـرّأت قوائمه بسوس اصبحت بؤرته واسعة في ارض الشام .

ولكن معاناة الحسين هي التي تتلقط ايضا بخيط جديد سيمدها بالانتعاش ـ ولو الى عدّة لحظات ـ إنّ الله مع الصابرين المؤمنين .

٤ ـ عهد الامام :

ما خفّت لوعة الحسين مع وصول ابيه الى كرسي الخلافة ، ولكنها تحوّلت فيه الى غبطة داخلية لم يجد لها في نفسه الاّ التفسير اللذيذ ، وان تكن غبطة متولدة من هلع ـ وهل للهلع في النفس ان يغزل قميصا من طمأنينة؟ لقد تمثّل له ان جدّه الآن يغمض عينيه في الاغفاءة القريرة ـ وها هي رغبتة الكبيرة يحققها التنفيذ ولما ينقل بعد جثمانه الطاهر الى مقرّه المشبّع بنور منه . . . ان اباه بالذات ، بعد ان يحمله بذراعيه ويكفنه بمثواه ـ سيتوجه توا الى الكرسي المعد له ، فيجلس ويتابع تسيير الشوؤن الكبيرة ، دون ان ينقطع خيط واحد لا من سداها ولا من لحمتها . . . هنيئا للامّة العظيمه لا يتركها مؤلفها وراعيها لحظة واحدة ، لا في العراء الفاتر ، ولا في هـدأة السكون ـ بل في العهدة المستمرة ، تغذيها لواعج النفس المطهرة تطهيرا ،ويتدبرها الاعداد الموزون بالرسالة التي هي حدود الله في الانسان ، وتحديد الامّة بالانسان .

لقد ذابت كل فسحة ضيّقة من بال الحسين ، فلا ابوبكر يتوكأ على عصاه خلف كرسي الخلافة ، ولا سبيل لأي واحد آخر يُدْعَى عمر بن الخطاب يتخبأ تحت قوائم الكرسي بانتظار هبوط دغشة الليل ، ولا احد من بني عثمان يحرق البيت بفتيلةالسراج العتيق ، ولا جذع واحد من بني حرب يتسرب اليه اسم معاوية فيسرق الشام مع الغوطة ويغرقهما في عبّه . . . إنّ الامّة وحدها هي المنزهة بين يدي ابيه منذ الساعة الاولى من هدأة الفجر في نحرالفجر .

لقد تهيأ كل ذلك في بال ومخيلة الحسين في هذه اللحظة التي تم فيها وصول ابيه الى الحكم ـ فالامّة التي هي جدّه في مهمته الرسالية ، تناولت الان محورها واستمرت في عملية البث ـ هكذاتراءىللحسين المنطبع انطباعا مطلقا بجدّه ، وبرسالة جدّه ، والمؤمن ايمانا مطلقا بالامّة التي هي تعبير مطلق عن جدّه وقيمة جدّه في الوجود الانساني الرائع ـمن هنا انّ كل ماكان يتحضر من اجل خدمة الامّة ورفع سويتها ، كان يحرك لهفة الحسين ، ويلهب شوقه في الوجود ، ويحيي فيه استحضارا بالغ الخشوع لجدّه الذي يحيا ابدا في الرسالة التي لاتخلد الاّ في خلود الامّة التي هي عنوانه الابهى .

انها الحقيقة في التطور النفسي ـ الروحي الذي كانت ترتبه المعاناة عند الحسين ، مع كل مرحلة من مراحل عمره بالتدرج العقلي ، الى الفهم والادراك والتفتح الذهني ـ لقد كان واقع الاحداث على الارض يوسع له الاختبار الملم ، ويكسب طاقاته الفكرية ـ النفسية عمقا فلسفيا ـ وجوديا ، راح يغرق فيه غرقا ذاتيا محفوفا بفضاء آخر ،كل صفاته من التحديد انه جو من التأمل المتحفّز النائم ابدا في كل خليّة من الخلايا المنطوية بها حقيقة ذاته .

من هذا القبيل كان انتهاؤه الى الاقتناع بان الرسالة التي حققت امّة هي الامّة ذاتها في جوهرها الكوني ـ الانساني ، ومن الحيف ان تخيب هذه الامّة ، والاّ فان الرسالة هي المعطّلة في مؤداهما الاصيل ! ـ ولكن مخيّلة الحسين شغفت بان تتلهى الان بان وصول ابيه الى الحكم هو في خطه الاستمراري ، ولم يشب باي انقطاع

- مع ان وصوله الى الحكم هو الوصول الهزيل ، بعد مرور ثلاثين سنة من غياب ، وانقطاع ابعدا الخط عن استمراره الضابط !

ليت الحكم وصل الى علي عندما كان يتمنطق بسيفه " ذي الفقار " - لقد قصفت القبلية سيف علي بعد أن أبعدوه خمساً وعشرين حولاً عن متابعة الجهاد - ولّما عادت اليه الساحة كان قد ادلهم الليل بالعكر المشؤوم - امّا الامّة ، فهي التي تئن الان وهي تستدعيه لتقديم الغوث ، فما احوجه إلى عشرة سيوف يهزّها دفعة واحدة في وجوه هؤلاء القوم ، وخلف كلّ واحد منهم قبائل تنادي : ياللجاهلية في ثارات العرب !!!

كم سيفا قصف المستعان به في صدر طلحة والزبير في معركة الجمل ، بقيادة امّ المؤمنين عائشة بنت ابي بكر التيمي ؟ وكم كلّفته من سيوف مقصوفة ، معارك صفين ، بقيادة ذلك الذي وصف بادهى الدهاة - معاوية - كسرى العرب ؟ وكم ارهقته القبليّة المجنّدة بقيادة عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد الملحق بابيه ابن ابي سفيان ، واخيه معاوية - المكحلين بغبار فراش كانت تتقلب عليه امرأة اسمها " سميّة " ؟!! - وكم اضنته حياكة القمصان المصبوغة بالزعفران ، حملها ، مع كل انوالها العتيقة ، الى الشام ، بشير بن النعمان ؟ - وكم ادمت قلبه وشلّت من همته واعصابه ، عنجهية ابي موسى الاشعري التي كانت لقاحا لورم اصفر تزنرت به بطولة مغشوشة ، شقّت عصا الطاعة ، وضربت بها في معارك النهروان ؟! - وكم صعقته ساعات الحزن وهو يغرق في تأملاته المليئة بالعفة ، والصدق ، ونقاوة الوجدان ، حتى غافلته - وهو غائص مستجم بها - وغد آخر علمه ابو لؤلؤة كيف يضرب بالسيف المسموم صدر المصلي في باحة المسجد !!!

انها الحقيقة الصارمة يجابهها الان الحسين - لقد غاب ابوه من تحت نظره وبقي عظيما كبيرا ماثلا في مدى بصيرته - لقد اخذ عنه مااخذه عن جده ، الّا انّ الاخذ هنا كان اطول في مداه ، وكان مكورا بمعاناة مازادته فهما حتى زينته شعورا بان رسالة جدّه العظيم هي بالحاجه القصوى الى انداد من طينة ابيه حتى تعمر الامّة ويستقطبها الوعي المهذب الى تحقيق ذاتها الانسانية الصامدة في صدر الحياة .

ياللمدرسة في اقنومها الموحد ، بسطها جَدُّهُ محددة بعلي ـ ويالحظ اخيه الحسن يتناولها مرسومة ولكنها محفوفة بالجهد الممهور بالدم ! ولكن ـ قبل ان يتناولنا الامام الحسن الى بساطه الابيض ، يروق لي ان اتبين لون المعاناة التي راحت تغرق فيها كآبة الحسين بعد مقتل ابيه الامام ـ هل هي الحزن المالوف طعمه في لحظة الموت ، ومفارقة الاحباب لأعزّ الاحباب ؟ ام انها مزيج آخر ، يتولد في النفس من الافرازات الاخرى التي يؤلفها الشوق الحميم في تلك النفس ، ويطبعها به على تخصيص وتمييز ؟

ماأسرعني الى ان اجيب نفسي بنفسي : منذ ان امتـلأ الحسين بروعة الادراك ، وبالتمام التمام ، منذ ان ادرك ان في تربيته الملونة لغزا مختوما بافخم الاختام ـ بدأت تشعّ على نفسه روائع التكوين ـ منذ هاتيك اللحظات ، ونفسه كالصفحة البيضاء ، تنهال عليها الازاميل بالحفر البليغ ، ومنذ ان ادرك انه مدموج بجدّه عنصرا من عناصر الصيانة لرسالة هي وحدها بلغة الانسان ، وهي وحدها سياج الامّة وتكييفها ضمانة لوجود الانسان ـ توسّعت حدود نفسه لاستيعاب المهمة الوسيعة ، وعمّقت بها الافاق بقدر ما لها هي من آفاق عميقة وجليلة .

فيما بعد ـ عندما راح يدرك واقع الاحداث على الارض ، وكيف تمت حياكتها واخراجها ، كانها مسرحية لبست الغباء وتبدت بالهزل ، والكذب والتهريج ، لتنتهي بماساة ماكانت ضحيتها ـ فقط قيمة انسانية فذّة طلع بها رجل اسمه علي بن ابي طالب ، بل كانت ضحيتها امّة برمتها ، تحمّلت اجيالا طويلة من التردي والانحطاط ، حتى وهبها الله رجلا منها ، سكب لها من نبوّة الروح قالبا جديدا صاغها به ودفعها قدما الى السلام .

لقد تعب في بناء المسرحية المؤلة عمر بن الخطاب في اللحظة التي غفلت بها عين الرسول عن عملية الزجر والنهي عن تحريك الجمر في وادي الشياطين ـ ولقد تم تمثيل المسرحية التي اتقن الرقص على خشبتها عثمان بن عفان في مسجد المدينة ، ومعاوية بن ابي سفيان في غوطةالشام . ايّة عقدة لذيذة تألفت بها المسرحية ونامت

عليها ؟ ولكنها لم تكن عقدة يتمجد بها الفن ، بل كانت حقدا ذلت به الامّة في مداها الطويل من عمرها المهدور ، ونعمت بالعز والمجد والكرامة ، في اللحظة التي جعلها نبيها العظيم تتحررُ منه ـ امّا العقدة المبنيّة بحذق ودهاء فهي التي راحت تتكشف عنها الايام تنفيذا لمبدأ صرح عنه مؤلف المسرحية عندما قدّمها لبعض المشاهدين :ـ لاتلتقي النبوّة والرئاسة في بيت واحد ـ امّا التفسير الجلي للذين اعتنقوا المبدأ ، فهو السعي الحثيث للقضاء على كل من هم اهل البيت ـ وهكذا يتم اجتثاث الجرثومة التي تطالب بتوحيد النبوّة والرئاسة في اهل البيت .

لقد ابتدأت اللعبة كانها زحام وصولي الى كرسي مشيخة ، وانتهت الى صراع آخر فيه كل القصد للاقتلاع والابادة ـ ولقد كانت الهواجس تشتد ويشتد معها التحسب واخذ الحيطة ، الى ان انقلبت عند اهل البيت حسّا بخطر مداهم في كل لحظة . لقد ابعد اهل البيت وكل من يمتّ اليهم بصلة عن اي مركز من المراكز الادارية في دولة الحكم ، وليس هذا وكفى ، بل إنّ الاضطهاد المباشر راح يطال الجميع دون ايّة هوادة ـ ومن يقول : ان مقتل الامام الان ـ بسيف ابن ملجم ـ ليس مدفوعا بذات الرغبة وذات الايحاء ؟

عجيبة غريبة هي الاساليب التي اعتمدوها ، واستعملوها ، وتفننوا باخراجها في ساحة الصراع ـ إنّ التنوع فيها كان يضيّع الفئة المضطهدة في تمتين الحيطة والتزام التحسب ، لان زمام المبادرات كان دائما بايديهم ، وهو يكون على اقواه مع المستقوي بالسلطان وكل مقدرات الناس في كفيّه ، وكل نيّة الشر ، والغدر والبهتان ، هي المبيتة في صدره .

في هذه اللحظة النازفة بالحزن والمرارة ـ كانت تتفتح في نفس الحسين كآبة ، اوسع مافيها انها اغرقته في تأمل لاشفة له ولا لسان ـ إنّه الحزين الكئيب ، ليس مطلقا على ابيه الذي غاب مثلما غاب جدّه ، وغابت امّه ـ بل على القضية التي هي الرسالة ، والتي هي الامّة ، والتي هي الموئل الكبير الذي يرد الغائبين العظام الى كل واحة هم فجروا ماءها ، واحيوها ، وخلدوها في مدارها الانساني الرائع

المنتسب اليهم ، والمضموم بهم الى حقيقة خلود الذكر ، وخلود القيمة في استمرار مجتمع الانسان .

سيكون لاخيه الحسن ان يتناول الخط ويمشي بعملية الغوث ـ امّا الحسين فانه الواجف المنتظر ، وهو غارق في تأمله الصامت ـ ايكون الترقب الان عنصرا آخر في معاناته التي لم تنفجر بعد ؟!!!

٥ ـ الصلح الابيض وعهد الحسن :

رويد الاحداث قليلا ، فانها تناولت الى يدها الان ازميلا اخر ، لا لتعميق الحفر في نفس الحسين ـ فان عمق المحفور فيها قد بلغ القرارة ،لا وليس لتوسيعه كتوسيع الدوائر ، فان الوسع فيه لم يعد بحاجة الى مساحة بعد ان تحول الى مسافة ـ بل لتلوين هذا الحفر بلون العمق ، ولون المساحات العنيدة التي هي تحويل يحومل في النفس ويرفعها من مرتبة الى مرتبة ، ومن قرار الى قرار ـ سيظل هذا الازميل الجديد في عمله المتواصل في نفس الحسين مع انتقال المهمة الكبيرة الى حضن اخيه الحسن ، منذ اللحظة الاولى التي تسلم فيها زمام الامامة ، حتى اللحظة الاخيرة التي رفعته فيها جرعة السم الى ملاقاة جده . في الملاء الاوسع ، ليطرح بين يديه جردة الحساب عما انجزه فوق تراب الارض .

امّا الحسن ، وقد انجز عدة اشهر فقط بتصدّر الامامة ، فانه ماتركها حتى ملأهـا ، وما غاب عنها حتى احتواها في مجمع فحواها ، واذا به ـ كعدسة العين ـ صغيرة صغيرة ، وما ضاقت على اشعة الشمس .

لقد كان الحسن ـ كاخيه الحسين ـ على اطلاع كامل وشامل بمجريات الاحداث ، وبكل ماضمر فيها من مقاصد سوء ليقصدهم ـ بالتخصيص ـ كطالبيين معينين باهل البيت ، وكان مدركا تمام الادراك ان لاقيمة لطالبيتهم ، مهما يعز بها الانتساب والفخار ، ان لم تتصف بالرسالة العظيمة التي اصبحت تعبيرا

مطلقاً وشاملا عن الامّة التي هي بدورها اطار آخر يصون الرسالة ليصان بها ، ويحققها ليتمّ له بها كل تحقيق .

هكذا انتقلت المهمة اليه اثر مقتل ابيه ، وراح يحاول اتمام ما انقطع عن انجازه ابوه الامام . اقول : راح يحاول ، والمحاولة تعني ان الحيطة والحذر اصبحا رفيقيه في كل خطوة يخطوها على الطريق - فالخصم الذي ترك ، او بالاحرى ، افسح له بالمجال حتى يستكمل كل اعداداته للبطش بهم ، والانجاز عليهم ، انّما هو الخصم الذي يملك ويقدر من دون أن يتأثم أو يتورع .

ولقد كانت المحاولة - بنوع خاص عند الحسن - مجهزّة مع الحيطة والحذر ، بحكمة متناهية ، كان يتأنق بها بروز الساحة ، وجس الانباض ، حتى يكون له المخرج الاصوب في تعهد الرسالة والعبور بها من بين المفارق الى اسلم واحد منها يوصلها الى واحة من امان .

ماكانت سهلة ابدا مهمة الحسن . بل كانت من اضنى مايقدر ان يقوم به حاكم مسؤول عن رسالة وامّة موصوفتين في باله ونفسه وضميره ، بانهما مآل في الوجود يحدد الانسان في الله ، والله في الانسان ، وانهما عنصرا قضية واحدة وموحدة في اسم رجل واحد امين في طالبيته ، وعظيم في نبوّته ، وجامع في امّته ، وانساني اممي في رسالته . . . عظيمة هي القضية ، وجليلة هي المسؤولية ، ولكن الضنى فيها هو في التمكن من متابعة نشرها قيمة انسانية فاعلة ، ومن تخليصها من كل وثنية تسجد للحجر ، وتعصر الحقد والضغينة والطمع تتغذى بها وتمشي الى ذلها ، كما يمشي كل ابليس الى جحيمه !!!

امّا معاوية ، فلقد كان الحاضر الاكبر ، يملك الخطوط ويتحكم بها وهو في مركزه الحصين في الشام - لقد حصّن له المركز المتين : ابو بكر ، فعمر ، فعثمان - حتى اصبح الان - بعدما تضرج علي بدمه وكفّن بعباءته التي لاتزال حتى الان تجاهر بزهده الرفيع ، وصدقه الارفع ، وتنادي على الجهات الاربع ، بانه الابلغ

والاروع والاشرف ـ هيمنة في الساحة ملونة بكل الوان الدهاء . منذ اكثر من ثلاثين سنة وهو يتعلّم كيف يكون الو صول الى كرسي الحكم ، وامتلاكه وتحويله ـ من الحق العام الموزع على الامّة جمعاء ـ احتكارا مصبوبا في خزائنه : مجدا ، وجاها ، وقوة ، ومنعة ، وقصورا ، ومرقصاً لاطماعه وشهواته واشكال نزواته ـ امّا إن يقضي على مزاحميه على الكرسي ، فقد تعلم كيف يسقيهم السم بنكهة العسل ، وتعلم كيف يستميل اليه رؤوس القواد والجند والمتزعمين من افواج القبائل ، بلعقات متفاوته الحجم والطعم ، كان يجعلها رشوة مطلية ببريق الكرم .

مانقصت ابدا موائد معاوية ، ولا انقطعت في كفه شعرة من دهائه المحنك بالفن ـ حتى الشعرة في كفه كان يموه عليها بانها امتن من حبل القنّب ـ وبهذه الشعرة المتكاذبة ـ ضمنا ـ على الذات ، وجهرا على الناس في ثوب الخديعة ، تمكن من ان يشغل كرسي الخلافة ويعتليه ـ انوشروانيا ـ على حساب اهل البيت وسحقهم سحقا استئصاليا يغيبهم عن الارث ، ويحرره منهم ليبقى صافيا له في مظهر الملك ـ وهل يكون اهل البيت اكثر من ثلاثة ؟ وهل يكون هو ـ معاوية ـ اقلّ من حبيكة تعب في حبكها خط فكري ـ سياسي مميز بعقل ، واعصاب ، وارادة ؟ لقد مرّت السنون الطويلة على العمل الهادف والدؤوب والصامت ، وها هو الان ـ معاوية ـ الدليل الشاهد على النجاح الباهر الذي اوصلته شعرة المرونة الى حقيقة الملك . . . وها هو رأس البيت في زعمه المتداهي والمتباهي ـ يغيب ملفوفا بفشله ، امّا الثاني الذي لن يكون اسمه اوسع من الحسن ، فستتم محاورته بكل رفق ولين ، الى ان تأتي الساعةالزاحفة بثوانيها ، فيتم اللدغ اللين المرن ـ امّا الثالث فسيبقى موجودا في يائه الصغرى ، ولن تبخل الايام عليه برغيف من سويق !!!

وان يكن معاوية قد ظن انّ الاحابيل التي حاكها كلها بحق اهل البيت هي نتاج عقله وفنه ودهائه ، وان نجاحها كان مرتهنا باخفائها ، والتلاعب بها في دغشات الليل ، الاّ ان اهل البيت لم تنطل عليهم مخبآت النفوس وما يجيش في النوايا ـ ولقد كان علي ارسخ المؤمنين بان العقل المتين هوابن الخلايا المتينة في

الانسان ، وهذه كلها لايمتنها الاّ العفة ، والصدق ، والسليقة ، النظيفة الروح ، وهذه كلها ايضا كان يفتقر الى كل مزاياها الطبيعية الخط الثاني من بني حرب الذين لايزالون كما كانوا ، منذ الامس ، يناصبون بني هاشم عداء خاليا من اركان العقل التي هي ـ في نظر علي ـ صدق ، وعفة ، وحب ، وجمال .

لا ـ لم تخف هذه المخبآت على علي ، في الليلة ذاتها التي تخبأ بها ابن الخطاب في سقيفة بني ساعدة ، وما طلع الصباح الا وابو بكر على كرسي الخلافة ، اما ان يصمت علي ويتغلف بالصبر ، فذلك كان عقله في تحمل الضيم ، ومعالجة الخطأ في تدبير شؤون المجتمع الموجه حديثا الى الوعي والادراك ـ اما ان يهدر قوى هذا المجتمع في مشاحنات جانبية تقوي الرجوع فيه الى قبليات ذميمة تفسد عليه غرضه الجديد من رسالة انهكها التعب في لمّة وردّة الى دائرة الصواب ، فان ذلك ماجعله يتحلى بالصبر والسكوت ، على امل ان ان تتسع عين المجتمع في تفتيشها عنه لتجده دائما في الحظيرة التي سهر على تسييجها ـ بالحق والصواب ـ نبيها العظيم ، بعد ان تركها في العهدة التي يجرده الان منها ، قبلي عتيق ما تخلى بعد عن نظام المشيخة .

اما ان يتمادى هؤلاء بتبييت السوء والتلاعب به ، بكل ظفر وناب ، فان اهل البيت جميعهم كانوا يكشفونه بالتدريج ، ويدركون كنهه وثقله خطرا عليهم ، وعلى الامة سواء بسواء في محاولتهم توسيع عين المجتمع حتى لاتضيع عن المقابلة بين خطين : خط يرجع الى قبلية جاهلية ، فيها كل التمويه على الحقيقة ، وخط صح انتماؤه الى الحق الذي هو الان رسالة ، توحد المجتمع من تيهه وانعزاله ، وتسلمه الى العهدة التي رتبت له التنظيم الصحيح بقوة الفكر ، والروح ، والصدق ، والعزم .

اقول : منذ الساعة الاولى التي عادت فحبلت بنواياها العتيقة سقيفة بني ساعدة ، تعينت على علي معركة توسع ميدانها ومداها في تجاوزها العصر الى كل عصر آخر ، دون ان تخف شكيمتها ، او تضمر معانيها ، او يُستغنى عن مضامينها في الحاحها على كل تحقيق ـ انها معركة قوامها ارساء المجتمع الانساني ـ عبر نظرة

علي الاجتماعية في الحياة ـ على حقيقة واحدة تبنيه ، هي اعتماده الصدق المتحلي بالعفة المنزهة عن الكذب ، والزور ، والبهتان ، فاذا هو عدالة انسانية شريفة بالمثل النبيلة الحاملة جوهر الله في الحياة ـ ما عدا ذلك ، فانه مجتمع لاينمو ابدا ، بل ينحطّ الى درك تبريه حيوانيته ، وتلفظه الحياة من جوهرها الكريم ، ويطرده العقل من دائرته المفتشه ـ ابدا عن لذة حل الرموز الكبيرة التي يشتبك بها صدر الكون . . . انها نكبة الانسان المرة في عدم تلقطه بحقيقته الانسانية التي يستدرجه الى وعيها المجتمع الامثل .

ذلك هو نهج علي في المعركة الكبيرة والطويلة ـ فاذا كانت رسالة ابن عمه الناطقة بالآيات البينات ، هي من اجل تركيز الامة على حقيقتها في المجتمع ، والتوحيد ، والانتاج ، الثمين ـ فان معنى ذلك ان مداها هو الذي لاينتهي ، بل يستمر باستمرار تدرج الامة الى اجيالها الصاعدة في وجودها الحي ـ وهكذا ، فان نهج علي هو المشتق منها في حقيقة الاستمرار ، لتكون الاجيال الصاعدة ميدانا لها في حقيقة الصراع .

واظن معاوية ادرك هذا العمق في النهج الذي قدّمه علي مادة في المعركة التي مات هو ، ولم تمت هي ، بل استمرت يقوم بها ـ من بعده الامام الحسن ، وسيموت الحسن ليقوم بها الحسين ، وسيموت الحسين ليستمر بها الخط الذي هو : وعد تتلقط به الامة ساعة تفتقده ، فتجده مزروعا في حنينها المفتش عن حقيقتها في السلوك الممتاز الذي سلكه علي ، وخط علي المدرب والممنّع بالامامة التي هي لون سياسي معين النهج ، وصادق الرسالة والوصية ، من اجل هذه الامة التي ستبقى عين النبي ، وهمه النابض بحقيقته الانسانية الجوهرية في الحياة .

وانها الان المعركة التي فتح لها الميدان الوسيع علي ، وتركها في عهدة ابنه الحسن ـ وسيظن معاوية انه المنتصر في معاهدة الصلح التي ترك الخلافة التي تنازل له عنها الحسن ، وعلى ان تعود اليه ساعة يمنعه عنها قدر الموت ـ لقد استعمل وسيلة الرشوة ، حلى بها شفة عبيد الله بن العباس قائد جيش الحسن ـ مما اضعف الحسن عسكريا في الميدان ، وجعله يقدم على عقد معاهدة الصلح اغتناما لربحين : الربح

الاول هو حقن دماء الامة ، ويتحقق من ذلك عدم ترك الأحقاد والضغائن تعود الى تمركزها في النفوس وهي تنشر القتل ، والخراب ، والدمار بين القبائل المتناحرة ، وهي بذلك تتلهى عن العمل المنتج والخير الذي يعيش به المجتمع ، ويحقق حضوره ـ السليم ـ كما وان الحرب ـ بحد ذاتها ـ تشق الامة الى عدة جبهات متصارعة ، ليكون الربح هو الاكبر والاجل ، في تحاشي وقوع الحرب ، حتى تبقى الامة كلها في اتصالها المفتوح ، وبذلك تتم لها الدورة الحياتية المكملة ذاتها بذاتها ، دون اي من العراقيل التي هي سم القطيعة بين اخوة هم وحدة في العرق ، والارض ، والمصير ، وهم قوة رائعة في التحقيق الانساني المنتمي الى وحدة عروبية حققتها الجزيرة الام عبر التاريخ السحيق بتوزيع ابنائها افواجا افواجا ، على اليمين وعلى اليسار فاذا هي عالم مربوط بالياف من العظم واللحم والدم ، تجمع بها هذا الانسان المجتمعي الى اصل واحد ومصير واحد ، وانتاج فكري ـ روحي واحد ، كانت نتيجته العظيمة الواحدة مجمعة في هذا الشعاع الذي ضاء عليها ، فاذا هو هذا العظيم المستدرج منها والمستقطب اليها ، واسمه الامين والرسول ، والنبي محمد .

وهكذا ولدت الامة مع محمدها من جديد ، في بعث جديد ، وظهور جديد ، ووعي جديد ، وادراك جديد ، بانها واسعة وسع ارضها ، وعميقة عمق تاريخها ، وجليلة جلال انتاجها المتمثل الان بنبيها ورسولها المبشر بها قوة مجموعة من ضلوع الحق ، لتبقى ابدا امة مفتشة عن جوهرها الانساني العريق ، والذي تجده دائما في وحدتها العاقلة .

هل هو قليل وزهيد مادركه العظيم محمد من اجل امته التي فاضت بانسانها من ارض الجزيرة الام ، وراحت تملأ الدائرة حولها منذ عشرات آلاف السنين من حياة انسانها على الارض ؟ فاذا الاصقاع كلها مربوطة بهذا الفيض الانساني الواحد ، اكان ذلك في خواطر الارض التي تنهل ريّها من النابعين الرافدين فيها : دجلة والفرات ، ام كان في تلك الخواصر الشبعانة من جود بردى في غوطة الشام ، ام كان في تلك الخواطر الاخرى الساجدة وهي ترضع الخير من احضان النيل اله مصر الاكرم .

انها الامة التي تربعت في اشواق محمد ، وراح يجمعها بالرسالة ، ولقد وسع الرسالة من اجلها ، وجعلها تفيض بقيمة انسانية مطلقة تعتنقها وتدين بها كل امة اخرى ، وهكذا تتوسع الارتباطات المتجانسة بادراك الحق ، وتنظيف النيات من لوثات السوء ، وينتفي ميل التعدي على حقوق الغير ، وبذلك تتروض العلاقات بين امة واحدة ، بزخم الرسالة التي هي فيض نور وهداية للانسان .

ليس التوسع هذا اكثر من شاردة تبين ان لحمة الامة حصيلة طبيعية جغرافية - تاريخية - ، وانها عامل انمائي في ربط الانسان بمحيطه الفاعل من اجل تعزيز انتاج توفره الوحدة المتضامنة باستقرارها وباشتراك مصيرها إن اعز امم الارض هي الامة المطمئنة في وحدتها وتلاصقها بارضها المعطاء وتجانسها بافكارها ، وتضافرها في انتاجها ، وتلاحمها في حضارتها وثقافتها وانفتاحها في انسانيتها المنتجة حقا وصدقا - انها الامة المثالية التي لعبت دورا عظيما في تشوق الرسول محمد ، وكانت هي التي تمنى لها سوية من هذا الطراز ، وكانت هي التي تخصصت لها الرسالة ، وكانت هي القضية الكبيرة التي توازي وجوده كانسان . فاذا كانت الرسالة لتعيش ، فلابد لها من انسان يعيش في امة تعيش - انها محور الكلام : الرسالة هي الامة ، والامة هي الرسالة - والاثنتان هما انسان محمد ، وانسان محمد هو عجينة الله في تراب الارض ، وهي الحق العدل ، وهي انتاج الجمال في الوجود الامثل .

من كل هذه المعاني في اصالتها ، تكوّن نهج علي ، ليكون اساسا في كل معركة انسانية يتثبت بها مجتمع الانسان - اما الحسن ، وهو متابعة وتكميل مباشر لنهج ابيه ، وهو الذي انتقل اليه الايمان بان وحدة المجتمع منعته واشراقة رسالة جده ، فانه بادر الى استيحاء النهج ، وبدلا من اعتماد السيف - وهذا السيف الان يقصف الامة دون ان يفعل في الدفاع عن مصالحها - راح الى اعتماد وسيلة اخرى هي التخلي عن الحكم كأداة تؤجج نارا تحرق ولا تدفىء ، وانشأ صلحا فيه برد السلام يجمع قطر البصرة الى قطر الشام ، ويزيل قلقا يخيم على كل قطر من الجزيرة الام حتى وادي النيل . . . لقد قدم الامثولة القدوة البيضاء ، بان التخلي عن حكم لايقدر ان يخدم امن الامة بل يفقرها ، ويفتت من لحمتها ، ويدمغها بالحقد

والضغينة ـ هو العمل المجيد المفصح عن ذاته ، بان الوحدة هي المعول الباني ، وان الامة هي الوحدة الصحيحة المبعدة عن اي تفريط بطاقاتها المنتجة خيرا لانسانها النامي ، وكلها في حقيقة النهج المتخلي عن كل مكسب ذاتي ، على حساب مكاسب الامة .

لايصح القول بان نهج الحسن كان مغايرا لنهج ابيه ـ ان النهجين من معدن واحد ، لمّا كان السيف ناجحا كاداة في تقويم الامة ولمّ شملها ، امتشق السيف علي ، ووسع المعركة في الميدان ـ ولمّا كانت الكلمَة ـ لا السيف ـ هي الاجدى في شرح الحق ، تكفكف بها لسانه ، وفاضت معه على نهج البلاغة ، تدل الناس الى الحق العفيف ، كيف انه يبني النفوس ، ويبني الامة الصادقة ـ ومن هنا لاتزال الامة تفتش عنه في كل وقت وفي كل جيل ينحرف بها المسير عن الخط القويم ـ وكذلك حاول الحسن ان يمتشق السيف ويخلص الامة من حيف لحقها من تنطح معاوية على كرسي الخلافة ، ولكنه اصطدم بالحيف ذاته الذي عطّل به معاوية وعي الامة ، واعادها الى زعاماتها المتسابقة الى حشد القبائل والاستنصار بها ، فاستنبط الصلح حقنا للدماء ، ومنعا للتمادي في اثارة الاحقاد ، وتفكيك وحدة الامة . ستعرف الامة في غد او في اي يوم آخر ، ان صلح الحسن هو الذي حقن دم البصرة ، ودم الشام ، ودم الامة جمعاء في هدنة ، على امل ان يطيب بها اللقاء ، وتصلح الامور ، وتستعيد الامة عافيتها من الوعي الذي ينمو كالنور بين كل صباح وصباح . واظن الان ان معركة الحسن هي التي حققت صحيحا بحق الامة ، وهي التي ستبقى ماثلة الحضور في نهجها الجميل ، في كل لحظة اخرى تتعرض بها الامة لازمة مماثلة ، تهددها بالتفكك والانفراط ـ ان الامة الراشدة ـ ولو بعد الف عام ـ هي التي تجني من مسوقات العبر .

كان الحسين في القافلة التي شدها الحسن وسلّمها الطريق الطويل من الكوفة الى يثرب ، وفي جعبته وثيقة الصلح التي وقعها ومعاوية ـ لقد بقي الحسين صامتا طول الطريق ـ اما الحسن فانه اخذ اخاه وضمه الى صدره وهو يقول :

ـ لايفوتني معنى صمتك ياحسين ـ ولكني ادرك انك فهمت مغزى قبولي بوثيقة الصلح ـ انا لم انشىء صلحا مع معاوية من اجل معاوية ، ولكني خفت على أهل البيت من الانقراض السريع ، واشفقت على الامة من هدر دمها وتفسيخ لحمتها ، وتخليت اليوم عن كرسي حتى يبقى لنا دخر في الامة تفتش به عنّا بعد كل ازمة خانقة تشتد عليها ـ ستعلم الامة ان صراعها طويل من اجل الحياة ـ وان نهجنا في سبيلها هو مادة الصراع ـ وان الرسالة ذاتها هي عنوان الحق فينا ، لانها وحدها هي القضية .

٦ـ شعلة الفشل وعهد الحسين :

يبدو ان الفضة الخالصة في معدن الحسين لم تنته الى التحلي ببريق النضار ، فبقيت صامدة في عريها الابيض الى ان تأتي الشمس فتكسوها بالنضار ، ولا الخمرة البكر الهاجعة في دنه قد شبعت من التملي من عتمة سجنها تحت الاختام ، فلبثت في شوقها الصامت الى ان يهدر الليل سكينته السوداء فتسكب في فم الصبح حمياها اللاهبة .

بهذه الصورة التعبيرية تراءى لي ان اختم فصل المعاناة في تعاقبها وتلاحمها على نفسية الحسين منذ طفولته الاولى الى هذا العهد المتماسك برجولته المطلّة به على كهولة وشمتها الاحداث الثقيلة بوشم عزيز المعاني وفريد التميز . ان السنوات العشر الاخيرة والمفتوحة في حياته ـ ابتداء باللحظة التي شاهد بها اباه يهوي الى الارض كانه طود ماقدرت ان تثبت تحته قواعد الصخور ، فتزحلق عنها وسقط في الدوي الذي مافتىء يزلزل في نفسه زلزاله الهادر ـ وانتهاء باللحظة الثانية التي سلخته عن اخيه الحسن الذي قدر ان يغرقه في لجة الصمت رجل اسمه معاوية ، بعد ان سكب في ريقه قطرة من حلقوم افعى ـ كانت مجالا لتأمل صامت صمت الليل

البهيم ، لفه بكآبة موصولة بكل كآبة اخرى عاناها في فترات متتالية ومتمادية عليه ، مع غياب جده عن منبر المسجد ، فغياب امه عن بهجة البيت حاملة كل النكد ، فغياب ابيه عن تركين الامامة ، الى غياب اخيه المختوم بالسم ! انها كآبة طالته منذ اكثر من خمسين سنة ، وبنته بناء نفسيا معمقا بالمعاني الناتجة من ذات الاحتكاك بها مع تقدمه بالعمر ، واجتلائها من مدارها في واقع الاحداث الملونة بالمقاصد المدروسة ، والمرصوصة بالنيات المبيتة ، والمتلاعب بها بدهاء وفن ـ فاذا هي كآبة متولدة من واقع حي ، ولكنه مر المذاق من هول ماراحت تتجمع فيه هموم وهواجس اضحت جبالا تزحف عليه زحفا مهددا بالسحق المدمر .

منذ ان غاب جده من تحت عينيه ـ منذ خمسين سنة ـ وحتى هذه اللحظة اليائسة من عمره ، وهذا الواقع المر يزداد تذوقا به مع كل فهم كان يوسعه له التقدم بالعمر ، ويجلوه التذود من الاحداث ، بالادراك ـ انه الواقع المأساة ـ وما تخلى لحظة واحدة من ترابطه وتماسكه بالحلقات التي تألف منها عموده الفقري ابتداء مسرحيا بابي بكر الملقّب بالصديق ، وانتهاء مخزيا بهذا المدعو يزيد المعروف بالزنديق ! وتمت فصول المأساة بعزل علي عن الكرسي المخصص له من عهد ، الى عهد ، الى عهد ، حتى تم به الوصول المسمم الجو والمقلم الاظافر ، وحتى تم تغيبه عن الساحات ـ اما المشاهد التي عمرت بها الماساة فهي التي تم اخراجها بالتذليل والتنكيل ، والسحل والقتل ، والتقزيم والتوهيم ، والتنويم والتغريم ، والتسميم ، والنط على الف حبل وحبل ـ وكلها من اجل ترسيخ رجل من بني حرب على كرسي ، تنحل الامة كلها حتى يبقى هذا الملك الى ابد الدهر. لقد قصفت الاحداث ـ في مشهد من مشاهد الماساة ـ عمر امه فاطمة ، وهي تضحك وتهرج الماساة ـ وقصفت الاحداث ، في مشهد طويل من مشاهد الماساة ، عمر ابيه علي ، وهي تضحك وتهرج الماساة ـ وقصفت الاحداث ، في مشهد جانبي آخر من مشاهد الماساة ، عمر اخيه الحسن ، وهي تضحك وتهرج الماساة ـ وقصفت الاحداث ، في مشاهد طويلة من الماساة ، زهو الامة ، ورقصها الناهد بالحياة وهي تضحك وتهرج الماساة !!! وها هي الاحداث الان ، وقد وصل اليه الدور

الرهيب ، تستعد لان تسحقه تحت نعالها ، وهي ـ سلفا ـ تضحك وتهرج المأساة !!!

هذا هو كل ما مـرّ به تصور الحسين في هذه اللحظة التي تمكن فيها معاوية من حذف اخيه الحسن من صفة الوجود ! لقد حذفه قبل ان يموت ـ لقد كان معاوية يخاف ان تنتقل الخلافة الى الحسن بعد موته ، حسبما اشترطت معاهدة الصلح ـ اما وقد مات الحسن قبله بجرعة من عسل " ـ فمعناه التحرر من ميثاق ، وجعل الحكم ينتقل عاديا بالوراثة الى ابنه يزيد . اما ان يتنكر معاوية لميثاق قطعه على نفسه فمعناه خيانة المواثيق وعيب على معاوية ان يفعل ـ وكان الالتجاء الى الوسيلة ـ فلدغه بالسم ونام قريرا على فراش من حرير سينام عليه ايضا يزيده العربيد ! ان ازلام يزيد الان يطوفون باسمه خليفة على المسلمين ، ويطوقون المدينة يثرب ، وهم يهددون الحسين بالرضوخ والمبايعة ثمنا يشتري به بقاءه حيا ومتمتعا برغد العيش .

ـ ٢ ـ

لم يصدّق الحسين الكلام المعسول ولا الوعد المنسول ـ مثلما لم يصدقه من قبل ، لاابوه الراقد في النجف الاشرف ، ولا اخوه المكفن بحضن امه في البقيع ، بل التوى على نفسه الكئيبة يجتر وحدته الصامدة في كيانها ، ويزنها بموازينها الصحيحة ، ويجمع لها من مواعين روحه وقلبه وفكره ، مايجعلها موصولة بالخط الكبير الذي رسمه ودفعه الى النور جده الذي قهر الموت وتسربل بالخلود ، لانه تمنطق بالحق وتسدد بالرسالة ـ فاذا هو حي ابدا في القضية التي هي امة يعززها الاجتماع الانساني المستمر من يوم الى يوم ومن جيل الى جيل طالما هو الغارف من صدر الحياة مقومات وجوده في الكون .

لم ينقطع الخط ، بل تمتن وصله بابيه الناهج نهج الحق ، فاذا هو خط يخلد ، لانه مركز على القيم الانسانية التي لايتعزز الا بها وجود مجتمع الانسان ، ومحورها

العدل ، والحرية ، والمساواة ، واساسها ، الحق ، والصدق والمثل النزيه ، وكلها في الشوق والتوق اللذين يبنيان الانسان . ان عليا الامام هو ركن من هذه الاركان الانسانية التي بني عليها مجتمع الاسلام . ولهذا فانه المستقطب دائما اذ تختل الموازين ويهبط مطلق مجتمع من مجتمعات الارض الى فجوات من التردي ، سيجد ذلك المجتمع بالذات ، أنَّ اسباب الارتجاج فيه عائدة الى استهانته بهذه القيم الانسانية او ببعض منها ، وان في الرجوع الى مبادىء علي ترميما لكل نقص شوش ذلك المجتمع وابعده عن التركيز الانساني القويم .

لقد تبين دائما للحسين ان المبادىء المنهجية التي آمن بها ابوه علي ، انما هي كلها من صلب الرسالة التي قدمها جده للمجتمع السوي - كما تبين له بوضوح لايقبل الدحض ، ان الامة بسعتها الارضية الجغرافية كما بسعتها الزمنية التاريخية هي التي تحقق وسعها الانساني الذي استدرج هبوط الرسالة عليه وتقبلها فاعلة فيه ليخلد وتخلد فيه . من هنا ان جده العظيم هوالخالد وان اباه الكريم هو الخالد ايضا ، لان الامة - الرسالة هي التي نبضت بهما ، ولايمكن ان تفك ارتباطها لا بالارض ، ولا بالتاريخ ، ولا بالحياة التي تستسيغ التراب وتتجذّر فيه .

ولقد تبين للحسين ان الخلود هو منعة القضايا الكبيرة المقتنصة من جوهر الحياة ، وتستمر بها ، ولولا ذلك لما كان الانسان خالدا في ارثه المجتمعي الذي هو قضية الحياة في استمرارها الخالد الرائع - سبحان الله الذي كرّم الحياة وخلّدها في مجتمع الانسان الذي هو صورة الله ورمزه في روعة المثال . ان الامة - والحالة هذه من الاقتناع - هي قضية محمد النبوية الرسالية وهي حقيقة خلوده ، وحقيقة انتصاره في المعركة الانسانية الدائمة التي هي - بحق - صراع الحياة في تحقيق استمرارية ذاتها .

وكما ان قضايا عديدة تتفرع من القضية الاساس ، لتكون لكل واحدة منها قيمة مماثلة للاصل في الوزن والجوهر ، لان الاصل في تمدده ، انما هو فيض - لاللتنقيص - بل للتكامل ، هكذا رأى الحسين ان كل نهج ابيه كان فرعا من اصل

الرسالة ، ولقد تكامل به ، فاذا هو من اجل امة تبدّت من رسالة ، او رسالة تبدّت من امة ، وهكذا تلبس ابوه خلودا في الذكر تحيا به اجيال الانسان ، وتفتقده ـ اذ تفتقر اليه ـ كما لاتزال الامة تعبيرا صادقا عن نبيها العظيم الذي كفكفها برسالة هي لها في مجال الديمومة ، واذ يشط بها خطأ ، تتململ اليه في طلب النجدة التي تعيدها الى حقيقة الامتثال وهكذا تكون كل قضية مشتقة من الحق الصريح ، معادا لكل عبقري صاغها او صاغ بندا من بنودها المتلألئة بنور العقل وبهجة الايمان .

من هذا الصنف الطليعي اكمل اخوه الحسن مهمته الامامية المصنّفة لتعهد الرسالة ـ الامة ، الموازية كل قيمة الانسان في الوجود . وكان سيّان لديه ، اقام بمهمته الكبيرة وهو متربع في كرسي الخلافة ، ام قام بها وهو قابع في زاوية البيت فوق فراش طرحته عليه ـ يعاني سكرات الموت ـ لدغة افعى دسها تحت وسادته واحد من ابناء بني حرب !! ـ ان العظيم في الامام الحسن هو في كونه صاغ قضية من قضية ، كانت تحديدا باهرا لحقيقة الامة ، تجده الامة دائما في وحدتها الواعية المقدسة دم الانسان في عروق الانسان في عمل واحد جامع ، يصون الحق الذي بشّر به ابوه علي ، وينزّهه الحب ، والسماح ، والصدق ، والايمان بالرسالة المنجحة باسلامها المتدفق روعة من صدر وفم نبيها الخالد . لقد كان الصلح الذي أنشأه الحسن ، تلك القضية ، وستفتش عنها الامة كلما خاب بها الطيش الى صراع يفككها ، ويلعب بها ، او يلهيها عن تماسكها الصادق المنتج .

ـ ٣ ـ

ماان وصل الحسين في عرضه هذا المستدرج من تحليل عقلي ـ روحي محتكم الى قضية فلسفية ـ وجودية ، محتكمة بواقع حياتي ـ نفسي ـ اجتماعي ، حتى سرت في عروقه نشوة كانها مستحلبة من عالم آخر ، فيه لمع من الخيال ، اكثر مما فيه روابط من الواقع ، لقد تمثّل له ـ في هذه القاعة التي راح يغشاها الليل بعتماته الزاحفة بعد هبوط الشمس في افق المغيب ـ جده المتواري منذ اكثر من نصف قرن ، فاذا هو

ـ امام عينيه المعكورتين بالدم المقهور ، والمغمورتين بهذا الظلام الأدموس ـ كانه عملاق ربط الارض بفجاج السحب ، بخطوات تنقش الارض وتوشيها بنجوم يرتعش بها نور لايخبو ـ ياللمحاريب هكـذا تتـلألأ تستضيء بها الامة حتى تدرك انها ابنة النور ، تتوسده على زندي جده العملاق الابدي القضية في ابدية الجوهر ، وما عتم النبي المتجلي في دهشة الحلم ، ان تناول الحسين ولفه بغمرة من روحه وهو يقول :

ـ طابت تحت قدميك الجنة ياسيدا بهيا منها ـ منذ ساعة وانا اراقب فيك توثبا قطعت به روحك اشواطا واشواطا من عالم الذات ، فاذا انت ـ على حق ـ ابني الذي شرب مهجتي ، وتمتن بعزمي وسؤددي ـ ان البطولة فيك هي الان التي ترفعك الى العالم الاخر الذي لاتنبت فيه الا النفوس الكريمة ، الابية ، العزومة المنسوجة من قهقهات السحب وهي تحتك بذاتها المندمجة بالعواصف والزوابع وعنفوان الاعاصير ـ لقد قراتك وانت تستدرج نفسك المسجونة خلف جدران الضيم والقهر الممرغين بذل السخف والتردي ، وعرفت انك المتمرد الذي سيسحق الحيطان وينفضها غبارا في العيون المعمية بسؤدد ضائع عن حقيقتي في رعاية امتي التي بنيتها من غبار رمدها ، لتكون انتصارا لروعة الشمس في البؤبؤ الصغير الذي يرى به الانسان حقيقة الله في الانسان ـ اني اراك الان ـ كما كنت اراك ـ بهجتي في حقيقة المآل واراك في خطك المآلي تشتق قضية من قضية كما اشتق جدك من حضن الله قضية الانسان ، وكما اشتق ابوك من مهجتي بتقديس الحق قضية زرع الحق والعدل في مهجته ، ليكون مثالا انموذجيا في القدوة والتعبير ـ ولقد اشتق اخوك الحسن قضية من قضيتي التي افرغت فيها كل عزمي ، وشوقي ، وخزانتي ، واحلامي ، فاذا هي الامة العظيمة التي

صانها بصلحها مع نفسها ، فاذا هو القدوة الدائمة التقديم
كلما عصفت بامتي موجة فيها وهن ، وفيها رمد ـ اما قضيتك
انت الذي سمعتك الان تصوغها وتنضّد حروفها، فدعني ابارك
روحك وعزمك ـ حتى تتلقط بها بسيف ابيض وشفة حمراء
ـ امش ياابني الى ساحتك ، اتظنني سابكي عليك ؟ ولكني
بنيتك من دمعة العين وخفقة المهجة ـ ولا امك فاطمة الا وترنو
اليك ببسمتها المفطومة ـ لانك تقدم قضية تحيا بها اجيال
الامة . . . اجيال الامة . . . اجيال الامة . . .

ـ ٤ ـ

عندما كان مثل هذا الصدى ـ الملآن ـ يتجاوب في روح الحسين ، وهو المستجيب الى وحدته الغارقة في بحبوحة التأمل ـ تقدم من المعبر الداخلي بوّابه الاسمر العريض المنكبين ـ اسعد الهجرى ـ وفي يده مائلة بعدّة شمعات مضاءة وهو يقول :

ـ عرفت انك كنت مستأنسا بوحدتك في عتمة الليل ، ولكن قادما ، لااظنك ترتاح كثيرا اليه ـ جاء يطلب مقابلتك .
ابتسم الحسين ابتسامة صفراء وهو يجلس على فراش من افرشة الديوان ، معقبا على كلام الهجرى :
ـ منذ عدة ايام ونحن الثلاثة ، نستعرض نفسية الوالي على المدينة ، الوليد بن عتبة : اخي محمد بن الحنفية ، وابن عمنا عبد الله بن جعفر ، وانا الحسين يااسعد ، ولم اخف عنك الامر ، ولا الخطة التي اعتمدناها بانسلالنا هذا الليل من المدينة الى مكة ـ فدع الوالي يدخل الان ، واكمل انت حزم الأمتعة للسفر ـ توّا ـ بعد ان يترك ابن عتبة عتبة الدار .

وضع البواب اسعد ماثلة الشمع فوق قاعدتها من المكان وانسحب مثقلا بوجفة هم على ابن بنت الرسول كان يحاول دائما ان لايظهر بها امام السيد المهيب ـ بعد دقيقتين كان الحسين يدعو الوالي الى الجلوس في صدر الديوان وهو يقول :

ـ لااظنك جئتني الليلة لتنفيذ الاوامر التي حملها اليك من الشام ، ابن ابي زريق رسول يزيد ـ ولا اظن مروان بن الحكم خفف من تحريضك على تنفيذ الاوامر ، وهو مستشارك الدائم ، والمريد الاقوى بالخلافة لابن عمك يزيد ـ اما الاوامر فهي في ضرب عنقي ان لم ابادر الى المبايعة ، ولكني ـ رغما عن ان المبايعة لم تخطر ابدا ببـالي ـ اظن ان والي المدينة الوليد بن عتبة بن ابي سفيان ، لايقدم على تنفيذ امر كهذا ، لاني اعرف تمام المعرفة ان في طينته لونا يجعله يتأثم من منكر لايجوز ابدا ان يرتكبهُ .

اما الوليد بن عتبة فانه لم يتأخر ابدا عن الجواب الذي فتح الباب وسيعا لحوار قد اتسم بالصراحة بين الرجلين ، مع الاقرار بانه كان متحليا ببعض الصفات التي جعلته ـ فعلا ـ يتردد عن التنفيذ ، مما ادى بالخليفة يزيد الى ان يعزله عن الولاية ـ فيما بعد ـ ويعين مكانه عمرو بن سعيد بن العاص ، الرجل الاقسى والادهى في حياكة الموآمرات :

الوليد ـ انا لااسألك كيف عرفت كل ذلك ، فانت ذو حصة من الذكاء ـ وهي واسعة فيك ـ تكشف بها حتى المخبآت في الصدور ـ اما ان اضرب عنقك ، فهذا اكيد انني لا احمّل نفسي مشقة الركوب الى عمل كهذا ، ولكن الشيمة ذاتها في نفسي ـ وانت تمتدحني بها ـ لاتبخل عليك بالنصح والتلميح الى ان مااحجم انا عنه لن يكون تأثما عند سواي ـ لهذا جئت الليلة اطلب منك ان تربأ بنفسك وتحملها الى مبايعة تقيك من

الخطر ، كما فعل قبلك ، منذ عشر سنوات ، اخوك الحسن .

الحسين - انت مخطىء في ترصّدك كنه القضايا - فاخي الحسن لم يبايع معاوية ، بل حقن دم الامة ليعلّمها ان الصلح يقيها من الانفراط ، ويبعد عنها التمادي بالاحقاد ، ويوفر لها اللحمة المنتجة ، ويدلها الى الحاكم الواعي حتى تفتش هي عنه سائسا متفانيا في صيانتها ، لامستثمرا طاقاتها وخيراتها - هذا من جهة المبدأ الذي كان قضية من القضايا الكبيرة التي شد خطوطها اخي الحسن - اما ان يقصد - من التخلي عن الحكم - شراء الوقاية من تهلكة فهذا ما لم يتحفظ منه اوله ، بل كان يترقبه حاصلا في نيّة معاوية - بين لحظة ولحظة - فمعاوية الذي صرف العمر كله في مدرسة تعلمه كيفية نهب البستان دفعة واحدة ، لاشجرة شجرة او غصنا غصنا من الشجرة ، فانه احرز اطول قصبة من قصبات السبق ، ومسح رأسها بادهى مرهم من مراهم السم ، لدغ بها اخي الحسن المتخلي عن كرسي الخلافة !!! - الا ترى معي يااخي من قريش ، وياعدوي الحقود من بني سفيان ، ان الامة هي الاوسع من عرقين متناحرين على مشيخة القبيلة ، وان من يضحي من اجل توسيع الاضيق بالاوسع ، ليس كمن يتحايل الى تذويب الاكبر في الاصغر ؟ وانه ليس لقصبة السبق في الميدان ان تكون رمحا من رماحه المصقولة !!!

الوليد - هذا مبدأ عام ياحسين ، وليس لاحد ان ينكره في حقيقة العلم ، والرأي ، والمنطق - ولكن الواقع على الأرض هو غير ماترسم - فمعاوية طاب الحكم بين يديه ، وان قصبة السبق التي احرزها هي التي احرزت له الرمح الطويل على مدى عشرين سنة من عمره واكثر - اما اذا صح افتراضك انه اعدم

اخاك ، فاي حكم ليس في يده ادوات تنفيذ الاعدام بمن هم
ضد العهد ، او بمن يمكن ان يشكلوا خطرا على سلامته وامنه ؟

الحسين ـ وهذا وقوع في الخطأ الافدح ـ لم يكن معاوية خليفة
للمسلمين ـ وكان ملكا على المسلمين ـ الخلافة شيء والملك
شيء آخر ـ فالخلافة هي كل المخلوف : تاسيسا ، وتركيزا ،
ولونا ، ومعنى ، وقضية ، ودستورا ـ المؤسس كان جدي
النبي ، وهو لاغيره المركّز، وهو الذي جمع الامة بالتوحيد
والاسلام ، وهو الذي اعطاها المعنى الاوسع في كونها الحصن
المنيع والمركّن للانسان ، وهو الذي احاطها باطارها الافخم ،
فاضحت قضية الانسان ودين الانسان ، وقيمة وجود الانسان
ـ وهو الذي سن لها الدستور ، فكانت الرسالة ميدانها
الاشتراعي الاوحد والاضمن . ان المخلوف ـ والحالة هذه
ـ هو جدي النبي ـ اما الخليفة فجدي النبي ايضا هو الذي
انتقاه من اكفأ ابناء الأمة ، بعد ان انشأ صباغا من جوهر
الرسالة والقضية ، فطلاه به وبعد ان حرر الامة التي انسكب
بكل جهده فيها من كل مايعيدها الى مسلسلها المتماوج بغبار
قبلياتها المتناحرة فوق كراسي مشيخاتها ، وذلك بتعيين كرسي
واحد يجلس فيه المعيّن المصقول بتربية خاصة معبّرة عن كل
مقاصد المؤسس الاوحد الذي سيبقى وحده عنوان الامة التي
بناها وقدم لها رسالة ، منذ الامس ، الى اليوم الحاضر ، والى
الغد الاتي المتربع فوق سدرة الزمان ـ ذلك هو الخليفة المعيّن ـ
فمن هو بنظرك ياابن ابي سفيان هو الذي بنى وعيّن معاوية بناء
مشتقا من ارادة المخلوف ومن جوهر مقاصده ، ليكون خليفة
الاسلام ؟ اما ان يكون معاوية ملكا ـ فليس على هذا الاسلام
في امة الاسلام ، بل على عدد من القبائل عادوا الى المبايعات

في اسلوبها العتيق الهزيل ، وعـادوابهـا الى ملكية سيف بن ذي يزن ، او عرش قبلِّي مهزوز القوائم لامريء القيس . . . اما ان يقتل معاويةاخي الحسن ؟ فباي حق يحصل التعدي على ارواح الناس واجسادهم وهم الذين اشتراهم جدي لجنان الملكوت ، وصانهم ابي علي بالعدل ، والحق ، والرحمة ، والمساواة ، وزينهم بالصدق ، والطهر ونظافة الكف ، دون ان يطمع برغيف لم تخبزه له فاطمة وقد عجنته من طحين سحق ـ هو ـ حبات شعيره على رحى يديرها بساعده الايمن ويلقمها حبات الشعير بالايسر ؟؟؟

الوليد ـ ياابن بنت الرسول ـ قد تكون انك افحمتني ، ولكنني اتوسل اليك ـ قبل ان اغادر دارك ـ ان تبايع ، وارجو ان تصلح مبايعتك يزيد ، فتتضاءل الشبهات فيه ، وتوفر هناءة لاهلك ، وتحقن دم الامة ، كما فعل اخوك الحسن وليس للغد الا ان يقول لك : هنيئا لك الذكر الحسن ، يا اخا الحسن . . .

الحسين ـ امهلني الى الغد ياابن عتبة ـ ستعرف اني بنيت قرارا تتفيأ به امتي وامة جدي وابي وامي واخي الحسن ـ سوف اقدم على نوع من مبايعة يبهر عينيك وسوف لااجبن عن بذل الذات في سبيل امتي هذه التي سافجّر دمي حقنا لدمها ، حتى تبقى ملمومة الى سلالم المجد ـ الم يتفان جدي ، وابي ، وامي ، واخي ، في سبيلهـا؟ فاي شيء لي بعـد الآن لا اسكبـه قـطرة قـطرة من دمي في الابريق الذي تشرب منه ريها ؟؟؟ اطمئن ايها الوالي ـ ورعاك جدي ـ انه رب السماط .

خـرج الـوليـد بن عتبة بن ابي سفيـان من دار الحسـين وبعـد خمس دقـائق بالضبط ، كانت القافلة الصغيرة تغذ في السير بثوب الليل ـ وبعد خمسة ايام نزل الركب في محارم الكعبـة ، ليكون للحسين قدر آخر ، بناه في سرّه ، وسيكـون له اعلان عنه في الغد القريب !!

لم يكن عجبا ان لايدرك الوليد بن عتبة مرحلة واحدة من مراحل البعد التي ساح فيها الحسين ـ لقد كانت سياحات الحسين وليدة معاناة غزيرة تعمّقت نفسه وتلونت بها من حسٍّ الى حسٍّ ، ومن ادراك الى ادراك ، انّى لابن عتبة ان يسبر غورا من اغوارها ، وان يكن جارا له في المكان والزمان ـ يكفي ان نفسيّة ابن عتبة انما هي منسوجة على نول سفياني لايطمع في الدنيا الا ان يسلبها سلبا ، لاسيما اذا وقعت في عب ينتمي الى جب طالبي ـ لقد كان الحقد حدا تاريخيا فاصلا بين هذين البيتين القريبين والشهيرين في اصلاب الجزيرة ولم يتوفق ، حتى الرسول الكريم المرتبط الانتماء بهما ، ان يمحوه ويخفي اثره من النفوس ، لابالرسالة والتبشير ، ولا بالقدرة التي كانت تسنح بها الظروف في المناسبات العديدة منذ فتح مكة الذي تحكّمت فيه الاصنام ، وتمّ الصلح والوئام بين جميع الفرقاء والاخصام ، ولا حتى في المناسبة التاريخية الثانية في الصلح الكريم الابيض الذي وقّع معاهدته مع معاوية الامام الحسن .

اقول ـ لم يكشف الوالي ابن عتبة مغزى القول الذي تفوّه به الحسين امامه في تلك المقابلة الخاطفة ، لان قول الحسين كان تعبيرا عن معاناة لم يكن للوالي ان يعاني مثلها لانوعا ، ولا عمقا ، ولا لونا ـ اما ان يطلب منه تقديم المبايعة ليزيد ، فذلك نصح منه وتكرّم في انالته حرزا يقيه من العطب ـ وكان يدرك تمام الادراك ان ليس في مقدور الحسين ان يقاوم ، لان سيطرة يزيد هي الفاعلة فوق الأرض ـ من الشام ، الى العراق ، الى الجزيرة حتى مصر ولايزال مجد معاوية ناشرا هيمنته على الساحات ، والدليل على ذلك هو تهديد العصيان بضرب العنق ـ قد يكون الوالي ابن عتبة متحليا بخلجة ما من عريكة طيّبة ، علل الحسين بها حتى يبايع ، ولكن اتكاله كان على واقع الحال الذي يجبر الحسين على المبايعة دون اللجوء الى عنف يستغنى عن افتعاله ـ لهذا سمع الحسين يتلفظ بمبايعة فصدّقها دون ان يفصّل منها معنى اخر يتلاعب به الرمز ، كما وان هذا النوع من الرجال السطحيين او

البليدين في معرض الفهم ، ويزيد بالذات كان على رأسهم في حقيقة الحكم وحقيقة التمثيل ، كان في ثقل المعاناة الملقية اوزارها على نفسية الحسين .

كان الحسين في تمام الاقتناع انه المغلوب على امره مهما يحاول من حشد قوى ينازل بها يزيد . منذ زمن طويل والساحات الشعبية العريضة مموهة عن خطوطها الصريحة ، ولكنه توصّل اليوم الى ابهى ماتتوصل اليه المعرفة ، واعمق مايدركه الوجدان ، واثبت ما يتوصل الى تركيزه واقع علم الاجتماع ـ هو ان مجتمع الانسان لاتنفك تشد به الى درك غرائز منوّعة الاشكال والالوان ، في حين يقيض له الله بعض افراد ينبرون منه وهم مميزون بشعلات دافقة من الفكر والروح ، يشدّون حقويه للارتفاع الى مستوى اخر ينتصر به في مجال تحقيق انسانيته المفتشة ابدا عن مثل تتدرج بها في حقول الارتقاء ـ من هؤلاء الافراد المفرزين من خصائص مجتمع الانسان المشتاق ابدا الى اكتشاف ذاته في حنينه المزروع فيه الى الاسمى ، والانقى ، والابهى ، هم العلماء ، والمفكرون ، والفلاسفة ، والمصلحون ، والرسل ، والانبياء الكشّافون عن عوالم الروح ـ وكلهم درجات درجات في المجتمع الانساني المزروع في امم منتشرة على سطح الارض . انهم هم الذين يتضافرون في التقديم المثمر الذي يتخمّر به كل مجتمع على قدر طاقته من الاخذ المستمر ـ وكل ذلك في عملية دائمة الصراع لايتأخر عنها الا المجتمع الذي ينوخ عليه الفتور ، او الكسل ، او الملل ، ليكون عقابه التردي ، والتنكب ، والانحطاط ـ الى ان يعود الى غرفه الاصيل من المعن التي هي في وجود تراثه الانساني الذي تحتفظ له به الحياة ـ اما المجتمع الحي الدؤوب ، فهو لايتعب من الغرف ، لابل انه المتحول ـ بحدّ ذاته ـ الى معين ملآن ، تغرف منه المجتمعات الاخرى ، ليكون قدوة ومثالا لها في العطاء الانساني الكريم الذي هو ذخر السماء في انسان الارض .

ليت شعري ـ راح يقول الحسين في ذاته ، وهو في مثل هذه الذروة من التفكير المتأني : ـ الم يحلم جدي الكريم الواسع الخيال ، والبعيد الافق خلف كل منال ؟ ساجعل منكم اكرم واعز امة على وجه الارض . . . وستكونون الامة التي افاخر بها كل الامم ؟ ويتمادى الحسين في التصعيد : لقد ملأ جدي الخزائن التي ستغرف منها

الامم الاخرى ، وانها ليست خزائن زاد ليوم واحد ، بل انها خزائن للاجيال الاتية ، تاخذ منها امم الارض مايجعلها قويمة في مسيرتها الانسانية ، ومتنعمة في جنان الحق - اما امته التي انجبته من خاصرتها الكريمة ، فستبقى فخورة بانتسابه اليها ، وسيبقى معاذها وهي تنتسب اليه تتناول زادها من خزائنه كلما مدّت اصابعها اليها .

عظيم هو جدي - يتابع الحسين تاملاته - لقد قام بمهمته الجليلة ورحل ، ولم تكن مهمته - قبل ان يرحل - انتصار بني طالب على بني حرب ، في معركة قبلية يقصف فيها سيف بينما يزهو الاخر لانه مروي بالدم - بل انها كانت مهمة انتصار قضية من قضايا الوجود في معركة انسانية لاتنتهي الا بانخساف الارض من مدارها ، وهبوط الشمس في عتمة الانطفاء - لقد كانت الامة ميدانه الابعد والاخلد ، في المعركة التي انتصر بها وتركها مفتوحة تعالج الامة فيها امورها الحياتية ، وتنتصر على كل مايعترض سبيلها من مخاوف ، ومخازي ، وهبوط في حفر يعمّقها المرض ، والوهن والوهم الاعور . لقد ترك المعركة ورحل - وهل كان من الممكن ان يبقى ولا يرحل ، حتى يبعد عن الامة وقوعها في زيغ لابد ان يحصل ؟ ولكن المستحيل هذا هو المتدارك ، فالقضية ملفوفة بدستورها ، تعود اليه الامة تستجلي منه كيفية بعثها وارتدادها الى حقيقة التصويب - وهذه هي روعة القضيّة المتكاملة ببنودها العقلية - الروحية - الانسانية - الحياتية - المتكافئة في الميزان ، سيرحل النبي - والحالة هذه - ولقد رحل ، والقضية هي ذاتها ، ينتصر بها وفيها ، وان يكن قد غاب لانها هي وحدها عنصر البقاء .

كل واحد بدوره من اهل البيت تناول الرسالة وبنى منها قضية ما كانت الا فرعا منها ، وهكذا رحل كل واحد منهم وهو لا يزال باقياً تلتجىء اليه الامة لتأخذ منه حيطة تستفيض بها في مكمن الضعف الذي اصابها أو يصيبها ؛ كأنْ تشعر ان تنكبها عن الاخذ بالعدل والمساواة او النزاهة والصدق ، او العفّة والبراءة - راح ينقص من قيمتها ويعرّضها لبعض الارتجاجات - فعلا كما حصل في عهد عثمان بن عفان - وكما راح يحصل في عهد معاوية بن ابي سفيان فتتذكّر عليها المستقل بجلالته ، وتأخذ من

مبادئه في القضية مرهما لجروح فيها بدأت تنزف ـ وهكذا ستجري الامور برجوع الامة الى اخيه الحسن كلما تعرّضت في ايامها الصاعدة الى فتنة برصاء ، فَسَّخَ صدرها من ضلوعه ، فتلجأ اليه وتأخذ منه مرهما يلحم بوعهـا برسغها وينجيها من الانفراط .

لقد وصل الحسين الى ذاته وراح يستعرض طول رمحه في المعركة التي يناجزه الان فيها رجل اسمه يزيد ـ لقد وجد الساحة التي يطلبه اليها المصارع الاخر اضيق من خربة ساقط سقفها ، يتناحر ضمن حيطانها ضبّان مشهوران بذنب كثير العقد ، على انثى ابلد مافيها انها من قبيلة الضبّان ـ انها كرسي الخلافة في الشبه الحاضر ـ لقد شغفت الامة بها منذ نصف قرن ، على ان لاتتركها الا وكل اصبع من اصابع كفها تنشب ظفرا فيها وتزرع وشما على قوائمها ـ انه وشم القبلية التي راحت تتلاعب بالقضية كانها الانثى بين ضبين ! هل يجوز للامة المبنية من جديد ان تتغافل عن اقتناص حظ من حظوظها النادرة ، فتتلهى بالقشور عن التلقط باللباب ، وهو ليس كرسي خلافة بل جوهر خلافة موكولة بالاحاطة به امامة مشتقة من ضلوع الجوهر ! الا بئست كرسي يجردها من معناها ضّب من هنا وضّب من هناك ، وكل منهما دخيل عليها على مراى الاصيل !!

ولكن انفتاح الحسين على الافق الاخر من نفسه وهو المطل به الان على ساحة الصراع الكبرى ، اوقفته رهيبا في فسحة المجال ، لتقول له : انها الامة وكل المجالات منشورة امامها ، وهي التي يعلمها الحق كيف تميز بين خط وخط من مفارق دروبها . لقد قدّم لها الحق جدك العظيم وهي تاخذ منه زمام امورها ـ وقدم لها ابوك صراطا تسلكه مستقيما الى هذا الحـق تركّز به وجودها ـ وقدّم لها اخوك لونا اخر تعزز به اوصالها في معركته الحياتية ـ الانسانية ، كلما اودت بها المجاهيد الى خطـأ طارىء يحرمها من المتابعة ـ اما انت فقدم لها ماتراه ضعيفا في حزامها فتتدارك به سقوطها تحت حوافر الميدان ـ واعلم تماما ياحسين ، ان معركتك الطويلة ليست ابدا ضمن حيطان خربة من الخرائب ، بل في الميدان الاكبر الذي لاينتهي فيه الصراع ـ بل يشتد فيه الصراع في حضن الحياة الاوسع ـ وانه الميدان البكر الذي

امتص عرق جدك ، وابيك ، وامك واخيك ـ فهل تراه بعد الان لايشوقه ان يمتص دمك !!!

ـ ٦ ـ

لست اظنها الا استحكمت حلقات المعاناة في نفسيّة الحسين على التحام بكل معاناة قاساها جده الاكبر ، وهو يستجيب الى كل نداءات الحق ، ليصوغ منها الملحمة الرائعة التي الف منها حقيقة الصراع في المصهار الذي تلجأ اليه كل امة من امم الارض من اجل استيفاء حقها الانساني في الوجود ـ ان امة جده هي المضمار الاساس في انطلاق المجاهيد وتركيزها حاجة لانسانها النامي ، وسيكون للحسين ان يتابع الخط في مسيرته المعينة ،ومن اجل هذه الامة بالذات ، تلبية لكل ماانتدبه جده للقيام به ، تحضيرا ، وتتميما ، وبذلا موصولا بالعقل ، والنفس ، والضمير ، تمتصه الساحة وهي في مضمار صراعها في التحقيق ، دون ان تُوْهى بشح ونضوب ـ اي ان المطلوب هو تقديم البذل من المعدن النفيس المشتق من الايمان والقلب والصدق والحجى ـ وهي كلها ثروات تعمر بها جيوب النفس في الانسان ، وهي التي تخلد بها انسانية الانسان ، وذلك هو التراث الذي تستمر به ـ غنية ـ كل امة يلفحها مثل هذا الكرم ، من مثل هذا المعدن المغزار .

لقد اوصلت المعاناة الحسين الى ادراك حقيقته الانسانية العظيمة ، بانها مشتقة من الامة ، ومتمادية بها ، وان الامة هي يوم حاضر معزز بطول الامس ، ليكون لها ـ من هذا الامس ـ وصلة بالغد الطويل الاغر ، وان المثل الكريمة هي التي وسّعت عمرها كأمة ، ومتنت جذورها في الماضي السحيق ، وانها هي ذاتها المثل التي تتولد من شوقها الحي ، تتابع بها صراعها من اجل الوصول الى كل غد وسيع فيه عزها وفخرها ـ وكان جده العظيم كل تفتيشها المشتاق عن تكثيف هذه المثال ، والاستنجاد بها في تحقيقها الذاتي ، وهذه هي مادة الصراع ، تجده الامة في البذل النفيس يقدمه لها نبيها مما غرفه من معدن الحق .

لقد علّمه جده كيف يكون البذل الصادق مادة لاتنضب بل تزيد مع كل يوم يشتد فيه الاخـذ منها ـ والاخـذ منها هـو المجدّد والمـولّد في غـزارتها والشـاهد عـلى طيب مذاقها ، وجودة حدها في الصفاء ـ من هنا يكون البذل وليد طاقات فكرية ـ نفسية ـ روحية ، موجّهة لمصلحة الامة ، ومعبرة عن حاجاتها في واقع المتطلبات الملازمة لها ، والتي هي جديدها الدائم في سنة التقدم والتطور ، وعدم القبول باي عامل من عوامل التنقيص من الزخم المتدرج بها الى المراقي الزاخرة بعزم الحياة في الوجود الانساني الكريم السمات .

والحقيقة ان المعاناة الطويلة التي اشتغلت بالحسين شغلها الكبير ـ قد وصلت به الى هذه الحدود المقررة كيفية التصرف ، ونوعية المبادرات الفردية ، تتميما للمهمة الجليلة التي حددت اطارها ، وتوجيهها ، وبروزها في كل مجالات حياته ، ارادة جده المنبثقة من ارادة شاملة ، وغير موصوفة الا بدلالاتها التي هي سمات غير مقروءة الا بايحاءات ، تلقطت بها كلها ، جوارحه التي ما استراحت مليا الا في استسلامها لكل المفاعل التي فجّر بها جده كل تيـارات فكره ، ونفسه ، وروحه ، فاذا هو ـ ابدا ـ قطب ممغنط بها ، ومستكين اليها ، وحاضر الذهن لاستنباط كل مايعزز ذكره ومشيئته ، ويتمم شوقه في امداد الامة بكل مايرفع شأنها ويدفع بها الى العزة والكرامة ، لانها هي الصندوق الفخم الذي نبضت فيه رسالة حددت الله في الانسان .

ولم يتوان الحسين مطلقا عن الادراك بان جده لايستوعب ولا يسترد من غيابه الا في امتداده ـ هو الحسين ـ عبر الامامة الممدودة من ابيه ، الى اخيه ، فاليه ـ على ان تكون الخط الضابط والمستوعب كل هذه الاشواق التي انصبّت ضمانا معصوما من الضعف والوهن ، لصيانة الامة ، وهي الخزانة المجيدة لعنفوان هذا الانسان الذي احتكره النبي وشدّه الى صدره برسالة هي صلبه ، وركيزته ، وعزمه الشبعان من الوجود ـ ان الامامة هذه هي كل المقصد السنّي في مفهوم الحسين ، وهي سر جده فيه ، وسره هو في جده ـ وان اهل البيت هم لب هذه الكينونة في كنهها المحدود والمقصود .

اما الاحداث التي استجدت في العصر ، منذ غياب النبي ، الى هذه الساحة الراقصة بيزيد - فانما هي امراس يرقص عليها صبية الامة ، يروضون بها اقدامهم في ساحات الملاعب ، لتكون لهم - فيما بعد - حبالا متينة ، يدلّون بها ادلاءهم الى الابار التي يكونون قد تعبوا بحفرها ، ينشلون بها ريّهم من الماء الذي يصلون اليه ، بعد ان يتذوقوه ، والا فينبذونه الى الاعمق — اصفى واذكى - تلك هي الاحداث الامراس في نظر الحسين - بعد كثير من التامل - لم يتعب من الرقص عليها امام عيون الملأ - لاعمر بن الخطاب ، ولا ابو بكر الصديق ، ولا عثمان بن عفان ، ولا معاوية ، ولا - حتى ابوه ، واخوه ، وان الدور واصل اليه الان في مناجزة يزيد - انها كلها احداث في الساحة التي تختبر الامة فيها حقيقة شوقها ، وكيفية اشعالها النار تحت القدر تطهي فيه وجبات طعامها - اما الرسالة ، فهي التي اجتهدت مليا بتقديم القنوات القويمة والمستنيرة بلفحات الشهب ، لتكون المحك الاصيل لكل خطوة تفتش عن حظها في التصويب ، وتعيدها التجربة اليه - وستكون الرسالة المرجع الدائم للامة في المضمار الذي تطول ضلوعه ومساحاته فوق المكان ، الى مالايحده زمان - وسيكون معنى ذلك ان اللاعبين هم الذين تشاهد الامة قفزهم على الامراس : هل هو المران العاقل الموصل الى جدوى ، ام انه الصبياني الهوى ، الواقع توا في الحفر ، والموقعها في الجريرة العمياء ؟!! اما الضعف فلابد ان ينكشف ، مثلما لابد للصواب ان تتوضح معالمه ، ويتعمق حفره - وهكذا تتوصل الامة الى ترجيح منهج على منهج في عملية التجربة الطويلة التي هي وصلة صراع بصراع ، ياخذ بعضه بركاب بعضه الاخر ، فوق الساحة الفسيحة التي هي ميدان الامة في تفتيشها - ابدا - عن الافضل والاسمى ، وهكذا تكتشف الامة ان وجودها الحي هو في وقوعها فوق ارض الميدان ، ثم في نهوضها - وان مهشمة - الى استئناف سيرها في التفتيش ، والتنقيب ، والافادة من اقتناص العبر .

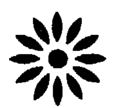
ولقد تبين للحسين ان في الاخطاء - وان تكن متتالية - دروسا بليغة تعلم الامة كيفية احتمال شؤمها ، حتى يكون للتملص منها طعم لذيذ التذوق ، ومشدود العافية ، وان الذين يسوسون الامة ويوقعونها في مثل هذا الوبال ، هم الذين

يعلمونها كيف تحزم امرها تجاههم وهي تقول : ان في الشر خيرا عميا لأولي الالباب !!!

هل كان الحسين ، وهو يستدرج في باله مثل هذه الخواطر ، يهيء نفسه للنزول الى المعركة التي وصف مضمارها بانه الاوسع والاسنى من اي مضمار اخر تلعب الامة فيه لعبة وجودها ، واستحقاقها ، وبلوغها كل مزية من مزايا الرشد ؟ ولكن الاستدراج هذا كان معززا بكل مايلهب العزم ويحضره لخوض المعركة التي هي نوع من انواع الملاحم ـ ان الامامة هي القاعدة التي ينطلق منها ، فهي الحصن ، والملجأ ، ومجمع الذخيرة ـ وهي السجل الاصدق ، لانها عب الرسالة ، ومحض منها ، ومخبأ من مخابئها ، وارادة مكنونة في ضميرها ، وزرد متين في دروعها ، ومجال حريز الصيانة للامة من تلاعب الاهواء في وحدتها ومصيرها ـ انها الخلافة الصحيحة لجده الذي لن تفرغ ساحات الصراع من التزود من مضامين رسالته الحية بوجود الانسان ، ووجود الامة للانسان .

هل يكون استعداد الحسين للنزول الى ساحة الصراع نزولا عسكريا مجهزا بسيوف ورماح يقصف بها سيوفا ورماحا يقابله بها خليفة معاوية وابنه يزيد ؟ لم يظهر ان الحسين قد تجهّز بمثل هذا التجهيز ، اما الذي بدأ فهو من الصنف الاخر من المعدات التي لن يحرز الحسين النصر الا بها ، والتي لم يطمح يزيد الى الحصول على اي نوع من انواعها ـ اما حظ يزيد منها ، فكونه قد امتشق سيفا من الذل يضرب به عنق الحسين ، فتناول الحسين حسامه الاغر ، ودافع به : ليس عن عنقه الاعزل ، بل عن عنقه المسوّر بالامامة ، وعن صدر الامة المدرّعة برسالة جده ، وطهر امه ، وفقار ابيه ، ونصاعة اخيه في الساحة البيضاء . . . ماعدا ذلك فان يزيد قد تضاءل جدا امام عين الحسين ، واصبح طيفا يتراءى في باله ، ممزوجا مزجا مركبا بمعاوية ابيه ، وعثمان ، وعمر ، وابي بكر ، وكلهم من الحزمة التي يراهم فيها الحسين ، يشدون حبالها على خصر الامة وعنقها مع عمرو بن العاص ، وبشير بن النعمان ، وابي موسى الاشعري ، وزياد ابن ابيه او اخي اخيه ، ومروان بن الحكم ، وعبيد الله بن زياد ، وهذا الاخير الوالي المعزول ابن عتبة السفياني . . .

فعلا ـ لقد استحكمت حلقات المعاناة ، وها ان الحسين يتخذ القرار في تفجيرها ثوره تقتات منها الامة زادا ينعشها ويحييها في غدها الصاعد . سيقدم ـ كما وعد ابن عتبة ـ على مبايعة تبهر عينيه ، الا فليكن لنا ان نشاهد الحسين كيف هو عزمه في المبايعة !!!



المبـايعـة

حتى ولو صح الافتراض بان يزيد يفوق اباه معاوية : مقدرة ، وحنكة ، ودهاء ـ فلا يمكن الحسين ان يقدم له اي نوع من مبايعة فيها قبول او رضوخ ، فمعاوية بالذات ـ بعد ان توصل الحسين الى تعيين ثقله في الميزان ـ وجده لهوة محنّكة بصواني الدنيا ، لايهتم بتزيينها وتقديمها على المائدة الكبرى التي تتجمع حولها الامة تتناول منها ريها وشبعها ، بل يحصر همه في جعلها حكرا في مقاصيره ، يسكر منها مجدا ، وسؤددا ، وتلاعبا بمقدرات الناس ، ويبذل قصارى جهده في تسييجها بالظلم المتداهي ، والاستبداد المتباهي ، حتى تبقى له في الملكية التي تتعبأ بالجور والاستبداد ـ من هنا كان الفسق عند يزيد لونا له في الارث عن ابيه ، وتلوينا له في التصنيف الممتاز وهو يتلهى بالبيزان والفهود ، وترقيص القرود على اوتار العود ، والتفنن بكل انواع المجون ، ليكون له ـ بالتالي ـ تفنّن قردي وفهدي الاظافر ، يأمر بانشابها في عنق من لايبايعه على كرسي الحكم .

ليس الحسين الان ـ وهو الغارق في نفسية متملية من معاناتها الناضجة بالفهم ، والعمق ، وروز الحقائق ـ الا الرافض كل انواع المبايعات ـ اكان المبايع له : يزيد الفاسق ، ام ابوه معاوية المحنّك بحلاوة الملك ـ ان الحسين الان هو المنتفض على كل الخط الذي رسمه عمر بن الخطاب ، لانه الخط الذي لعب فيه ـ على هواه ـ لعبا زريا بمصلحة الامة ، ورماها في فوهة المجهول.صحيح ان الحسين تحول ـ في فهمه وادراكه ـ الى اعتبار كل خطأ طريقا الى صواب ، او بالاحرى ، الى تصويب ـ ولكن ذلك لايعني ان يحترم الخطأ ، ويلثم يده البيضاء ـ لهذا فانه الان لايقدر ان يغفر لابن الخطاب خطوة زل بها عن حقيقة النهج ، ولايقدر ـ في

الوقت ذاته - الا اعتبار يزيد قردا مسمّى « بابي قيس » ، وهو - فعلا - اسم قرد ذكي وممتاز ، خلعه عليه استاذه يزيد ، وكان رفيقه في جميع حفلات مجونه - اما المهزلة المؤلمة التي يفرض على الحسين الان احتمالها تحصل تحت عينيه ، فهي في كونه مدعوا للرقص في الساحة ذاتها التي يرقص فيها « ابو قيس » الذي البسه يزيد حلة التهريج !

سيان - يقول الان الحسين في نفسه - اكان المناجز يزيد ، ام انه بهلوان اخر اسمه عمر - لانه اصبح يدرك ان ساحة الصراع تستدعي نزولا حاملا في يمينه سيفا تستفيد من نوعيته الامة ، بانه نوع لايقصف - وعندئذ فان الحسام هذا لايمكنه ان يحفظ اسم الذي ينزل الى مناجزته في الميدان - ان قيمة هذا الحسام هو انه صقيل وقائم بذاته ، ولادخل لاسم الخصم فيه ، سوى انه خصم قد استعجل هذا الحسام الى الخروج من غمده - وهذا هو كل دور يزيد وهو في الساحة يستدعي الحسين الى النزول اليها مبايعا ، والا فان عنقه هو المضروب !!

في كلا الحالين - بايع الحسين ام لم يبايع - فعنقه هو المضروب ! لقد توصل الحسين الى استيعاب هذه الحقيقة في وجوده الصريح - وهو وجود طالبي - امامي - انتسابي الى اهل البيت - وهو وجود مرئي بعين سفيانية يهيجها الانتساب الطالبي كما يهيج الثيران الاسبانية كل تلويح بقماشة حمراء - اما يزيد فهو المتلاعب الان بالتهديد ، كما تتلاعب القطط - وهي فصيلة من فصائل القرود او الفهود - بالفأرة التي تصطادها ، تمنيها بالهروب ، وتمنّيها . . . وتمنّيها وتمنّيها . . . حتى تقتلها من فرط التمني !!

من هنا ان الوالي الذي عزل لانه لم يكن سنورا يتقن اللعب بصيده ، جاء يعرض على الحسين مبايعة تنجيه من الوقوع في العطب ، وهو يصدّق ان الحسين نازل عند عرضه ، ومأخوذ بتبهرجه بيزيد ، لقد صدّق ابن عتبة ان الحسين مقدم على مبايعة تبهر عينيه - ولقد اعجب ايضا بتبرع الحسين بدمه من اجل الامة التي هي ضمن الصك الذي يملكه يزيد - اما غير ذلك فانه لم يلمح .

لم تكن المبايعة التي قصدها الحسين في حضرة الوالي - ابدا - ليزيد ، بل انها لجوهر الامامة التي هي له الان في شموها المطلق . انها للامة تقطف منها - في كل غد طالع عليها - مايعينها في البلوغ الكريم ، وما يثبّت اقدامها في الترقي الصامد بحقيقة الذات . ولقد تعهد ببذل دمه من اجل هذه الامة الكريمة التي تتحصن دائما باسم جده العظيم الذي وهبها كل ذاته ، في حين انها لاتتمجد الا وهي تنمهر بذكره .

لم يشد الحسين الان - في حضرة الوالي - عزمه على المبايعة تلك ، ممهورة ببذل الدم حين تقضي الحاجة ، بل انه التقرير الكبير الذي كان يصوغ بنوده منذ بدأ يعي حقيقته المرسومة في بال جده الاكبر ، وهي حقيقة ما استوعبها حتى ادرك انه مربوط بالالتزام . ان الامامة - في احاطتها الكاملة - هي التي كانت توسّع عليه المعاناة ، وتكيّفه بالصبر والتأني ، وتحضّره لكل مواجهة تجابهه بها الاحداث التي هي - بحد ذاتها - مجالات تعبر بها الحياة عن مقاييس زخمها في مجتمعات الانسان .

تلك هي مجالات الاحداث التي توقف الحسين طويلا في استيعابها والتملي في درسها ، وهي تنفث ريحها السموم في جو الامة التي استوعبها جده ، وابوه ، واخوه وتركوا زمامها الان عليه حتى يتعهدها بالامامة التي عبث بحبالها عمر بن الخطاب ولم يقبل الا ان يوصلها الى من يتابع العبث بها عبث الفاسقين !!!

اما الامة ، فهي التي يتم توجيهها لتعرف كيف تقرأ الاحداث التي نقشتها هي بخطواتها الممشيّة فوق الارض ، حتى يكون لها - من حروف القراءة تمييز بين نقش ونقش ، تتجنبه هزيلا مريضا ، وتتحفز لتقويمه ان رأته معوجا ، وترتاده ان تلمس فيه خطا الى صواب وجمال - تلك هي المهمة الكبيرة نقش خطوطها وقنواتها الصريحة جده الاعظم ، فقدمها للامة تقرأ بها تقويم خطواتها ، وتعيين حظوظها ، كلّما تنقلت بها الاعمار في باحات الحياة - وتلك هي المهمة الكبيرة ذاتها ، تناولها ابوه الاجلّ ، وقدّمها للامة تقرأ بها صيانة خطواتها وهي تحفرها فوق الرمال المعميّة بالسراب - وتلك هي المهمة الكبيرة ذاتها ، وتوسّلها اخوه الاحب ، وقدّمها للامة

تقرأ بها لململة حواشيها ، وهي تنزل في كل حقد وضيم يضللانها في كل ليل مدلهم ، يشتد فيه سطو الذئاب على نعاج بلا حراسة ـ اما المهمة الكبيرة ذاتها ، فهي التي تطوي كشحها عليه الان ، ليقدح لها ـ من قلبه ، وفكره ، وعزمه ـ شرارة تعلّم الامة كيف تبني سيرتها المجيدة في الحياة ، حتى تخلص عينيها من كل وطأة خبل ونعاس ترميها في غفوة الذل والاستكانة ، وتبعدها عن المحارم الشريفة والعزيزة التي تستهيم بها الحياة وهي تتمجّد ابيّة كريمة في حضن ربها العزيز الكريم .



الشـرارة

والشرارة ؟ انها من الاحتكاك ـ وهي لاتتعدى كونها قبسا يتهادى في تواصله حتى يصبح النار التي تدفأ بها ضلوع الارض ، وتمرع فيها براعم الزهر وافواج السنابل ، فالحياة ـ وهي ملقط من ملاقط الوجود ـ انما هي الشرارة الخالدة التي ينبض بها هذا الكون — واذ تخبو ، فالوجود كله في سبات كالرماد ، ينخطف منه اللون ، والنخوة ، والدم الذي يمور ؟

ماأروع الحسين في جهازه النفسي المتين ، يتلقط بكل حدث من الاحداث التي دارت بها ايامه ، ليصوغ من احتكاكها الشرارة الأصلية التي تدفأ بها ضلوع الامة وهي تمشي دروبها في ليالي الصقـيع ـ لقد تبين له ـ وهو يختبر وطأة الايام في تنقلها عبر الفصول ، وعبر الليالي الطويلة والقصيرة ، وعبر الايام تحرقها الشموس ، او تضنيها مقاطع الغيم ـ ان الشبه قريب جدا بين حياة الفرد وحياة الامة . فالفرد الذي يحتاج قميصا من صوف في ليل الزمهرير لابد له ان يتعرّى منه في اليوم الهجير ـ وكذلك الامة بالذات : فالحرير الذي تنام فيه وقت النعيم ، هو الذي لايليق لها ويضنيها يوم يشتد عليها البؤس او يستبد الضيم ـ والقول هذا يعني ان نوعا واحدا من اللباس لايسد حاجة الفرد مع تقلب الفصول من شمس تحرق الى صقيع يلسع ، الى اعتدال يتبـرأ من المتناقضين ويتطلب حياكة ألبق وانسب ـ وكذلك الامة بالذات ـ وهي الفرد الكبير المتقمص ذاته حتى لايموت ـ فان نوعا واحدا من تعهد العيش لايسد حاجتها في البقاء الطويل الذي هو اجتياح ينهب الزمان ليخلد فيه اطول فاطول ـ ان الامة الانسان الاجتماعي ـ هي بحاجة ايضا الى البسة منوعة الحياكة ، فتلبس كل واحد منها ساعة تشعر انها بحاجة اليه ، وتستبدله بسواه في اية لحظة اخرى يطيب لها ذلك .

لقد دل الاختبار الحسين ان الامة تستأنس كثيرا بكل واحد من ابنائها يقدم لها انوالا جديدة تتوسع الحياكة فيها ويتنوع جدل قمصانها ـ انها الامة التي ستغتني بما تلبس ـ وستترفّه بما طرّزوه لها ـ وستعرف ان في نفسها ، وحسها ، ووعيها ، زرعا تأخذ منه ـ لكل ساعة من عمرها ـ حصادا جديدا ينتقيه لها جوعها او شبعها ـ وستعرف ان كل تخمة تقع فيها تعلمها كيف أنّ الرجوع الى جوع يكون ادسم من السمنة ، واكثر اعتدالا من الجشع والنهم .

ولقد مر عليه الاختبار ان جده العظيم قدم النول الكبير وجهّزه بالخيطان الصحيحة ، وها هي الامة تأخذ من هذا النول قمصانها ـ ولقد مر عليه الاختبار ان اباه النزيه ملأ الدلاء بالالوان البريئة حتى تستسيغ الامة ساعة يفتقر ذوقها الى اللون ـ ان تصبغ القميص الذي ترتديه بلون الصدق ، او بلون العدل ، او بلون النزاهة المستقيمة بنظافة الكف والحق ـ ولقد مر عليه الاختبار ان اخاه المعبر عن دور الامامة ، تناول القمصان ذاتها ـ وقد وسخها الاستعمال ولطّخها بغبار البغض ، والزيغ ، والتعدي ، وطمع الاستئثار بانانية الحكم والثراء المزوّر ـ فغسلها بزوفى السماح ، ودهنها بالصلح الابيض ، فاذا بكل كف نظيفة تصافح اختها بالمحبة والوئام .

اللهم ـ يُسِرّ الحسين الى ذاته : شدّد عزمي حتى أُقدّم للامة التي هي امة رسولك وحبيبك محمد ـ مايصلح امرها حتى توسّع من خطواتها فوق دروب الحياة ـ اجعلني اشدد حقويها ، وامنحني قوة الوثب اعلمها ـ لا بالحرف وتمتمة الشفتين ـ بل بالقدوة الحية ـ ان العنفوان في الحياة هو الذي يقود الى المجد ، وان التسكع والاستكانة لايصلحان لاكثر من ساعة ، واذ تمر بلا جدوى ـ فان الذل وحده يصبح الخلف ، وهو غلاف الموت ـ وهو الرماد المخطوف اللون والنخوة والدم ـ وهو الذي يتطلب العنفوان في النجدة العزيزة التي هي شرارة ترفض الذل وتحرقه وهي تحترق معه في غمرة الإباء والعنفون .

ها هي الشرارة التي ولدتها في نفس الحسين معاناة الحسين طيلة ست وخمسين سنة من عمره الهاجع في ضمير الامامة ، انه الآن تعبير عن وثبة جديدة سيثبها بعد

عدة ايام ما وثب مثلها بطل من ابطال الملاحم ـ انها الشرارة التي سيقدمها للامة تتطلبها كل مرة تقع في حفرة من حفر الذل ، فتثب معها الى خلود لها تتذكر به فتاها الحسين !!!



روعة التصميم

كاني ـ وانا في غمرة من الاستغراق مع الحسين ـ استمع الى حديث قد دار بينه وبين اخيه محمد بن الحنفية ، بعد شهرين او ثلاثة من خروج الحسين من المدينة الى مكة ـ لست اكيدا من ضبط الوقت ـ كنت اتحسس الحسين رزينا يتنقل بخطوات ثابتة في صحن الغرفة التي جعلها ديوانا خاصا لاستقبال الاخصاء من الوافدين عليه للتشاور والتداول في الامور المرتبطة بالاحداث ، وكلها جديد متعلق به وبالخلافة التي كان يحلم بها ايضا عبدالله بن الزبير الملتجىء مثله الى مكة ،هربا من الضغوط التي كان يفرضها يزيد ، خليفة معاوية ، وهو فوق ارض الشام . لقد كان يزيد سيد الموقف بالنسبة للقوة التي خصه بها الخط السياسي الاموي المحرز حتى الآن نصراً فائقا فوق الساحة .

من الطريف ان هوىً حلواً ربطني ببواب الحسين ـ اسعد الهجري ـ منذ تلك الليلة التي تمت فيها المقابلة بين الحسين ووالي المدينة الوليد بن عتبة ـ وها انا اهفو الى هذا الصديق ـ كاني في رابطة وثقى معه منذ اكثر من وقت معهود ـ وانا اراه يفتح الباب على الحسين بدون اية دالة من استئذان وهو يقول :

أسعد ـ اخوك محمد ياسيدي ـ سأدخله عليك ـ ولكني احببت ان اطمئن بالك اولا ، الى ان العبدين ـ عبد الله بن مسمع الهمذاني وعبد الله بن وال ـ قد امنت وصولهما الى الخط صوب الكوفة ، فاستلما الطريق وذهبا بامان .

الحسين ـ اني واثق من عزمك وحرصك يااسعد ، ولكني الآن انتدبك الى كثير من متابعة اليقظة والحيطة ، فالايام صعبة ياصديقي ، واننا مقدمون على سفر صعب ـ بين ليلة وليلة نرحل ـ ان

الكوفة بانتظارنا ايها الهجري المسكين ـ واية هجرة ياصاحبي لاتكون مثلك ومثلي ، مسكينة ! ولكني اراك متينا في رفقة الحق ، وصلبا في تحمل السهاد ـ فاذهب الآن الى فراشك ، والبث حاضرا لملاقاة الصعاب .

وانسحب الهجري ، وفي عينيه يسرح ايمان صدوق ، وعزم شفوق ، وبهجة رؤوم ، وشيءٌ آخر لايريد هو ان يفتش عن اي تفسير له ـ اما محمد بن الحنفية فلقد دخل واخذه اخوه الحسين بين ذراعيه بكثير من الشوق العفيف ، ثم اجلسه قبالته وهو يطرح عليه السؤال :

الحسين ـ قبل ان اسألك عن اي جديد عندك ـ هل زرت المقامات الثلاثة قبل ان تأتي الي ياأخي محمد ؟

محمد ـ طب نفسا يا ابا عبد الله ـ لقد زرت المقام الشريف ، وركعت ساعة طويلة في المسجد في حضرة جدنا العظيم ـ وتوّاً بعد ذلك أمَّيتُ البقيع ، وبعد ساعة من الزيارة للمرقدين الحبيبين ، ركبت الطريق ووفدت اليك .

الحسين ـ ماأطيبك فعلت ياابن كل المطيبين ـ ويا للصدى الكبير ضمن حيطان المسجد ـ وياللقبرين الناضحين في البقيع بطهر المثوى !!! والآن يامحمد ـ هات ماعندك .

محمد ـ لايزال اللغط مشوشا في كل ارجاء المدينة ، حول عزل الوالي ابن عتبة وابداله بمروان بن الحكم ـ هنالك اسئلة ثلاثة طرحها الوالي قبل ان يعزل ، وكان هو يعجز عن الاجابة عليها : لماذا وعدني الحسين بمبايعة يزيد ثم انسل من المدينة ولم يفعل ؟ ولماذا التجأ الى مكة وليس الى سواها ؟ وهل يرتّب الحسين مع عبد الله بن الزبير تضامنا في طرح مبايعة للحسين يعززانها بثورة تخلع يزيد من الخلافة ؟

الحسين ـ والوالي الجديد ـ مروان بن الحكم ـ الم يجب على الاسئلة المطروحة ؟

محمد ـ انه الاذكى على مايبدو ـ وان لم يكن الا الاكذب والاروغ ـ لقد قال امام بطانته : لو ان الوليد بن عتبة اصاخ جيدا الى مانصحته به ـ ولقد استشارني ـ لكان وفّر عنا وعن نفسه اصغاء الى اسئلة تشغل بالنا بالجواب عليها ـ ثم استطرد وقال : اول جواب عندي ، ان الخليفة يزيد قد احسن التصرف بعزل الوالي الاكتع والأعور ـ اما مكة فانها لن تتمكن طويلاً من حماية المحترمين فيها ـ اما المبايعة للحسين ، فان الحسين ذاته لايؤمن بها تقوم بها القبائل ـ وتركها لنا نسيرها ونعزز قوافلها ـ اذا كانت الامامة لا تكفيه فماذا يبقى علينا ان نفعل له ؟ هل ندمج بردى بدجلة والفرات ونهبه اياها حتى يرتوي ؟ فرصة واحدة لاتزال مهيأة امام الحسين : مبايعة يقدمها ليزيد ، او عنق مضروب !!!

الحسين ـ صدقت ياأخي محمد في وصفك الرجل ـ صحيح انه ذكي ، ولكن في رنة صوته ذئباً يعوي وثعلبا يروغ ـ لقد اصاب في تحديده المبايعات التي لايمكن ان نعود اليها بعد ان رفضها جدنا نبرة في ايقاظ القبلية بانماطها العتيقة البالية ، واعتبر الامامة ـ في مسدّها ـ تحضيرا مثقفاً بالرسالة ، ومطيبا ومعففا بها ، في سبيل وحدة الامة ورعايتها في طريق بلوغها وخلودها ـ ما اطيب اخانا الحسن يضم ـ فعلا ـ دجلة والفرات الى بردى في صلحه الابيض ـ لاليروينا وحدنا ، ولا ليروي معاوية ويزيد ومروان ـ بل ليسد عطش الارض كلها في وحدة الري ، ومن حدود النيل الى رحاب الغوطة ، من اجل امة واحدة مجموعة العروبة في حضن جدنا العظيم محمد .

صدق وكذب مروان ـ صدق في توحيد المراوي ، وكذب في تعطيشنا وتعطيش مجموع الامة منها ـ اما ان يهددنا بقطع الاعناق ، فلسوف امد عنقي ليقطع حتى يكون من وريدي منهل تستقي منه الامة ماء بطيبة الماء الذي حفره اجدادنا في بئر زمزم .

محمد ـ وما تقصد يااخي الحسين ـ انا لااحب ان ارضخ لتهديد يزيد او لأي تهديد آخر يرهبنا به بنو حرب ـ انا اعرف ان الامة بحاجة الينا يااباعبد الله ـ وانا اريد ان اشدد عزمك على طرح المبايعة لك ـ فلتكن المبايعة ردة شاءها الخصم ـ فلنعتمدها ايضا سلاحا عليه ، الى ان يقيض الله لنا وقتا يمكننا من التخلص من اوزار الماضي التي لاتزال الآن تفعل ! انت لاتريد ان تلجأ الى اليمن حيث يمكننا ان نلتقط الانفاس ، وننظم قوانا للمقاومة ـ ولكن فلنحاول على الاقل ـ ان نحرّك اعصاب الجزيره ، واعصاب الكوفة والبصرة ـ ان لنا رصيدا قويا عند كل هذه القبائل ، لابد ان يلبينا للتخلص من نير يزيد ، ونير مروان ، ونير بني حرب !!!

ان الاسئلة التي طرحها الوالي المخلوع ، لاتزال بحاجة الى جواب صريح ـ الا يكون عليك ، لا على مروان بن الحكم ، ان تجيب عليها ؟

الحسين ـ اصغ الي يامحمد ـ عندي وحدي الجواب عليها ، ولن تقتنع بها ان لم تفهمني الفهم الصحيح ـ افتح اذنيك الكبيرتين والعميقتين يامحمد ، فالموضوع كبير وعميق اذا اردت ان تصغي : انا ماموّهت على الوالي بالمبايعة ، بل قصدت ان الهي اذنيه بحروفها ليظن انها ليزيد ، في حين انها ـ في قصدي الوسيع ـ للامة التي تجمعني اليها قدسية الامامة ـ اما الهاء

الوالي ، فحتى اتمكن من ترك المدينة الى حيث يتسنى لي كسب وقت اتمكن به من تنفيذ ماصممت عليه ـ اما تفضيلي مكة على اي مكان آخر في الوقت الحاضر ، فلانها حرم لايجوز بسهولة انتهاكه واقتحامه لملاحقة المحترمين فيه ـ وبذلك يتسنى لي تحضير عدتي لتنفيذ ما انا مقدم عليه .

محمد — ـ عظيم ياابا عبد الله ـ فهل لك ان تجعلني مرتاحا وتطلعني على ماانت الآن مقدم عليه ؟

الحسين — ـ لاشك انك تقصد المبايعة ـ واني بين يديك في تتميم القصد؛
انا لست شريك عبد الله بن الزبير في تنظيم المبايعة ـ فهو يزورني ويشد ازري فيها ـ لا لانجح بها ضد يزيد ، بل حتى اتمادى في تفسيخ الامة وتاليبها على يزيد ، فانهكه وينهكني ، ويبقى هو مرتاحا حتى يتم له ظهور على مُتْعَبَين مُضْعَفَين ، او على واحد منهما يبقى يرقص على قبر الآخر وهو منهك هزيـل؛
يظن عبد الله بن الزبير ان الخلافة قرص من الحلوى عجنته له امه ليأكله اذ ينطُّ من السرير . . .

قال الحسين ذلك وهو بحالة من الاستغراق بدا به كانه ناس انه يشرح لاخيه وضعاً متعلقا بالاحداث الجارية ، وهي تستدعيه لان يقدم مخرجا يفك الازمة ويوجهها صوب الحيطة والاحتراز ـ اما اخوه ابن الحنفية فانه لبث يراقبه وهو تحت هذه الموجة من التأثير ، دون ان يدري اين هو الآن في سياحته التي يعبر عنها بعينيه النائمتين بين تضييقهما وتفتيحهما على ما لايبدو انه ملموح ومنظور . . . حركة خفيفة أبداها ، استردت الحسين صوبه فاستأنف الحديث :

الحسين — ـ انك تهتم معي بالمبايعة اليس كذلك ؟ لقد شردت قليلا وانا أصغي الى ابينا الامام علي ـ لقد فسّر كثيرا امامي موضوع المبايعات ـ لقد عرضوها عليه في اللحظات الكثيرة التي فوجىء

بها مع خلافة ابي بكر ، ثم ابن الخطاب وابن عفان ـ فكان يرفض قبولها تتحكم بمصير الامة وبتقرير مصيره وهو وحده الخليفة الامام ـ ولكنه لم يجد منها مناصا بعد خمس وعشرين سنة ابعدته عن حقيقته في تجهيز الامة وتخليصها من النير الاسود فاستسلم اليها في ساعة غفلة ، فاوصلته الى الحكم ، وكاني بها هي التي عاقبته واسقطته تحت خنجر ابن ملجم !!!

ليس في يد القبلية سيف يدافع عن القبيلة ، وتخطىء القبلية انْ تمتشق سيفا تدافع به عن القبيلة ـ لاتعيش مطلقا قبيلة ما لم تئد بيديها قبليتها الذميمة ـ وتلك هي المبايعة تمشي بها القبائل الى إحياءِ قبلياتها المؤودة تحت اقدام جدنا العظيم .

محمد ـ اتسمح لي ان استوقفك قليلا ياابا عبد الله ؟ ها اننا نعمد الى المبايعة وانت الآن تعمد الى ذمها ـ هل هذا هو سبيلنا في الوقت الحرج الى يزيد واعقاب يزيد ؟

الحسين ـ تصبّر قليلا يامحمد ـ فاني متابع موضوعي اليك ـ فلتكن المبايعة التي تريد . . . منذ عشر سنين وانا أُرَاجَع بها ـ لقد سمح اخي الامام الحسن لمعاوية ـ وان في ظروف قاسية فرضت عليه الحل ـ ان يكمل عهده في الحكم . . . ولكن بعض القبائل بقوا رافضين ، وعرضوا علي القبول بمبايعة ترفض معاوية وتشتد الي ، فارجأتهم الى مابعد انقضاء المدة ـ مدة الميثاق المعقود في وثيقة الصلح ، وهي تنص على ان الخلافة تعود الينا عبر الحسن ، اثر وصول الموت الى معاوية ، اي انني لم اقبل بخيانة ميثاق قطعه اخي على نفسه وهو متصف بالامامة ـ وبقي الخط القبائلي ذاته على اتصال بي ـ ولكنه بعد خلو الساحة وانتقال العهد الي بعد غياب الحسن ، اصبحنا في حل من الميثاق الذي خانه وتنكر له معاوية ، ونقل الخلافة ملكا

موروثا عنه لابنه يزيد ـ هل هذا ماتريدني اوصلك اليه ؟

محمد ـ بالضبط ـ انه موضوعنا الآن ـ الا تراني كيف اصغي اليك ؟

الحسين ـ اسمع ـ هل تدري اين هو الآن اخونا وابن عمنا مسلم بن عقيل ؟ لقد اوفدته منذ مدة الى البصرة والكوفة لدرس اوضاع المبايعين المناصرين في ارض العراق ـ الا ترى معي اني جئت مكة لاكسب وقتا ادرس فيه كيفية تنظيم وتنفيذ الخطة المرسومة ؟

محمد ـ عظيم انت ياابا عبد الله ـ اكمل .

هز الحسين برأسه وهو يسمع ارتياح اخيه محمد من متابعة السرد والوقوف على مسيرة التصميم ، مما جعله ينهض عن مقعده ويتمشى قليلا في صحن الغرفة ـ وعلى مهل عاد فجلس قربه ليتابع سرد الحدث ، ولكن بصوت خافت كانه يعلن سرا يخشى ان يفلت من حيطان الغرفة الى اذن جاسوس :

الحسين ـ هل تعرف اين كان اسعد الهجري قبل ان فتح لك الباب علي في هذا الهزيع الاخير من هذا الليل ؟ لقد رافق عبد الله بن مسمع الهمذاني وعبد الله بن وال ، الى خارج مكة ، وسلمهما طريق القوافل صوب العراق ـ لقد حمل الي الرجلان بريدا سريا من سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجبة ، ورفاعة بن شداد البجلي ، وحبيب بن مظاهر ، وكلهم ـ كما يبدو ـ موالون ، ولقد اصبح في جعبتي منهم اكثر من عشرة الاف كتاب تأييد ـ ولقد وجهت مع الرجلين الرسولين الليلة هذه كتابا يسلمان نسخة عنه لكل رئيس من رؤساء الاخماس في البصرة ـ ساقرأ عليك نصّه ـ وهاك اسماء هؤلاء الزعماء الذين في ايديهم اغلبية قبائل البصرة : مالك بن مسمع البكري ، الاحنف بن قيس ، يزيد بن مسعود الازدي ، المنذر بن جارود العبدي ، ومسعود بن عمر الازدي ـ

ونهض الحسين متوجها الى مقعد في الزاوية الغربية من المكان ـ رفعه بيمينه وتناول صندوقا من تحته ، حمله وتقدم من اخيه محمد ـ فتحه وهو يقول :

الحسين ـ هنا كتب التأييد من زعماء القبائل ـ لقد قرأتها كلها وأنشأت دراسة عن كل قبيلة تتمثل فيها ، وسلمت الدراسات هذه لابن عمّنا مسلم بن عقيل ـ هذا كل مانفذته حتى هذه الليلة ياأخي محمد ـ فهل يكون كله من هواك ؟ وهل رأيت فيه جوابا على الاسئلة الثلاث التي بقيت احجية في بال الوليد بن عتبة ؟ في حين قدر على حلها الوالي الجديد مروان بن الحكم ؟
ـ هل هذا كل شيء ؟
ـ وماذا تريد بعد ؟

محمد ـ والمؤن ـ والعتاد ـ والقيادات ـ والتخطيط ـ وساعات التنفيذ
ـ هل تم تدبير كل ذلك ؟

الحسين ـ لكل قبيلة اسلوبها ومرانها ، او فلنقل : نوع فوضاها !!! ألا يكفي ذلك في ادارة الحكم ، وتجهيز الميدان ، وتقرير المصير !!! ستهب الامة كلها في البصرة بقيادة الاحنف بن قيس ـ الا تعرف الاحنف بن قيس كيف ورط بني حنظلة وبني سعد بالقتال ضد ابينا علي في معركة يوم الجمل ؟!!! انه ذاته المبايع اليوم ، ليس اكراما لنا ، بل اكراما ليزيد بن مسعود !!! وسيلهب الساحات بالعزم الاكيد ـ غدا سأرحل صوب البصرة ـ ان القوم ينتظرون هناك وصول الامام الحسين ـ الا ترى ياأخي ان تنفيذ الامور اسهل مما تتصور ؟!!!

محمد ـ لم افهم ياأباعبد الله ـ انك تعميني بالاحجيات ـ فبينا اراك من جهة أُولى تعتمد المبايعة وتركز عليها ، وقد قطعت بها شوطا لابأس به صوب الظهور على الخصم الفاسق والحقود ـ اراك من جهة ثانية تقابلها بنوع من الاستخفاف والتحقير ،

كانك لاتريدها تمشي بين يديك !!! بالله عليك ، اى شيء تقصد؟ واي معنى ترمي اليه ؟

الحسين ـ محمد ـ هل يجوز لنا بعد ان غضنا خمسين سنة في خضم من الاحداث ـ ونحن اولياء جدنا النبي ، وفي اعيننا ضوء من نوره ، وقبس من هديه ، وفطنة من ذكائه وعزم من مضائه ـ ان لانعرف كيف نقرأ حروف الكلمة ، وان نضيع في تفسير الرموز ونتيه حيالها في الاوهام !!! اني اسألك : هل انت منتظر من مبايعات الكوفة والبصرة تلبية ترصّ الصفوف وتقتحم الميدان ؟ ماأسرعني ياأخي محمد اقول لك : قد ذلّلت الخمسون سنة من عمرنا ـ لا البصرة والكوفة وحدهما ، بل ذلّلت الامة جمعاء ، ابتداء من غوطة الشام ، وانتهاء الى وادي النيل ! عندما ذلّت الامة اصابنا نحن ، اهل البيت ، وخاصة الرسول في عهدة الامامة ، ذل اكبر ، ولن يحررنا منه الا العمل الاكبر ، والنهج الاكبر . ولن اصبر عليك حتى تستفهمني اكثر ـ بل اسألك : مَنْ يمسك في هذه اللحظة بالذات بخناق العراق ؟ ـ انه عبيد الله بن زياد ـ لقد كان مكتفياً بامرة البصرة على ايام معاوية ، وها ان يزيد يرضيه بتوسيع ولايته على كل انحاء الكوفة ـ لماذا ـ ؟ لانه اتقن الفتك عن ابيه زياد ، واجاد في بث الارهاب عن عمه معاوية ، وها هو الان افسق من اميره زياد ، واشرس من قرده « ابي قيس » ـ ان عبيد الله هذا ياأخي محمد ـ يعرف كم كمأة قاءت الارض في البصرة ، وكم بيضة قاقت بها دجاجات الحي في الكوفة ، وكم شاة ثغت على حملها المشوي فوق مائدة الامير !!! ان ارضا واليها عبيد الله ابن زياد ، او مروان بن الحكم ، او عمرو « الاشدق » ، وسائسها يزيد بن معاوية ، لارض تنسى انها سواد

مخصاب !!! فهل يكون لها من نعمة التعقيم ان تخصب مبايعة
تمشي مع الصبح الى صباح ؟!!!

ماتوقف الحسين الا عندما لمح دمعتين تنزلان بصمت على خدي اخيه وهو غائب بذهول ـ فهزه من كتفيه وهو يقول :

الحسين ـ منذ مدة طويلة اوقفنا عيوننا عن البكاء ، وتركنا الحزن الى استثمار اخر يهيئنا الى انتاج ـ الا تتأثر بي ياأخي وتشرب دمعك ؟

محمد ـ صدقت ان البكاء للاطفال ـ ولكن ـ قبل ان اطلب اليك ان تتمادى بعد ـ احب ان اذكرك بانك وعدتني بنص الكتاب الذي وجّهته الى رؤساء الاخماس في البصرة ـ اظنه في حوزتك .

ـ لقد تهت عنه ـ هاكه :

« ان الله اصطفى محمدا على خلقه ، واكرمه بنبوته ، واختاره لرسالته ، ثم قبضه الله اليه ، وقد نصح لعباده ، وابلغ ماارسل له ، وكنّا اهله ، واولياءه وأوصيائه ، وورثته ، واحق الناس بمقامه في الناس ، فاستأثر علينا قومنا ، فافضينا كراهية لفرقة ، ومحبة للعافية ، ونحن نعلم انا احق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولّوه ـ وقد بعثت برسولي اليكم بهذا الكتاب ، وانا ادعوكم الى كتاب الله وسنّة نبيه ، فان السنة قد اميتت ، وان البدعة قد احييت ـ فان تجيبوا دعوتي وتطيعوا امري اهدكم سبل الرشاد »

هذا هو نص الكتاب الى رؤساء الاخماس فماذا ترى فيه ؟

محمد ـ ارى انك قصدت تفتيح عيونهم لرؤية الحق والتزود منه حتى تتمكن انت من اهدائهم الى سبل الرشاد .

الحسين ـ صحيح هذا ـ انه قصدي ـ فانا لااطلبهم الى مبايعة اكثر مما

استدعيهم الى وعي وادراك . . . اجل ، انا لااقدر ، ولايمكنني ان اكون الا في المركز الذي رسمه لي جدي ، ان الامامة وحدها هي قدري المحترم ، وهي مرتبطة بي في ارتباطي بهذه الامة التي هي جدي وكل معنى وجودي في هذا الكون ـ ولقد اصبحت اشعراني اشتقاق منها لايقبل الانفصام ـ اما فروضها علي فان اقوم بكل مايتعهدها في اتمام ذاتها ، وفي كل ماأراه من حاجاتها في حقيقة البلوغ ـ ماعدا ذلك فليس لي من معنى في وجودي الا اذا اردت تنعما في عيش اوسعه علي من بحبوحة الى بحبوحة ، واتذوق بها طعم الدنيا في لذاذاتها السخيفة والفارغة من حدود المعنى وحدود القيم . اني ـ وهذا هو اقتناعي البليغ والصميم ـ امام هذه الأمـة كما هو جدي نبيها ورسولها ـ وكلانا الان مشتق من صدر السمو الذي هو مصدر العصمة ـ فاذا كان هو الحق من اجل امة هي الحق ـ فعلى الامة بالذات ان يتوسع بها الايمان والرشد حتى تتمكن هي من رؤية ذاتها فينا .

انطلاقا من هذه القناعات ، يكون عليّ ان ارشد الامة واعطيها كل ماتقدر هي ان تأخذ ، دون ان احصر الاخذ بساعة معيّنة من ساعات العمر ـ فكما ان نوع العطاء لايكون الا مبدأ من المبادىء ، تتناوله الامة بعقلها وادراكها ـ فانها ستأخذ منه حاجتها عندما يبلغ عقلها وادراكها قوة اللمح ومتعة التلمس ـ الم يقدم جدنا العظيم رسالته العظيمة التي ستغرف الامة منها حاجاتها اليوم ، وغدا ، وبعد مطلق غد ـ في ربط الغرف بتطور الفهم والادراك وبروز الحاجة ؟

على ضوء قولي هذا ارجو ياأخي محمد ان تفهم عليّ ـ فانا ما توصلت الى اي قرار الا بعد ان زرعت عمري كله في درس

الاحداث التي مرّت علينا ـ ولقد توصلت ، على ضوء ماتكشّف لي ، او بالاحرى ، على ضوء ما وهبني جَدِّي من عزم كشاف عن عمق الحقائق ـ الى الادراك ان الامة كلها هي خزانة العزم ، وخزانة الادراك ، وانه علينا ان ننبه فيها طاقات الروح والوعي والادراك ، حتى تأخذ هي ـ من تنبهها ـ ماتحتاجه وهي تمشي دروبها الصاعدة ـ ولقد توصلت الى نوع من الشفقة على كل الذين راحوا يتسلمون ازمّة امرها ـ فرأيتهم مأخوذين بكل خديعة ضللتهم الدنيا بها عن ربط امور الامة بسياساتها السليمة ، وما كان ذلك خطأهم وحدهم في خفّة رشدهم ، اكثر مما كان في عدم قابلية الامة على الاخذ ، سدّا لحاجاتها لأنَّ القيمين لم يتمكنوا من تنشيط قدراتها ، وتنبيه طاقاتها ، لانهم القيمون المتطفلون .

من هنا ان الشفقة التي تولّدت فيّ ، جعلتني اتجاوز كل هؤلاء الذين ابعدونا عن حقيقة الحكم ، وحقيقة التعهد الموكول الينا القيام به ، عن طريق الامامة المرسومة في ذهن جدي ـ الى اعتبارهم مروا مرورا خفيفا على الساحة التي ماقصدوا الا ان يلعبوا فيها ـ وقصدت ان ابريء عيني وبالي منهم ، وان اقدم للامة ماأراها بحاجة اليه حتى تعزز خطواتها من مسيرة اليوم الى مسيرة الغد ـ اما الحاجة التي رأيتها الان ماسة في حياة الامة ووجودها الكبير ، والتي لايمكنها ان تعيش الا بها ، فهي ان تكتشف دائما وابدا ما هو مزروع في روعة طويتها من اباء يتدرج نوعه من سلّم الى سلّم ، حتى يتصف اخيرا بذلك الذي يسمى عنفوانا تتسلح به العواصف والاعاصير كانه وحده هو الثورة التي لاتقبل الذل الا لتبيده من امامها ، ولتمحو اسمه من حقيقة الانسان ـ لقد تثبت لي ان المجتمع الذي

يلفظه الذل هو الواصل ـ بلا رحمة ـ الى رغوة الغثيان ـ لانه
وحده هو بلادة في الفهم والروح ، وغثيان لاينتج الا رغوة
السم !!!

توصل الحسين الى هذا الفاصل من حديثه وسكت كأنّ اعياء هبط على عينيه فاغمضهما على عزم في روحه بقيت تنشط به كل سمات كانت تخفق بين طيات جبينه ، وتنساق قرمزية فوق وجنتيه وعلى خطوط شفتيه ، ولكنه بعد دقيقتين على الاكثر فتح عينيه على اخيه محمد كانه يستفهم ، فاحتواه اخوه بذراعيه وهو يقول :

محمد ـ اني ماخوذ بما تقول ايها الامام ـ بدأت احسك ثورة في دمي ، ولكنها ثورة تفعل بك ـ لقد بسطت شطرا من حديثك هذا ـ فهل انت تعبت عن الشطر الاخر ؟

ـ حتى التعب ياأخي محمد ، فهو غير مسموح له ان يكسرني
ـ ما اطيبك دائما تصغي ، قلت ـ ان الامة تأخذ حاجتها بعد عملية التنبيه ـ وها اني اقوم بالمهمة ؛ سأبدأ بيزيد فاعلمه ان خلافة جدي ليست له اصلا ولا لاي اخر يخسر الفهم والتصميم !!! واني ـ ان لم استردها بضربة السيف ، فبمكنتي ان احررها بخفقة الرفض ، وسيحصل ذلك تحت عيني الامة ، تعليما لها ان العنفوان الصحيح هو في النفوس الابية ، وانه وحده المتلقط بروعة التصميم ـ وعندئذ تفتش عني الامة فتجدني في دائرة التصميم ـ انا لاابشر الامة بالذل والاستكانة ـ اما القدوة الحية فستكون البادرة الاولى اقوم بها وانا في روعة الرفض ـ فاذا كان للرفض ـ بعد ـ ان يعلم يزيد قراءة الحق ـ فانه المتنحي امامي عن ولاية ليست له ـ اما ان لايرضى الا بعنقي ثمنا لمجده الاسود ، فعندئذ تعرف الامة ان من دمي الفدية التي هي الثروة المكتنزة ، وهي التي ستبقى لها من جيل

الى جيل ، تزرعها في خزائن روحها فتورق وتزهر وتثمر المجد الذي يحيا به مجتمع الانسان .

تفوّه الحسين بمثل هذا المعنى الموشّى بالدم ، وسكت كما يسكت البركان بعد قذفه غمرا من الحمم ـ اما الفجر فانه كان يلوح بتباشيره المنسلّة من الطاقة العليا المزروعة في حائط الغرفة ـ في هذه اللحظة ، وابن الحنفية متكفكف باطراقه كأنه تعب‌محزون ، فتح الباب على مهل اسعد الهجري ، فرأى الرجلين تحت وطأة من وعي ضائع بين يقظة ويقظة ، فادرك انهما كانا في المعراج الاخر الذي كثيرا ماكان يرقى اليه امامه الامام الحسين ، فاغمض عينيه عليهما واقفل الباب وانسحب .

عندما انتبه الحسين وجد اخاه ينظر اليه ونور الشمس قد مـلأ الديوان من الطاقة العليا المفتوحة في الجدار ، فقال له :

محمد ـ عجبا يااخي الحسين ـ الم تكن تحدثني في الليل ؟

الحسين ـ ولكننا الان في يوم اخر ـ هل تدري بحضرة من كنت ؟ قبل ان يهل علينا هذا الصباح ؟

محمد ـ كنت تحدثني بمبايعات القوم ـ وها اني الان احدثك ان تشفق على نفسك وعلينا فلا ترحل ـ لاتحمل عيالك ونساءك ، ولا ترمهم الى التهلكة ـ وان ترد ان ترحل فالى اليمن ارحل .

الحسين ـ ولكني الى الكوفة سارحل !!! الى الارض التي امتصّت دماء ابي علي سارحل !!! اتاني منذ لحظة رسول الله وقال لي : « ياحسين اخرج ، فان الله قد شاء ان يراك قتيلا ـ وان الله قد شاء ان يرى نسائي سبايا »

بعد ساعة من الوقت كان الركب المؤلف من الحسين ، واولاد الحسين ، وبنيهم ، وكل الاقرباء ـ يملأون القافلة التي اعدّها اسعد الهجري الذي مشى امامهم نحو خطوط القوافل من مكة الى ارض العراق .

كربلاء

وكربلاء ـ اني اتمثلها الخشبة العريضة التي عرضت فوقها مشاهد الملحمة التي كان نجمها الكبير ، وبطلها الاوحد ، الحسين بن علي بن ابي طالب الذي صرفنا مجهودا مطيبا به ، ونحن نستنزف النفس والاوصال في تتبع سيرته المليئة باسرار الذات ، وعنفوان النفس ، والمنسولة نسلا من كل عبقرية يقترن بها توق الانسان ، فيقتنص له منها جناحا يطير به الى سماوات اخرى تجعله قطبا من الاقطاب الذين يعتز بهم وجود الانسان .

والملاحم ـ انها نادرة في الشوق والتطبيق ، لهذا بقيت حصة من حصص المتشوقين اليها ، وانهم ماقدروا ان يعالجواها ويقدموا انماطا عنها الا في صنيع ادبي مجنح بالخيال ، هرقوا عليه جهدا واسعا ، وسنوات طويلة في البحث ، والتدقيق والتنقيح ، حتى يجيء قريبا من الواقع الانساني ـ الا انه بقي تعبيرا عن واقع اخر لايقدر الانسان ان يحياه الا بشوقه وخياله واحلامه ـ ان ملحمة الالياذة تشهد لهوميروس كيف خصص عمره كله لها ، فاذا هي صنيع ادبي ـ شعري ـ خيالي ، ليس فيه غير ابطال آلهة ، خاضوا الاجواء كلها وربطوها بالميدان الاوسع ، واججوا الصراع والهبوه بالبروق والرعود ، وبقي القراء وحدهم المشاهدين كيف يتم زرع البطولات الخارقة ، وكيف يتم الانتصار في المعركة الالهية التي يحاول ان يقلدها الانسان .

ماا روع الحسين ـ يجمع عمره كله ويربطه بفيض من معاناته ، ويجمعه الى ذاته جمعا معمقا بالحس والفهم والادراك ، فاذا هو كله تعبير عن ملحمة قائمة بذاتها ، صمم لها التصميم المنبثق من واقع انساني عاشه وعاناه وغرق فيه ـ ان الملحمة التي

قدّمها على خشبة المسرح في كربلاء ، هي الصنيع الملحمي الكبير ، ماظن هوميروس تمكّن من تجميع مثله في الياذته الشهيرة ـ هنالك ابطال اعتلوا الجو خشبة لعبوا عليها ، وهنا بطولة واحدة اتمّت ذاتها بذاتها ، فذة في مسراها ، ومصممة في عزمها ، وانسانية في قضيتها ، وواضحة في اهدافها ، وحقيقية في عرضها المشاهد ، وهي ـ بالوقت ذاته ـ مركزة على ملحمة اخرى أصيلة ، هي التي قدّمها جده العظيم ونفّذها فوق الارض وتحت السماء ، فاذا هي ملحمة تنتصر بالانسان فوق ارض الانسان وتحت سماء الانسان ، لاخيال فيها ، بل واقع انساني محض ، لحمة الامة وعجنتها بعضها ببعض ، في مدة من الوقت لم تتجاوز العشر سنين ـ اما الفترة التي اظهر فيها الحسين ملحمته الثانية والمشتقة منها فلم تتجاوز عشرين يوما ، من اول خطوة خرج بها من مكة الى اخر خطوة خرّ بها صريعا في كربلاء العطشى وهي ضفّة من ضفاف الفرات .

هل يجوز لنا وقد رافقنا الحسين ستا وخمسين سنة وهي كل عمره ، ان لانقفو خطاه في البقية الباقية من ايامه بيننا على وجه الارض ، وهي بقية محفورة الخطوات ، مشاها على فترة عشرين يوما ، فاذا هي نقش مطرّز بالدم ، ولكنه مطيّب بعبير البطولة القاصدة تحديد معنى البطولات في دنيا الانسان ـ فلنرافقه ـ اذا ـ من مكة الى كربلاء ، ولنكن ـ على الاقل ـ مشاهدين نمتص عرينا ، ونمتص التخاذل فينا ، ونمتص شذا البطولة وهي تدعونا الى كل اباء يجمعنا الى حقيقة الذات ـ ذاتنا الاجتماعية ـ يالغبطة الحسين وهو يحقق ذاته فينا .

ـ ١ ـ

لاشك اننا الان من المشاهدين الذين لهم تألفت الملحمة التي صاغها الحسين ، وكانت كربلاء خشبة مسرحها ، ليس المشاهدون زمرة مؤلفة من عبيد الله بن زياد والي البصرة والكوفة في الوقت الحاضر ، ولا من عمرو بن سعيد بن العاص والي الحجاز ، ولا من الحصين بن تميم ، والحر بن يزيد التميمي ، او من عمر بن ابي

وقاص الذي قابل اخيرا الحسين بثلاثين الفا نزلوا كربلاء وحزّوا عنق البطل !!! لا ـ وليسوا ازلام يزيد ، وازلام ابن زياد ، وليسوا القبائل الذين كان يمثلهم سليمان ابن صرد الخزاعي مع رؤساء الاخماس الموزعين في البصرة ـ ان المشاهدين ـ ونحن منهم الان ـ هم كل هؤلاء الذين سيمثلون امام خشبة المسرح المساة بكربلاء ـ بارتباط وثيق وممدود الى خارج البصرة والكوفة ، الى الشام ، ومصر ، واليمن ، وكل ارجاء الحجاز ـ الى كل نسمة او نأمة تمثل الامة التي تعب على رصها ومزجها واخراجها وليّها الاكرم المسمى محمدا جد الحسين . . . ان الامة جمعاء هي التي قصد الحسين اعتبارها قبلته الكبرى ، وهي الاحق في الاستماع اليه يرشدها ويقدم لها الولاء ممهورا بجهد الروح ، ومشفوعا ببذل الدم .

ـ ٢ ـ

وخطوط القوافل ـ انها ممتدة من مكة الى العراق والشام عبر الصحراء ، ولقد انشئت فيها محطات تضبط السير من الضياع وتكون في الوقت ذاته امكنة يرتاح فيها المسافرون حتى يتمكنوا من متابعة الرحلة الطويلة والشاقة . انها عديدة ، اما المشهور منها فهو مرتب هكذا من مكة الى البصرة والكوفة وارض الشام : التنعيم ـ الصفاح ـ وادي العقين ـ الحاجر من بطن الرمة ـ ماء العرب ـ واقصة ـ الجزيمية ـ التعلبية ـ زبالة ـ بطن العقبة ـ شرف التعذيب ـ الهجانات ـ كربلاء .

اخذت قافلة الحسين الطريق من مكة وبقيت تخط حتى توقفت في كربلاء ، من عشرين ذي الحجة من السنة الحادية والستين هجرية ، وتوقفت في كربلاء في اليوم الاول او الثاني من الشهر التالي محرم ـ اننا الان نرافقه ، كمشاهدين ومصغين ـ ان في المشاهدة عبرة سخيّة ، ولكن الاصغاء اليه في المناسبات اللجوجة كان وفير التأمل ، لانه كان تظهيرا اصيلا لكل ما في نفسه من لواعج ، ولكل ما في رؤياه من مدى وصدى .

-٣-

ادرك الحسين ـ وهو لايزال في المحطة الاولى ـ التنعيم ـ عبد الله بن عمر ـ فلنصغ الى هذا النوع من الحوار الذي دار بين الاثنين في مخيم الحسين :

عبد الله ـ ياسبط الرسول ـ ماكدت اعرف انك تركت مكة حتى هببت الحق بك ، حمدا لله اني توفقت ولمّا تقطع بعد اكثر من المحطة الاولى من الطريق .

الحسين ـ الا تراني ارحب بك هات ماعندك .

عبد الله ـ مااكرمك تكسر قليلا من شوقي ياابن علي ـ لقد رأيت جدك الرسول يكشف عن سرتك وانت طفل ويقبلك بها وهو مغمض العينين ـ الا تكشف لي سرتك ولو كنت لم تفعل ذلك منذ اكثر من خمسين سنة ؟

الحسين ـ لقد ذكرتني يارجل بنعيمي الذي حكت منه ثوب احلامي ـ فها اني امامك على ظهري ، ولن اتحرك حتى ولو ضربتني بالف خنجر .

وانحنى ابن عمر يقبل سرة الحسين ثلاثا ، وفي كل واحدة منها كان يبدو وكانه ينتهل من الكوثر ثم نهض وهو يشكر ويقول :

عبد الله ـ اتريدني اشكرك عل نعمة اسبغت علي ياابن ينت الرسول ـ ولكن . . . هل تصغي الى رجاء لي ؟

الحسين ـ اجلس وافصح يا ابن عمر .

عبد الله ـ اى افصاح لي وانا استعطفك بالرجوع الى محارم الكعبه ـ الا تسمعني اقول لك : ان نجاتك من القتل لايشفع فيها واحد بالالف ان تابعت طريقك !!!

الحسين ـ ان خمسين سنة مرت علينا بعد ابن الخطاب قد صاغت قدرى ، فلا تحزن علي ياابن عمر !!! رعاك الله من مشفق تاخر كثيرا اشفاقه .

ونهض الحسين يتمشى تحت بلاس الخيمة ـ فهم ابن عمر انه المصدوم برجائه فقام حزينا وانسحب ، بينما كان يدخل بوابه اسعد الهجرى .

الهجرى ـ سعيد اخو عمرو بن العاص !

الحسين ـ ايلاحقني امير الحجاز بعد ان تركت له الحجاز وكل اهل الحجاز الا خسيء الرجل ، وخسيء مروان بن الحكم والوليد بن عتبة ـ ادخله يا أسعد ولا تخف علي .

بعد قليل كان اخو الوالي في حضرة الحسين على بوابة المخيم ، فعاجله الحسين قبل ان يرمي عليه السلام :

الحسين ـ من قبل الامير ، اليس كذلك ؟

سعيد ـ اجل ، اخي عمرو ـ وهو امير الحجاز كما تعلم ـ يعتب عليك لاتودعه قبل ان ترحل .

الحسين ـ طرق القوافل مفتوحة ـ قل للامير ياالخاالامير ـ فمتى كان على مسافر ان يودع الامير ؟

سعيد ـ ولكن الحسين يعلم كما يعلم عبدالله بن الزبير ان المبايعة للخليفة يزيد هي التي تفك من المراقبة والملاحقة .

الحسين ـ قل للامير ان لا شيء يحجزني في ارض اريد ان اتركها الى حيث يطيب لي .

سعيد ـ انه عصيان على ما يبدو ـ سريعا ما سابلغ الامير ـ نحن على خيل لا تلحق ـ غدا اوبعد غد يكون لنا ما نتدبر به امرك .

لم يجهد الحسين نفسه بالجواب ، بل تبسم وارتد الى الداخل ولم يعد يرى كيف انصرف الرجل ـ الا انه امر سريعا بالرحيل ـ وقبل ان يبلغ المحطة كان قد لحق به

ابنا عبدالله بن جعفر ـ عون ومحمد ـ فنزلا معه في ـ الصفاح ـ حيث دار الحوار التالي :

الحسين ـ وما عند ابني العم عون ومحمد ؟

عون ـ لقد هلع ابي عليك ياعم لا سيما وقد عرف ان الامير ابن العاص قد ارسل في اثرك اخاه سعيد ، فقصده وبقي يلح عليه حتى استحصل على امان لك تعود به الى مكة ـ وهذا هو صك الامان .

الحسين ـ لا امان لنا ياعون في ظل بني حرب ـ الامة كلها ياابن العم تضيع عن التلقط بحبال امنها !!!

محمد ـ ولكن الكتاب بين يدينا ياعم .

الحسين ـ انها كذبة قرد يامحمد ـ الم يخبرك ابوك ـ عبدالله بن جعفر ـ ان صكوك الامان قد بدىء بتمزيقها منذ العهد الاول على يدي ابي بكر؟ ! ! فكيف نصدق امانا يقهقه به قرد جديد في عهد يزيد ؟ إرجعا وفتشا عن امان آخر ياحبيبي ـ علني ساشتريه لكما من يقظة جديدة مزروعة في دمي الاحمر !!!

عون ـ وما تقصد ياعماه ؟

الحسين ـ الا تخاف إن فسرت لك ؟

عون ـ ولكني اخاف ان لا اراك ياعم !! لقد التقينا منذ ساعة بشاعرنا الفرزدق ذاهبا الى الحج ـ سالناه عن الناس في العراق تجاهك ، فاجاب : قلوب الناس معك ياعم واسيافهم عليك !!!

الحسين ـ اتظنني لا اعرف ذلك ؟

عون ـ وكيف تذهب اليهم ؟

الحسين ـ حتى ابلوهم بالحق ـ حتى استشهدهم على نفوسهم

الضائعة بين الصدق والكذب ـ حتى اوكد لهم ان
الوعي لا يذل وان الذل لا يعى ـ حتى ارشدهم الى
حقيقة هاجعة فيهم يجلونها بالصدق ، والاباء وعزة
النفس ـ انها القيمة التي يعيش بها الانسان الصحيح
الكريم ـ وهي التي تبني المجتمع الصحيح بقلبه وعقله
وعفافه ـ حتى ابين لهم ان الحاكم الذى يرهب الناس
ويشتريهم ، هو ذاته الذى يجعلهم ابقارا تحلب وقطعانا
تسمن ـ ان الحليب والدسم ليهرق فوق موائد
الامير !!!

محمد ـ وكيف يمكنك ياعم ان تفهمهم ذلك ؟

الحسين ـ اقدم لهم القدوة ـ اعلمهم كيف يكون الرفض يشترون
به صك الامان ـ لو ان الامة تعلمت الرفض يامحمد ،
لما كان ليزيد بين يديها رقصة تهريج مع دن ودفّ
ووتر !!!

محمد ـ وكيف تقابله وهو لابس هكذا نعله ؟

الحسين ـ ساقابله بالرفض ـ وسامكنه من الرقص على بدني حتى
ترى الامة بأم العين ، ان ثأرها لي هو الذى يحييني فيها
رافضة ـ فيما بعد ـ تسليم حاكمها سيفا يذللها به !!
فليكن ايمانك بالامة يابني ، وليكن لي ان اريها ان الحق
يبنيها، وان العنفوان يحميها ويزهيها .

ما توصل الحسين الى مثل هذه الحرارة في البحث حتى سكت كانه المنهك ـ ثم نهض من مكانه وخرج يستكشف وطأة الليل في الخارج ـ بعد لحظات لحق به عون ومحمد ، فاستفهم الحسين :

الحسين ـ اتعودان الآن الى مكة ؟

عون ـ أبدا ياعم ـ ها اننا نمزق ـ تحت قدميك ـ كتاب امان

عمرو بن العاص ـ ولن نتركك وحدك في مواجهة
القدر !!!

بينما كان الحسين يراقب الورقة المفتوتة كيف راحت تجثم بين قدميه ، كان يتناول بين ذراعيه الرجلين ويلفهما بجبته الوسيعة !!! مع الصباح قطعت القافلة وادى العفين وتجاوزتها الى الحاجز من بطن الرمة .

ـ ٥ ـ

توقف الحسين قليلا في هذه المحطة لتحضير كتب وارسالها بسرعة الى البصرة ـ ولقد استدعى اليه قيس بن مسهر الصيداوى وهو مرافق لهم في القافلة التي لا يتجاوز عددها مئة وثمانين نفرا بما فيهم النساء والابناء والاخصاء ـ لقد دار الحوار بالشكل التالي :

الحسين ـ اني ادرك تماما ان المهمة صعبة ياقيس ، ولكنك انت الاصلب في تعهدها ـ هذه رسائل ثلاث ، اجتهد في الحرص عليها وايصالها الى سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجبة ،ورفاعة بن شداد ـ معناها حتى يكونوا على علم بقدومنا تتميما لكل ما مهد له مسلم بن عقيل .

قيس ـ ساسلك اقرب الطرق ، وساكون ياسيدى من نوع الثعالب في التخفي والظهور ـ اليست الحالة تقضي مثل ذلك ؟

الحسين ـ صدقت ـ وارجو ان لا يكون قد وصل الى يزيد خبر تركي مكة الى البصرة ـ ولكن امير الحجاز ثعلب آخر ياقيس ، وليس اخوه سعيد اقل من قرد على ظهر برذون ـ عليك ان تتحسب كثيرا ياقيس ، اتوقع ان ما من مخرم

من مخارم الدروب الا واصبح ليزيد عين عليها ـ فماذا
تراك تصنع بالكتب معك اذا وقعت بمصيدة ؟

قيس ـ لا تخف ياسيدى ، امزقها وازدردها ، ولن اعدم وسيلة
ابلغ بها البصرة اني كنت رسولك اليهم فيتم لنا بذلك
ابلاغ الغرض .

الحسين ـ تزود بالحق وامش ياقيس ـ وانتظرني ألحق بك ـ الا ترانا
ابدا على موعد ؟!!

التفت اليه قيس وقد التهبت حدقتاه بما لا يفسر انه حلم او عزم ، او وحي من قرار ولكنه سريعا ما انسحب وامتطى الليل كانه الخفاش ـ ولكنه عُلِمَ فيها بعد ان ما توقعه الحسين كان ترجمة صحيحة لما قد حصل ـ فامير الحجاز ما وجه اخاه في اثر الحسين وادركه في المحطة الاولى من الطريق « التنعيم » الا وكان قد وجه رسولا آخر خطف الطريق خطفا الى يزيد في الشام يطلعه على ما حصل ـ وفي الساعة ذاتها كان صاحب الشرطة عند يزيد ـ الحصين بن تميم ـ يربط الخطوط بالمراقبة : من القاسمية ، الى خفان ، الى القطقطانة ، الى جبل لعلع ، وكلها مراكز ومحطات لا بد للمتوجهين صوب العراق والشام ان يمروا بها ـ ولقد خدع الناس على هذه الخطوط برجال شرطة يزيد وظنوهم طلائع جيش يخص الحسين ، لان شائعات ـ ولو متكتمة ـ كانت تتردد هنا وهناك بان الحسين سيبايع له ـ اما حامل الكتب قيس فانه لم ينج من خيوط الشراك ، فمزق الكتب وازدرَدَهَا قبل ان يساق الى والي البصرة عبيد الله بن زياد الذى امره ـ حتى ينجو ـ بان يعتلي منبرا في الكوفة ويلعن من فوقه الحسين ، فاطاع قيس ، ولكنه هتف بصوته المرعد من فوق المنبر بلعن يزيد وابن زياد ـ ولما رمي من فوق السطح وتحطم راسه ، كان الخبر قد دخل كل بيت من بيوت الكوفة ، وهكذا تم تمزيق الكتب ، ولكن التكهن بان الحسين قريب من الابواب كان حصة الألبّاء .

لم يتوقف الحسين الا قليلا في محطة « ماء العرب » - وبينما كان رجاله يملأون القرب لعطش الطريق ، كان الحسين يصغي لرجل مشهور هناك بحكمته وحسن رايه ، عبد الله بن مطيع العدوى :

عبدالله - من انا ياابن بنت الرسول حتى تصغي الي ؟ ولكني أربأ بك وانت الحكيم البصير ، ويغلبني حبي لك ولأهل البيت فاجرؤ واقول لك : بالله عليك ياسيدى لا تكمل الطريق - لن يكون لك من محبة القوم درع تقيك - انهم يعدون ولا يفون - تظنهم صادقين وهم مقدمون . . . ثم ، والله اعلم ، لماذا يلوون على اعقابهم ويهربون !!!

الحسين - وانا اعلم أنك الصادق ياابن مطيع ، ولكني لا اتمكن من الهروب مثلهم مما كلفني جدى القيام به - ان الامة ايها العدوي - ولا شك انك تعرف انها امة جدي - تطالبني بان أقرأ عليها فصلا من فصول الكتاب الذى خطه جدى وقرأ منه ابي علي فصلا كبيرا عليها ما تذوقت منه الا القليل - وقرأ منه اخي الحسن فصلا آخر لم تفهم الا قليلا مغزاه . . . اما انا فحصتي من القراءة شاقة كما يبدو لك ، ولكني ساتذوقها وأعلّم الامة كيف يستحلبون منها حلاوة هي وحدها التي تعمر بها خلية النحل .

عبدالله - سيدى . . . هل هذه هي العظمة ؟

اخذ الحسين السؤال وهو يلتفت صوب الرجال وفي ايديهم القرب الملاىء من مياه « ماء العرب » - ففهم ان الوقت قد حان لترك المكان ، فعاد الى جليسه ليرد عليه جواب السؤال :

الحسين - وانها في الشهادة اذ يحين وقت الشهادة - على رسلك
يااِبن مطيع !!!

- ٧ -

واقلع الركب وابن مطيع يشيعهم وفي عينيه لهب جديد تركه يهبط الى العميق من وجدانه ، والله اعلم كيف تحول في نفسه بعدما وصله خبر استشهاد الحسين في كربلاء !!! اما القافلة فانها الآن في « واقصة » وهي محطة كبيرة وعريضة لانها مفرق يتشعّب ، يمينا الى الكوفة والبصرة ، وينحدر يسارا الى غوطة الشام - ولكن المفاجاة اوقفت الحسين فترة من الوقت للتداول مع الاعراب هنا ، لان الخطوط كلها اصبحت مسدودة باوامر صادرة من الشام ، راح ينفذها والي البصرة عبيد الله بن زياد - ان الناس ملقوطون بخوف ورهبة وحذر - هنالك واحد منهم مشهور بمجاهرته بحب الامام علي ، ولكنه الآن يبدو كانه ارنب يفتش عن وجر يتخبأ فيه لان الواصل الى ارض واقصة هو الحسين - سريعا ما اقتحم زهير بن القين باب منزله ، واقفله وراءه ، ليجد زوجته دلهم بنت عمرو واقفة وفي عينيها فرحة عيد - ولكنها هدأت روعه وهي تسأل :

دلهم - ماذا يروعك ؟

زهير - الم تسمعي بنزول الحسين محطة واقصة ؟

دلهم - انها البشرى مني اليك - هل انت سعيد ؟ ام انك الجازع ؟

زهير - ولكني الجازع يادلهم - لقد سد المنافذ كلها الخليفة يزيد - ولا اظن الحسين ، ولا كل من يشد بحبل الحسين ، ناجيا من كف يزيد وقبضة الوالي ابن زياد !!!

دلهم - الا تحب الحسين ؟ وابا الحسين ؟ وام الحسين ؟ واخا

الحسين ؟ وجدّ الحسين ؟

زهير ـ وكيف اهرب من يزيد ؟ وقرود يزيد ؟ ومن زياد ؟ وابن زياد ؟

دلهم ـ وهل تبدل السعود بالقرود؟ والنعيم بالجحيم ؟ والبطولة بالجبانة ؟ ومن يصدقك بعد الآن وانت على نفسك تكذب !!!

زهير ـ .... الخوف من الظلم !!!

دلهم ـ .... انه الموت تحت حوافره !!!

ما كاد ابن القين يرى وجه زوجته دلهم كيف يموج بما تقول ، حتى هبّ من مكانه الى الخارج ـ بعد ساعة من الوقت ـ وكان الحسين في مخيّمه في واقصة ، وبين يديه اخصاؤه ، ومن بينهم عون ومحمد ابنا جعفر ـ وصل زهير بن القين وفي وجهه ولاء وعزم ، قدر ـ رأسا ـ ان يقرأهماالحسين :

الحسين ـ وما اسمك ؟

زهير ـ زهير بن القين ـ ولكن زوجتي اسمها دلهم .

الحسين ـ وتحبها .

زهير ـ كالعبادة .

الحسين ـ يالها من امراة رائعة ـ اراها كتبتك حرفا رائعا على شفرةالسيف ـ اتراني حزرت ؟

زهير ـ ولكني طلقتها ـ اني آت من عند الشيخ الذى عقد زواجي ، وها اني الآن قد فككته عنده .

الحسين ـ وكيف يمكن ذلك ؟

زهير ـ ولقد خصصتها بكل ثروتي .

الحسين ـ لانك جئت تنضم اليّ ؟

زهير ـ حتى لا تكون ارملة من بعدى ، وحتى لا تلتقطها الحاجة .

الحسين ـ يبدو انك صممت ان تستشهد معي !!!

زهير ـ انها دلهم ياسيدى ـ احبت ان اربط شأني بقدرك !!!

الحسين ـ وانت ؟

زهير ـ كان سيفي مقصوفا واصبح الآن لا يقصف .

هكذا تصرف زهير بن القين والتحق بالحسين ولم يتركه في كربلاء حتى انضم الى سلسلة المستشهدين .

ـ ٨ ـ

بعد هذه الرواية الطريفة والتي يحقق مثلها كل ذي هوى في النفس يصدق حسه وظنه ، ويميل به التفاني الى مظهر من مظاهر البذل السخي كبذل الام ذاتها من اجل ولدها ـ انسحب الحسين نحو المحطة الثانية وهي « الخزيميَّة » ـ ولكنها ما احتوته حتى فجعته بخبر مقتل مسلم بن عقيل بعد ان اكتشف عبيدالله بن زياد مخبأه عند هاني بن عروة ـ وكان للوالي ان قتل الاثنين ومثل بهماابشع تمثيل ـ وكان مقتل ابن عقيل في اليوم ذاته الذى ترك فيه الحسين محارم الكعبة .

ترك الحسين المحطة هذه كانه المفجوع بذاته ـ ولم يدر انه الهائم حتى اعلموه انهم الآن في « زبالة » وان افواجا من الناس يريدون ان يروه ويسمعوه، فانبرى اليهم ، وهو الحزين المقبوض النفس ، ليقول لهم : انه ما اتى اليهم الا ليجسّد امامهم عزمه ورفضه ـ وانه يدرك منذ زمن بعيد ، ان الامة باغلبيتها قد ضعفت وهانت تحت قبضة الذين ذللوها ، وارهبوها ، ومنعوا عنها حقيقة التعبير ، وها هي بذاتها تستدعيه من الكوفة والبصرة لان يمثل امامها ويقودها الى حالات التحرر ـ مع انه متاكد انها لا تجسر وتنزل الى الساحة وتملأها بجبروتها ، وارادتها ، وعزتها ، وكرامتها ـ لقد سلبوها انفتها ، واستبدلوها بالجبن ، والالتفاف بالصمت والتلطي ـ ومع ذلك فانه اراد ان يشعرها ان في الذل والركون اليه مهلكة من الهوان تفصل الانسان عن حقيقته ، وتهدد المجتمع بانحدار متردّ لابد ان تشتد وطاته عليه مع

تالب الايام !!! ـ واراد ان يظهر لها انه لبّى نداءها ـ وان لم يصدقها فيه ، حتى يثبت لها انه الوفيّ ، وحتى يعلمها ان الملبي صادق في ما يلبي ، وانه لن يهرب من الساحة التي يقدم فيها رفضه وعزمه ودم الشهادة ـ في سبيل الامة التي ـ وان تتلكأ الان فلن تتلكأ غدا بعد ان تعرض امامها حقيقة الرصد !!!

اما المرافقون الذين كان ينمو قليلا عددهم من محطة الى محطة ، فانهم أخذوا بروعة القول ، ولكنهم بقوا تائهين ، حائرين ، وكانهم يستفهمون فاستدركهم الحسين بما معناه ـ انه الواقع الحزين ! ـ عندما تجمع الامة امرها انضموا اليها اما الآن فاننا ـ مع النخبة المريدة ـ نكفي لمتابعة الطريق والقيام بالمهمة ، وتقديم القدوة ، وارضاء الشهادة !!! اما الذين تستدعيهم عيالهم الى المساندة في تحصيل العيش ، فاني لهم اقول : اذهبوا ، خير لكم وأجدى ـ سوف يطلبكم الغد الثاني الى تحقيق آخر ، ينجلي فيه سناء آخر انتم دائما بحاجة اليه .

بعد ذلك امر الحسين بمتابعة الطريق ، وقد انفرط قسم وافر من القوم ، وبقي معه الذين من امثال عون ، ومحمد ، وزهير بن القين .

ـ ٩ ـ

بعد مسيرة مضنية بلغوا محطة « بطن العقبة » وقصدوا ان ينزلوا فيها ويتزودوا بقليل من الماء ، عندما تقدم منهم رجل يبدو من سيمائه انه محترم في القوم ، وطلب مقابلة الحسين ـ وصادف ان الحسين بالذات كان واقفا وغارقا في تلافيف نفسه ، فانتبه الى الرجل وراح يساله :

الحسين ـ لعلك لم تشاهد بعد الحسين .

لوذان ـ الاذن عندى ابعد من العين .

الحسين ـ لو انك تمزجهما لكنت السامع الرائي في آن واحد ـ الا تسمع الآن وانت ترى وانت تسمع ؟

لوذان ـ يظهر اني الموفق في اللحظة الكبيرة ـ اتقبل نصحي ايها السيد ؟

الحسين ـ هل انت متمكن من معرفة ذاتك ؟ هات النصيحة حتى اسمع .

لوذان ـ انا لوذان بن ابي عكرمة ـ لايبدو لي ان في خاصرة الافق غيمة تمطر ـ فهلا تعدل عن المجازفة ؟

الحسين ـ ان المجازفة يالوذان ان نعدل عن المجازفة ـ أأقول لك : ان ارادة الله هي الفاعلة ، وهي التي تعصر الرمال وتفجر منها دفق الفرات !!!

بينما كان ابن عكرمة يعصر عينيه ويضغط اذنيه تحت وطاة ما يرى ويسمع كان الحسين يامر باستئناف السير تاركا محطة « بطن العقبة » لكل البطون والافخاذ التي استنجدت بها قبلية عمر بن الخطاب ، وابي بكر ، وابن عفان ، وجعلوها بقرة تحلب اللبن في اكواب معاوية ويزيد وعمرو بن العاص ـ بعد مشي مرحلة بزاد قليل وماء اشح ـ بلغوا محطة «شراف» فامر بنصب الخيام فيها .

ـ ١٠ ـ

صحيح انهم خيموا في «شراف» وملأوا قربهم من مائها ، ولكن الحر بن يزيد التميمي كان من المخيمين ايضا في الدائرة المشرفة على المحطة ، على راس قوة مؤلفة من الف فارس ، تراقب القافلة الصغيرة، وتحصي عديدها ، وتضبط انفاسها ، ولم يعتم قائدها حتى اقترب من المخيم ليدور بينه وبين الحسين حوار ناشف النبرات :

الحر ـ لن اتخبأ بعد الآن عليك ـ حتى حديثك بالامس مع لوذان بن ابي عكرمة وصل الي ـ نحن في الجيش لا ناخذ الاوامر بالرموز ـ بل بالاشارة الصريحة ، نصحك

الرجل بالعدول عن المجازفة ، ونحن الآن لا نقبض
عليه ، لانه نصحك ولم ينضم اليك ـ لو انه فعل لكان
الان معك في داخل الطوق ـ اكرر عليك ان تقبل
النصيحة وتستعد للاستسلام لعبيد الله بن زياد ـ ربما
تكون النجاة في الاستسلام اسهل المجازفات .

الحسين ـ انا ما جئت اجازف ياابن التميمي ، وارجو ان تحذف
اسم ابيك من بداية انتسابك ـ اتركه لابن معاوية وصلة
كفر ، وحلقة مجون ـ لماذا تدعي الصراحة ولا تاخذ منها
ان الاسلام يتبرأ من الفاسقين الماجنين ، وان الامة
تسقط في الحفر اذ يتسلط عليها المجدفون !! انا ياالحر ـ
جئت البي الامة في طلبها الصريح ـ في حوزتي حمل
ناقة من الرسائل ـ ان تكن حرا ومؤمنا بالصراحة والحق
انثرها الآن بين يديك حتى ترى اني اطالب بحق القوم
الذين هم ضلع من ضلوع الامة ـ انهم يرفضون فسق
يزيد ، ويطلبون مني تحرير الامة من الكابوس الذى
يرهقها ويبعدها عن المحارم !!!
هل تصغي اليّ ايها القائد لتعرف اين هي الصراحة ؟
واى لون تصطبغ به الصراحة ؟

الحر ـ اى جواب تترقبه مني يقنعني في ادعائك ـ اذا كان هذا
هو الصحيح ، فاين هم القوم ينادونك ولا يظهرون ؟

الحسين ـ واني اسالك : لماذا تسدون المنافذ ؟ وتربطون خطوط
القوافل ؟ لماذا تتحكمون « بواقصة » وتمنعونني عن
السير الى الكوفة والبصرة ؟ ولماذا انت الآن في احكام
الطوق على مخيّمي في هذه المحطة «شراف» ؟ اليس
ذلك كله في الاحتياط الكبير حتى لايكون للامة قدم

على خط من خطوطها المدركة ؟ الم يكن هذا احتياطكم
منذ خمسين سنة حتى هذه اللحظة الحبلى بمآثم يزيد !!!
ياللخط السخيف الذي اضعف الامة وازاحها عن
حقيقة صراطها !! - ياجدي النبي يرسم للامة خطها
ليأتي يزيد ويرقص بقروده على فيئها !!!

الحر - وماذا تريد مني ان اقول لك ؟ اسمع - لم يسمح لي الان
ان اقبض عليك - تقدر فقط ان تتوجه الى حيث تريد
الا دخول الكوفة والبصرة - ارجع الى مكة اذا اردت
- سيكون ابن العاص بانتظار رجوعك - اما اذا اردت
ان تخيم في هذه الارض ففي « العقر » او في « كربلاء »

قال الحر ذلك ولوى راجعا الى مخيمات الجيش ، اما الحسين فانه ادرك ان الساعة الحاسمة لم تبتدىء بعد قرعات ثوانيها ، الا انها بين لحظة ولحظة آتية !! إمّا في ارض « العقر » او فوق الارض التي تسمى « كربلاء » - يكفيها - وان تعطش - انها واحة تسغب الى الفرات !!!

- ١١ -

تركوا «شراف» كانهم المفتشون عن غيرها لا ليخيموا فيها ، بل ليتحصنوا بها ويقلعوا منها للنزال والصراع - ياللقبضة من الرجال - يمتشقون السيف في وجه جحفل من الجيش ، معه السيوف ، والرماح ، والسهام ، والنبال !!! والدروع المحصنة بالزرد ، والخيول ، وطيور الباز المسنونة المخالب والمناسر !!! - اتكون الاستعدادات الوافية قد اعدها والي البصرة عبيدالله بن زياد لصد معركة يقوم بها عشرات من الرجال هم في رفقة الحسين ، وهم الميامين ، ولكنهم العزل ؟! ام انها في وجه معركة ستزحف اليها البصرة بقضها وقضيضها !!!

ولكن البصرة - ويعرفون - انها تنام على ترهيب ، وتخويف ، وتجميد - وكلها

ملاقط واغلال ـ فمما يخاف اقوام يزيد ، وازلام زياد ؟ـ ام انه الارهاب الذى اتقن الفن في التمادى ، ولم يعد يعرف معنى الارعواء ؟ ـ ولكن الجيش المستعد للنزال ـ ستعرف « كربلاء » ـ انه باسم يزيد وتنفيذ ابن زياد ، يفوق الثلاثين الفا ـ اتراها ستتهيب الاجيال !!!

ولكن الحسين تمكن اليوم من التخييم في المحطة المسماة « العذيب » ـ لقد استقبله فيها ثلاثة مناصرين قصدوا ان يلبوا عنصر الوفاء عمر بن خالد الصيداوى ، مجمع العائدى وابنه ، وجنادة بن الحارث السلماني ـ اما رفيقهم الكبير فهو الشاعر الكبير الطرماح بن عدي ـ قالوا : نحن اربعة الاف ، تقدر ان تضرب بنا ساعة تأمر ـ فهبّ اليهم الحسين وعينه كبيرة، وعزمه اكبر ، وهو يقول :

الحسين ـ هنالك قرد يمنعكم من الوصول ـ ولكني لا اطلب
ارهاقكم بلا جدوى ـ لو انكم تصوير واف لحجم
الامة ، لكانت اختفت منذ زمن بعيد هذه الذئاب من
حول الحظيرة !!! ـ افهموا علي وكونوا خميرة من
الخمائر . . . ستفعلون في غد اخر ما لا تتمكنون من
فعله الآن . . . وليس الغد بغير وعيكم ووعي
الامة . . . ارجو ان تراقبوني فقط كيف ساتصرف في
اللحظة الحاسمة ، وانا ـ ساعتئذ ـ لكم وللامة التي اقدم
لها الرفض مع عنصر الضمان !!!

بالحقيقة انهم فهمواالرمز وانكفأوا يراقبون من بعيد ـ اما الطرماح فانه طرح نفسه على الحسين كانه يبكي :

الطرماح ـ الا تظن ان جبلي طيّ : أجأ وسلمى ، يتمكنان من
حمايتك في ساعتي المحنة والضيم ؟!!!

الحسين ـ انه قلبك الكبير ايها الشاعر ، ولكن للامة مطلبا آخر
تشتري به حقيقتها مني ، ولا تشتري سلامتي

الصغيرة - افهمني ياطرماح ، وروّ شعرك من اطيب المناهل !!!

- ١٢ -

وكان النزول في كربلاء - ياللحصون المّدرعة ! - ويالّلعطش المشروب !- ينز عليه الفرات بالماء الفرات - ويالّلرماح المشرعة ، تصهل بها الخيل من عزّ الى عزّ ، تتنادى به السهول الفيحاء - مدّا إثر مدّ نحو الكوفة ، والبصرة ، في انسياب يخضرّ بدجلة ، ويرتفع شامخا بالجبال المشرئبّة فوق الخليج !!! - وياللجيش يكفكف الارض ويصونها بالدفاع عن شرف تحاول ان تدوسه زمرة من الخارجين على السدة الرفيعة التي يحرسها بالمجد خليفة عزيز الجانب بهي الطلعة والاهاب ، اسمه يزيد بن معاوية ، جامع الرايات وحامي الاسلام في كربلاء الاسلام !!! - ويا للدعيّ يمرغ الخلافة بانتسابه اليها - كأنّ الله ما انزل القرآن الا ليلفه به في لفافة الارث ، ولفافة الحق ، ولفافة البيان !!

واستلم زمام القتال - على راس جيش اكثر من ثلاثين الفا - عمر بن سعد بن ابي وقاص ،وبقي يجول ويصول ، من هلةّ محرمّ حتى العاشر منه - ولم يترك ساحات الرمال الا مقفلة تمام الاقفال على الدعيّ العاصي ، اللابس الحبرة اليمانية المشقوقة ، والممتشق سيفاً يلعلع به كأنه مقدود من مقالع الجحيم !!!

لقد بقي الفارس يخض الحسام الابيض بيمينه والتهديد الاحمر بيساره ، والعزم والزخم الاشهبين براسه وتلعة عنقه - حتى هوى والأحمر القاني صبغة حبرته ، وملء كفيه يغب منه عطشه ، ليس الى الفرات وحسب ، بل الى قنينة يملاها منه ليهديها الى الرجل الآخر الغائب وراء اكثر من الفي سنة ، حتى يغمس قلمه بحبرها ، ويخط ملحمة اخرى غير الياذته العظيمة تكون تعبيرا حيا عن ملحمة انسانية واقعية تقرأها الآن كربلاء .

الخاتمة

ايه ياحسين ـ
والقلم ؟
انك بريت نفسك قلما للصفحة الكبيرة !
من المعاناة بريتها !
ومن بهاء الحقيقة !
ولبست لها حلة البرفير !
وعلى النول الأبي نسجتها !!!
ياللبطولة ـ
ظنوها شيئا من متاع ـ
وقالوا انها جنون المجازفة !!!
وهاجموك بها ـ
كانك فوق الف حصان ـ
واقتنصوك بعد الف جولة والف صولة !!!
وحزوا راسك !!!
وداسوا بدنك !!!
كانك الاوسع في الميدان ـ
وما دروا انك ما قهرت وما غلبت ـ
وانك صغت الملحمة !!!
ياللحقيقة ـ
تأتزر بذاتها في مجال التحقيق ـ

ويظنونها خيالا من الوهم وضغثا من الاحلام !!!
والملحمة ؟
انها الحقيقة الكبيرة في النفس اذ تتجسد ـ
وتبقى وهما وحلما اذ تضنيها البلادة !!!
وصغت الملحمة :
انها القدوة في الرفض ـ
انها العنفوان ـ
تعلم الانسان كيف يرفض الذل والهوان ـ
وتعلمه كيف يرزم اجياله في مجتمع الانسان !!!
ياجدك العظيم ـ وابيك المتم !!!
كيف البساك اللون وأذّراك به !!!
فاذا انت ـ من جيل الى جيل :
ثورة تعلم ـ
وثورة تبني ـ
وثورة تهدم جدران الظلم ـ
وثورة تبقى حية في وجدان الامة ـ
ووجدان الانسان



استشارة المراجع

تاريخ الطبري - لأبي جعفر الطبري

تاريخ التمدن الإسلامي - جرجي زيدان

تاريخ العرب - فيليب حتي

مجموعة سير العرب - ا.م . مغنية

الإمام الحسين - باقر شريف القريشي

أعيان الشيعة - الإمام السيد محسن الأمين

ثورة الحسين في الوجدان الشعبي - الشيخ محمد مهدي شمس الدين

للمؤلف

الإمام علي نبراس ومتراس

فاطمة الزهراء وتر في غمد

محمد شاطىء وسحاب

يسوع ابد الإنسان

لبنان على نزيف خواصره

جبران خليل جبران في مداره الواسع

مي زياده في بحر من ظمأ

أمل ويأس

الجذور

محاكمة هارون الرشيد (مسرحية مخطوطة)

المهلب بن أبي صفرة (مسرحية مخطوطة)

الإمام الحسن الكوثر المهدور

الإمام الحسين في حلة البرفير

الفهرس

الموضوع ـــــــ الصفحة

الكلمة الاولى ٥
مباهلة ٧
توطئة ٩

القسم الاول

ازاميل ١٥
الاحضان ١٧
اهل البيت ٢٥
الاساس ٢٩
حجة الوداع ٣٢
اين هو الحسين ٣٦
انه هنا الحسين ٧٨

القسم الثاني

في حلة البرفير ٨٥
المعاناة ٨٧
عهد ابن الخطاب ٩٣
عهد ابن عفان ٩٦
عهد الامام علي ٩٨

الموضوع ———— الصفحة

الصلح الابيض للامام الحسن ١٠٣
شعلة الفشل ١١١
المبايعة ١٣١
الشرارة ١٣٥
روعة التصميم ١٣٨
كربلاء ١٥٢
خاتمة ١٧١
استشارة المراجع ١٧٣
عناوين بحوث الكتاب ١٧٥



